سلسلة المعارف التعليمية

علوم القرآن والتفسير

بيّنات

في معرفة القرآن الكريم

نظرة تفسيريّة موضوعيّة في خصائص القرآن الكريم

دار المعارف الإسلامية الثقافية

سلسلة المعارف التعليمية

بيّنات في معرفة القرآن الكريم

- نظرة تفسيريّة موضوعيّة في خصائص القرآن الكريم -

دار المعارف الإسلامية الثقافية

الـــكـــتـــاب: **بيّنات في معرفة القرآن الكريم**

إعـــــــداد: مركز المعارف للتأليف والتحقيق

إصـــــــدار: **دار المعارف الإسلامية الثقافية**

تصميم وطباعة: DB UK 00961 3 336218

الطبعة الأولى - 2017م

ISBN 978-614-467-029-3

books@almaaref.org.lb
00961 01 467 547
00961 76 960 347

سلسلة المعارف التعليمية

بيّنات في معرفة القرآن الكريم

- نظرة تفسيريّة موضوعيّة في خصائص القرآن الكريم -

دار المعارف الإسلامية الثقافية

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

المقدّمة 9

الدرس الأوّل: البيّنة الأولى «معنى القرآن وحقيقته» 13

1. المعنى اللغويّ للفظ «القرآن» 15
2. المعنى الاصطلاحيّ للقرآن 18
3. حقيقة القرآن 19

الدرس الثاني: البيّنة الثانية «أسماء القرآن وأوصافه» 27

1. أسماء القرآن 29
2. أوصاف القرآن 33

الدرس الثالث: البيّنة الثالثة «لغة القرآن» 39

1. اتّحاد لسان الرسول ورسالته مع المُرسَل إليهم 41
2. خصائص اللغة العربيّة اللفظيّة والمعنائيّة 43
3. ثبات اللغة العربيّة 44
4. اللغة العربيّة لغة السهولة والوضوح 45

الدرس الرابع: البيّنة الرابعة «فضل القرآن الكريم ومنزلته» 51

1. القرآن مهيمن على الرسالات الإلهيّة 53
2. القرآن أقوم الرسالات الإلهيّة 54
3. القرآن فيه بيان كلّ شيء 55
4. القرآن أحسن الحديث 57
5. القرآن شفاء للقلوب 58

الدرس الخامس: البيّنة الخامسة «عالميّة رسالة القرآن» 63

1. عالميّة رسالة القرآن بدلالة القرآن الكريم 65
2. شبهات حول عالميّة رسالة القرآن 69

الدرس السادس: البيّنة السادسة «خاتميّة رسالة القرآن» 75
1. خاتميّة رسالة القرآن بدلالة القرآن نفسه 77
2. شبهات حول خاتميّة رسالة القرآن 79
الدرس السابع: البيّنة السابع «شموليّة رسالة القرآن» 87
1. القرآن منهاج الحياة 89
2. خصائص المنهج القرآنيّ 92
3. شبهات حول شموليّة رسالة القرآن 93
الدرس الثامن: البيّنة الثامنة «إعجاز القرآن الكريم» 99
1. معنى الإعجاز وأركانه 101
2. القرآن مصداقٌ للأمر المُعجِز 101
3. خصوصيّة إعجاز القرآن 106
الدرس التاسع: البيّنة التاسعة «صيانة القرآن الكريم عن التحريف» 111
1. معنى التحريف 113
2. أهمية إثبات صيانة القرآن عن التحريف 113
3. صيانة القرآن عن التحريف بدلالة العقل والشرع 113
3. صيانة القرآن عن التحريف بدلالة القرآن الكريم 114
5. صيانة القرآن عن التحريف بدلالة السنّة الشريفة 116
الدرس العاشر: البيّنة العاشرة «رسالة القرآن وأهدافه العامّة» 121
1. تحديد رسالة القرآن 123
2. تحديد الأهداف العامّة للقرآن 124
3. كيفيّة تحقيق رسالة القرآن وأهدافه العامّة 127
الدرس الحادي عشر: البيّنة الحادية عشرة «عناية القرآن بالفطرة الإنسانيّة» 133
1. حقيقة الفطرة الإنسانيّة 135
2. ثبات أصل الفطرة في خِلْقة الإنسان 136
3. إدراك الفطرة لأصول الدين 137
4. الفطرة مثار اختلاف في النشأة الدنيويّة 137
5. عدم كفاية الفطرة في هداية الإنسان إلى كماله 138
6. الفطرة إلهام إلهيّ وعقل عمليّ 140

الدرس الثاني عشر: البيّنة الثانية عشرة «عناية القرآن بالعقل» 145
1. حقيقة العقل 147
2. دور العقل في تحقّق الإنسان بالإنابة والذِكْر والحكمة 149
3. تنمية العقل بالعلم والمعرفة 150
الدرس الثالث عشر: البيّنة الثالثة عشرة «عناية القرآن بحماية العقل وصيانته» 155
1. مفسدة الخمر 157
2. مفسدة اتّباع الهوى 160
3. مفسدة التقليد الأعمى 160
4. مفسدة العصبيّة المفرطة 161
الدرس الرابع عشر: البيّنة الرابعة عشرة «عناية القرآن بالقلب» 165
1. حقيقة القلب 167
2. خصائص القلب 170
3. أفعال الله تعالى في القلوب 173
الدرس الخامس عشر: البيّنة الخامسة عشرة «طرق معرفة الله في القرآن» 179
1. معرفة الله من خلال الآيات الآفاقيّة 181
2. معرفة الله من خلال الآيات الأنفسيّة 183
3. معرفة الله من خلال الشهود القلبيّ 185
الدرس السادس عشر: البيّنة السادسة عشرة «معرفة التوحيد في القرآن» 191
1. مفهوم التوحيد 191
2. مراتب التوحيد 195
3. نفي الشرك وعقيدة التثليث (نفي الوحدة العدديّة) 197
4. التوحيد العمليّ 199
الدرس السابع عشر: البيّنة السابعة عشرة «هداية القرآن العقل إلى معرفة التوحيد» 205
1. الأنموذج الأوّل 207
2. الأنموذج الثاني 208
3. الأنموذج الثالث 210
4. الأنموذج الرابع 212

الدرس الثامن عشر: البيّنة الثامنة عشرة «معرفة الألوهيّة في القرآن» 217
1. مفهوم الألوهيّة 217
2. حقيقة الألوهيّة 219
3. نفي الشريك في الألوهيّة 220
4. صفات الله تعالى 223
5. فعل الله تعالى 224
6. الأسماء الحسنى 224
الدرس التاسع عشر: البيّنة التاسعة عشرة «معرفة المعاد في القرآن» 229
1. حقيقة المعاد 229
2. المعاد في الشرائع السماويّة السابقة 232
3. أسماء المعاد وأوصافه 233
4. العوامل الباعثة على إنكار المعاد 236
الدرس العشرون: البيّنة العشرون «هداية القرآن العقل إلى معرفة المعاد» 241
1. أدلّة المعاد 241
2. شبهات حول المعاد 246
الدرس الحادي والعشرون: البيّنة الحادية والعشرون «معرفة النبوّة في القرآن» 253
1. حقيقة النبوّة والرسالة 255
2. ضرورة النبوّة والرسالة 255
3. خصائص النبوّة والرسالة 257
4. شبهات حول النبوّة والرسالة 259
الدرس الثاني والعشرون: البيّنة الثانية والعشرون «معرفة العبوديّة في القرآن» 267
1. حقيقة العبوديّة 267
2. العبادة نزوع فطريّ 270
3. دواعي العبادة 271
4. حقّ العبوديّة 272
5. الغاية من العبادة 273
6. إمكانيّة الشرك في العبادة والاستكبار عنها؟ 274
7. صور تشريع المناسك العباديّة 275

المقدّمة

الحمد للّه ربّ العالمين، وسلام على عباده الذين اصطفى، محمّد وآله الطاهرين عليهم السلام، واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

قال الله تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[1].

إنّ القرآن الكريم نور مبين في ذاته، يهدي من استنار به إلى صراط مستقيم؛ بما يحوي من تعاليم ومعارف وحقائق موصِلة للإنسان نحو مقصده الكماليّ الذي ينشده بفطرته؛ فتخرجه من الظلمات إلى النور، وتنجيه من سنّة الخسران.

لذا، لا بدّ للإنسان من معرفة القرآن الكريم وخصائصه، والاهتداء بنوره؛ لأنّه ضمانته للتحقّق بمقصده الفطريّ. وبالتأمّل في القرآن الكريم نجده يشتمل على مجموعة من الخصائص التي لا مثيل لها أو نظير في أيّ كتاب سماويّ سابق، أو في أيّ كتاب بشريّ. ومن هذه الخصائص: حقيقته وصفاته ولغته ورسالته وأهدافه ومقاصده...

ومن هذا المنطلق، سعى مركز المعارف للتأليف والتحقيق إلى تأليف كتاب بعنوان «**بيّنات في معرفة القرآن الكريم - نظرة تفسيريّة في خصائص القرآن الكريم بأسلوب تعليمي**-». وهو كتاب تفسيريّ موضوعيّ بأسلوب تعليميّ يتناول خصائص القرآن الكريم،

(1) سورة النساء، الآيتان 174-175.

بالاعتماد على ما ورد من بيّنات دقيقة ولطيفة في القرآن الكريم، وبالاستفادة ممّا ورد في كلام العلّامة المفسّر السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ قدس سره، في تفسيره القيّم «**الميزان في تفسير القرآن**»، من أبحاث موضوعيّة وإشارات ولمعات جرى العمل على شرحها وتفصيلها وتتميمها ودعمها بالشواهد القرآنيّة، وإضافة أبحاث موضوعيّة أخرى لم يتطرّق إليها العلّامة في تفسيره.

ويتوخّى هذا الكتاب تحقيق الأهداف الآتية:

1. تعزيز الارتباط الروحيّ والوجدانيّ والفكريّ بالقرآن الكريم.
2. معرفة خصائص القرآن الكريم، وموقعه بين الرسالات السماويّة.
3. معرفة موقع القرآن الكريم في حياة الإنسان.
4. معرفة خصائص الرؤية الكونيّة في القرآن الكريم.
5. معرفة دور القرآن الكريم في إيصال الإنسان إلى مقصده الكماليّ.

ولتحقيق هذه الأهداف اعتمدنا المنهجية الآتية في دروس الكتاب:

- عناوين الدرس: وهي تتضمّن ما سيتناوله الدرس بالبحث والدراسة.
- أهداف الدرس: وهي مستقاة من الأهداف العامّة للكتاب، ومرتبطة بها ارتباطاً توظيفياً، وتتوخّى تحقيق كفايات الدرس.
- محتوى الدرس: ويجري فيه دراسة العناوين المطروحة في أوّل الدرس، مع مراعاة تحقيق الأهداف المطلوبة منه.
- الأفكار الرئيسة: وتتضمّن خلاصة الأفكار المطروحة في الدرس.
- فكّر وأَجِبْ: ويحوي نمطاً واحداً من الأسئلة الاختباريّة.
- مطالعة: وتتضمّن فقرة أو عدّة فقرات متمِّمة للبحث المطروح في الدرس، تكميلاً للاستفادة، مع التركيز في ما ورد في الروايات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام، أو ما ورد في كلام علمائنا الأجلّاء في موضوع الدرس.

وقد حرص الكتاب - قدر الإمكان - على مراعاة مجموعة من السياسات العلميّة والمنهجيّة والفنّيّة، هي:

- الاستفادة من فكر علماء الإماميّة ومفسّريها، ولا سيّما العلّامة السيّد محمّد حسين الطباطبائيّ قدس سره في تفسيره الميزان، وتسييله داخل الدروس.
- محاولة إسناد الأقوال والروايات المنقولة في الكتاب إلى مصادرها الأساس على الأعمّ الأغلب.
- تقسيم الكتاب إلى اثنين وعشرين درساً.
- مراعاة التقارب - قدر الإمكان - في عدد صفحات كلّ درس، على أن لا يزيد حجم كلّ درس عن عشر صفحات.

وحتى نكون موضع عناية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**خياركم من تعلّم القرآن وعلّمه**»[1]، نضع بين أيديكم هذا الجهد المتواضع، عسى أن يتقبّله الله - تعالى -، وينفع به، إنّه سميع مجيب.

والحمدلله ربّ العالمين

مركز المعارف للتأليف والتحقيق

(1) الطوسّي، محمّد بن الحسن: الأمالي، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميّة في مؤسّسة البعثة، ط1، قمّ المقدّسة، دار الثقافة، 1414هـ.ق، ح739؛ 740، ص357.

الدرس الأوّل

البيّنة الأولى
«معنى القرآن وحقيقته»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يعرف معنى لفظ القرآن في اللغة والاصطلاح.

2 . يفرِّق بين نزول القرآن وتنزيله.

3 . يعرف فلسفة تعدّد نزول القرآن وتنزيله.

1. المعنى اللغويّ للفظ «القرآن»:

أورد اللغويّون والمفسّرون في بحوثهم اللغويّة مقاربات عدّة لاسم «**القرآن**»؛ يمكن إيجازها في سبعة أقوال بارزة[1]؛ بلحاظ الاختلاف في أصل اشتقاق هذا الاسم و عدمه، وفي منشأ الاشتقاق؛ وفق التقسيم الآتي:

أ. القول الأوّل: اسم «القرآن» هو اسم جامد غير مشتقّ، خاصّ بكلام الله تعالى النازل على رسوله الأكرم ﷺ، بالوحي ضمن آيات وسور يجمعها ويؤلّفها هذا الاسم: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾[2]، مثل التوراة الخاصّة بالكلام الموحى به إلى النبيّ موسى عليه السلام: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ﴾[3]، والإنجيل الخاصّ بالكلام الموحى به إلى النبيّ عيسى عليه السلام: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[4].

ب. اسم «القرآن» اسم مشتقّ. وقد اختلفوا في أصل اشتقاقه على وجوه؛ بلحاظ كونه مشتقّاً من أصل مهموز أو من أصل غير مهموز؛ وفق الآتي:

---

(1) انظر: الأصفهانيّ، الراغب: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان داوودي، ط2، قمّ المقدّسة، نشر طليعة النور؛ مطبعة سليمان زاده، 1427هـ.ق، مادّة «قرأ»، ص668-669؛ الإفريقيّ، محمّد بن مكرم (ابن منظور): لسان العرب، لا.ط، قمّ المقدّسة، نشر: أدب الحوزة، 1405هـ.ق/ 1363هـ.ش، ج1، حرف الهمزة، فصل القاف، مادّة «قرأ»، ص128-129.

(2) سورة الأنعام، الآية 19.

(3) سورة المائدة، الآية 44.

(4) سورة المائدة، الآية 46.

- اسم القرآن مشتقّ من أصل غير مهموز. وقد اختُلِفَ في أصل الاشتقاق على أقوال؛ أبرزها:

* **القول الثاني:** أنّه مشتقّ من «قَرَنَ»؛ بمعنى ضمّ الشيء إلى الشيء. وسُمّي به القرآن لأنّه يضمّ السُوَر والآيات والحروف بعضها إلى بعضها الآخر.

* **القول الثالث:** أنّه مشتقّ من «القرائن»، وهي جمع قرينة؛ لأنّ آيات القرآن يصدّق بعضها بعضها الآخر؛ فهي بمثابة قرائن في فهمها وتفسيرها: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾[1].

* **القول الرابع:** أنّه مشتقّ من «القِرن»، بمعنى القرين؛ لأنّ القرآن لفظ فصيح قرين بالمعنى البديع.

- اسم «القرآن» مشتقّ من أصل مهموز. وقد اختُلِفَ في أصل الاشتقاق على أقوال؛ أبرزها:

* **القول الخامس:** أنّه مشتقّ من «القُرْء»، بمعنى الجمع، لأنّه يجمع في طيّاته ثمرات الكتب السماويّة السابقة: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ... * ... * وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ ... * ... * وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ...﴾[2]، أو لأنّه يجمع السور والآيات بعضها إلى بعضها الآخر؛ فيؤلّف بينها.

* **القول السادس:** أنّه مشتقّ من «القَري»، بمعنى الضيافة؛ لأنّ القرآن مأدبة الله للمؤمنين.

* **القول السابع:** أنّه مصدر قرأ؛ بمعنى التلاوة؛ كالرجحان والغفران، سُمّي به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر؛ أي المقروء أو ما يُقرأ. واستخدم القرآن بمعنى القراءة، كالكتاب الذي يُطلق على المكتوب؛ بمعنى الكتابة.

(1) سورة الزمر، الآية 23.

(2) سورة المائدة، الآيات 44-48.

وبالتأمّل في ما تقدّم من أقوال يمكن ملاحظة الآتي:

- القول الأوّل؛ وهو أنّ القرآن اسم غير مشتقّ، هو دعوى من دون دليل، وهي خلاف المشهور والمتداول بين اللغويّين، من أنّ هذا الاسم من الأسماء المشتقّة.
- أغلب الأقوال المتقدّمة (الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس)، خلاف التبادر اللغويّ؛ وهي تحتاج إلى مؤنة زائدة في إخطار معانيها من ألفاظها وانطباقها على القرآن.
- بعض الأقوال (الثالث والرابع والسادس)، استحسانيّة، فيها تكلّف لغويّ زائد، وإنْ كان القرآن مشتملاً على مؤدّاها واقعاً.
- بعض الأقوال (الثاني والخامس)، وإنْ كان لها وجه لغويّ في لسان العرب، ولكنّ سياق بعض الآيات القرآنيّة لا يساعد عليها؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾[1]. فإرادة معنى الجمع أو الضمّ من مفردة «قرآنه»، يؤدّي إلى أن يكون مؤدّى الكلام ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾!، وهذا يتنافى مع فصاحة القرآن الكريم.
- القول السابع والأخير هو أقوى الأقوال المتقدّمة وأوجهها؛ لأنّه الأوفق بقواعد الاشتقاق وموارد اللغة[2].

فالقِرَاءَةُ في اللغة هي: «**ضمّ الحروف والكلمات بعضها إلى بعضها الآخر في الترتيل... لا يُقال: قرأت القوم: إذا جمعتهم. ويدلّ على ذلك أنّه لا يُقال للحرف الواحد إذا تُفُوِّه به قراءة. والْقُرْآنُ في الأصل مصدر، نحو: كفران ورجحان. قال تعالى:** ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ

(1) سورة القيامة، الآيتان 17-18.

(2) لمزيد من التفصيل: انظر: الزركشّي، بدر الدين: البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، ط1، لام، دار إحياء الكتب العربيّة؛ عيسى البابيّ الحلبيّ وشركاؤه، 1376هـ.ق/ 1957م، ج1، ص273-276؛ السيوطيّ، جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن، تحقيق سعيد المندوب،ط1، بيروت، دار الفكر، 1416هـ.ق/ 1996م، ج1، ص144؛ الزرقانيّ، عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن، تحقيق فوّاز أحمد زمَرلي، ط1، بيروت، دار الكتاب العربيّ، 1415هـ.ق/1995م، ج1، ص15-17.

وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾[1]»[2]؛ أي لا تعجل به، إذ علينا أن نجمع ما نوحيه إليك بضمّ بعض أجزائه إلى بعضها الآخر، وقراءته عليك، فلا يفوتنا شيء منه ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾[3]»، فإذا أتممنا قراءته عليك وحياً؛ فاتّبع قراءتنا له، واقرأ بعد تمامها[4].

2. المعنى الاصطلاحيّ للقرآن:

ذُكِرَت فيه تحديدات مختلفة، وردت عليها إشكالات عدّة، ولعلّ أقلّها مورداً للإشكال ما اشتهر على لسان الأصوليّين والفقهاء واللغويّين، ويوافقهم عليه المتكلّمون: «**كلام الله المُنزَل على النبيّ محمّد**ﷺ**، المنقول عنه بالتواتر، المتعبّد بتلاوته**»[5]؛ ويحوي هذا التعريف ستّة قيود احترازيّة؛ هي:

-**القيد الأوّل:** «كلام»؛ وهو جنس في التعريف يشمل المفرد والمركّب، ولا شكّ في أنّ الاستدلال على الأحكام يكون بالمركّبات كما يكون بالمفردات، كالعامّ والخاصّ، والمطلق والمقيّد.

-**القيد الثاني:** «كلام الله»؛ فإضافة الكلام إلى الله تعالى يخرج بها كلام غيره من المخلوقات؛ كالملائكة والإنس والجنّ.

-**القيد الثالث:** «المنزل»؛ بحيث يخرج به كلامه تعالى الذي استأثر به لنفسه في علم الغيب: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾[6]، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾[7].

---

(1) سورة القيامة، الآيتان 17-18.

(2) الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن، م.س، مادّة «قرأ»، ص668.

(3) سورة طه، الآية 114.

(4) الطباطبائيّ، محمّد حسين: الميزان في تفسير القرآن، لا ط، قمّ المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، لا ت، ج20، ص109-110. (بتصرّف)

(5) لمزيد من التفصيل في التحديدات الاصطلاحيّة، انظر: الزرقانيّ، مناهل العرفان، م.س، ج1، ص17-22.

(6) سورة الكهف، الآية 110.

(7) سورة لقمان، الآية 27.

-**القيد الرابع:** «على النبيّ محمّد ﷺ»؛ خرج به ما نزل على غير النبيّ ﷺ؛ كالتوراة والإنجيل.

-**القيد الخامس:** «المنقول تواتراً»؛ خرج به جميع ما سوى القرآن مثل القراءات؛ سواء أكانت من القراءات المشهورة أم الشاذّة.

-**القيد السادس:** «المتعبّد بتلاوته»؛ خرجت به الأحاديث القدسيّة إذا تواترت؛ لأنّنا لم نُتَعبّد بتلاوتها في العبادات؛ كالصلاة؛ كما تُعُبّدنا بتلاوة القرآن الكريم. ولا يعادل ثواب تلاوة القرآن تلاوة غيره من كلامه تعالى.

3. حقيقة القرآن:

إنّ للقرآن الكريم حقيقة أسمى من أن تدركها العقول، وأوسع من أن تحيطها قوالب الألفاظ؛ لأنّ الألفاظ موضوعة بإزاء معانٍ مجعولة ومُدرَكَة من قِبَل البشر، في حين أنّ القرآن بما هو كلام اللّه تعالى له حقيقة غيبيّة تنطوي على أعمق المعارف المعنويّة. وقد قضى الله تعالى أن يُلبِسَ هذه الحقيقة لباس الألفاظ وتنزيلها إلى مرتبة عالم الدنيا؛ ليتسنّى للناس فهمها. ولإيضاح هذه المسألة ينبغي الرجوع إلى القرآن نفسه لاستنطاقه فيها.

أ. الفرق بين نزول القرآن وتنزيله:

النزول هو الورود على المحلّ من العلوّ. ويكمن الفرق بين الإنزال والتنزيل في أنّ الإنزال دفعيّ، والتنزيل تدريجيّ، فقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[1]، ظاهر في نزول القرآن تدريجيّاً في مجموع مدّة الدعوة؛ وهي ثلاث وعشرون سنة تقريباً، والمتواتر من التاريخ يدلّ على ذلك.

وربّما استُشكل على هذا القول بتنافيه مع آيات أخرى يستفاد من مجموعها نزول القرآن في ليلة القدر.

وبالتدبّر في آيات القرآن الكريم، نجد أنّ الآيات الناطقة بنزول القرآن في شهر رمضان أو في ليلة منه؛ إنّما عبّرت عن ذلك بلفظ الإنزال الدالّ على الدفعة دون التنزيل[2]: ﴿شَهْرُ

(1) سورة الإسراء، الآية 106.

(2) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج2، ص15-16. (بتصرّف)

رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ...﴾[1]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ...﴾[2]، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[3].

ب. فلسفة تعدّد نزول القرآن وتنزيله:

الظاهر من الآيات المتقدّمة أنّ للقرآن نزولين: أحدهما دفعيّ، والآخر تدريجيّ.

وهنا نسأل: ما فلسفة نزول القرآن مرّتين؟ وما هي حقيقة النازل من القرآن في النزولين؟

وللجواب عن هذا السؤال، لا بدّ من طرح احتمالات المسألة وتقويمها على ضوء مصادر التفسير وأصوله: (اللغة/ العقل/ النقل: «**القرآن والسنّة**»). ويوجد في المسألة احتمالان؛ هما:

- إنّ النازل بالنزولين هو نفسه؛ وهو القرآن المفصّل العربيّ.

- إنّ النازل بالنزولين مختلف بالإحكام والتفصيل؛ فالنزول الأوّل هو لحقيقة القرآن المحكمة، والتنزيل الثاني للقرآن المفصّل العربيّ، الذي يرجع إلى حقيقة القرآن ويحكي عنها؛ حكاية الصورة عن الواقع الخارجيّ.

وفي مقام ترجيح أحد الاحتمالين، يمكن القول: إنّه لا بدّ من وجود حكمة في تعدّد النزول؛ فإذا كان النازل ثانياً (تدريجيّاً) هو نفسه النازل أولاً (دفعيّاً)؛ فهذا تحصيل حاصل، ولا فائدة مرجوّة منه؛ فيكون خلاف حكمة الحكيم؛ وهذا باطل بحكم العقل القطعيّ. وإذا قيل: إنّ فيه فائدة مرجوّة؛ وهي أنّ النزول الثاني (التدريجيّ) يسهّل على الناس تعلّم القرآن وضبطه وحفظه وصيانته، ويثبّتهم في الوقائع والحوادث المصيريّة والحسّاسة التي كانوا يمرّون بها؛ فهذا من دون أدنى شكّ توجيه صحيح بالنسبة إلى الحكمة من تنزيله على قلب النبيّ ﷺ، فيما يرجع إلى الناس من فائدة، ولكنّه لا يقدّم توجيهاً بالنسبة إلى الفائدة الراجعة إلى تعدّد نزول القرآن على قلب النبيّ ﷺ بالنزولين الأوّل والثاني.

ولذا لا بدّ من توجيه آخر في هذا الصدد، وهو ما تكفّل القرآن بتقديمه؛ إذ إنّ المتأمّل في الآيات القرآنيّة يجدها تتحدّث عن مقامين للقرآن؛ هما: القرآن المحكم؛ وهو حقيقة

(1) سورة البقرة، الآية 185.
(2) سورة الدخان، الآية 3.
(3) سورة القدر، الآية 1.

القرآن، والقرآن المفصّل؛ وهو القرآن العربيّ المبين. الأوّل نزل على قلب النبيّ ﷺ؛ لأنّه في نفسه الطاهرة يستعدّ لتقبّل نزوله بحقيقته على قلبه، في حين أنّ التنزيل التدريجيّ للقرآن في المرّة الثانية على قلب النبيّ ﷺ؛ هو بفعل عدم لياقة الناس واستعدادهم لتحمّل حقيقة القرآن. وكي لا يحرموا من بركة هداية القرآن، قضى الله تعالى إلباسه ثوب الألفاظ واللغة العربيّة؛ ليتمكّنوا من خلال هذا التنزيل من نيل ما أمكنهم؛ بحسب إيمانهم وعملهم، من بركات حقيقة القرآن: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[2].

ج. القرآن في مرتبة الإحكام:

إنّ كون القرآن ذا حقيقة محكمة وراء كونه مفصّلاً، هو المستفاد من الآيات الكريمة؛ كقوله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[3]، فإنّ هذا الإحكام مقابل التفصيل، والتفصيل هو جعله فصلاً فصلاً وقطعة قطعة. فالإحكام كونه على نحو لا يتفصّل فيه جزء من جزء ولا يتميّز فيه بعضه من بعضه الآخر؛ لرجوعه إلى معنى واحد لا أجزاء فيه ولا فصول. والآية ناطقة بأنّ هذا التفصيل المشاهَد في القرآن إنّما طرأ عليه ولحقه بعد كونه محكماً غير مفصّل. وأوضح منه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ...﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ... بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ...﴾[5]، فإنّ الآيات الشريفة، وبخاصّة الآية التي وردت في سورة يونس، ظاهرة الدلالة على أنّ التفصيل أمر طارئ لاحق على الكتاب. فالكتاب نفسه شيء، والتفصيل الذي يعرضه شيء آخر. وإنّهم إنّما كذّبوا في الدنيا

(1) سورة يوسف، الآية 2.
(2) سورة الزخرف، الآيات 2-4.
(3) سورة هود، الآية 1.
(4) سورة الأعراف، الآيتان 52-53.
(5) سورة يونس، الآيتان 37، 39.

بالتفصيل من الكتاب، لكونهم ناسين شيئاً يؤول إليه هذا التفصيل وغافلين عنه، وسيظهر لهم يوم القيامة. وفي الآية إشعار بأنّ أصل الكتاب هو تأويل تفصيل الكتاب. وأوضح منه قوله تعالى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1]، فإنّه ظاهر في أنّ هناك كتاباً مبيناً عَرَضَ عليه جعله مقروءاً عربياً، وإنّما أُلبِسَ لباس القراءة والعربيّة ليعقله الناس، والحال أنّه في أمّ الكتاب عند الله عليّ؛ لا تصعد إليه العقول، حكيم؛ لا يوجد فيه تفصيل. وفي الآية تعريف بالكتاب المبين وأنّه أصل القرآن العربيّ المبين. وفي هذا السياق أيضاً قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2]، فإنّه ظاهر في أنّ للقرآن موقعاً هو في الكتاب المكنون، لا يمسّه هناك أحد إلا المطهّرون من عباد الله، وأنّ التنزيل بعده. وأمّا قبل التنزيل، فله موقع في كتاب مكنون عن الأغيار؛ وهو الذي عُبِّر عنه في آيات سورة الزخرف بـ «أمّ الكتاب»، وفي سورة البروج بـ «اللوح المحفوظ»، حيث قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾[3]. وهذا اللوح إنّما كان محفوظاً لحفظه من ورود التغيّر عليه. ومن المعلوم أنّ القرآن المنزل تدريجياً لا يخلو عن ناسخ ومنسوخ، وعن التدريج الذي هو نحو من التبدّل، فالكتاب المبين الذي هو أصل القرآن العربي المفصّل وحكمه الخالي عن التفصيل، أمر وراء هذا المنزل، وإنّما هذا بمنزلة اللباس والتنزّل لذاك.

وبالجملة، فإنّ المتدبّر في الآيات القرآنيّة لا يجد مناصاً من الاعتراف بدلالتها على كون هذا القرآن المنزل على النبيّ ﷺ تدريجيّاً، متّكئاً على حقيقة غيبيّة متعالية عن أن تدركها أبصار عقول الناس، أو تتناولها أيدي الأفكار المتلوّثة بألواث المادّة والمحدودة بحدودها، وأنّ تلك الحقيقة أُنزلت على النبيّ ﷺ إنزالاً، فعلّمه الله بذلك حقيقة ما عناه بكتابه[4].

(1) سورة الزخرف، الآيات 2-4.
(2) سورة الواقعة، الآيات 75-80.
(3) سورة البروج، الآيتان 21 - 22.
(4) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج2، ص16-19؛ ج18، ص83-84. (بتصّرف)

الأفكار الرئيسة

1. القرآن مصدر قرأ؛ بمعنى التلاوة؛ كالرجحان والغفران، سُمّي به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر؛ أي المقروء أو ما يُقرأ.
2. القرآن هو كلام الله المُنزَل على النبيّ محمّد ﷺ، المنقول عنه بالتواتر، المتعبّد بتلاوته.
3. حقيقة القرآن أسمى من أن تدركها العقول، وأوسع من أن تحيطها قوالب الألفاظ؛ لأنّ الألفاظ موضوعة بإزاء معانٍ مجعولة ومُدرَكَة من قِبَل البشر، في حين أنّ حقيقة القرآن حقيقة إلهيّة تنطوي على أعمق المعارف المعنويّة.
4. إنّ المتأمّل في الآيات القرآنيّة يجدها تتحدّث عن مقامين للقرآن؛ هما: القرآن المحكم؛ وهو حقيقة القرآن، والقرآن المفصّل؛ وهو القرآن العربيّ المبين. الأوّل نزل على قلب النبيّ ﷺ؛ لأنّه في نفسه الطاهرة يستعدّ لتقبّل نزوله بحقيقته على قلبه، في حين أنّ التنزيل التدريجيّ للقرآن في المرّة الثانية على قلب النبيّ ﷺ؛ هو بفعل عدم لياقة الناس واستعدادهم لتحمّل حقيقة القرآن. وكي لا يحرموا من بركة هداية القرآن؛ قضى الله تعالى إلباسه ثوب الألفاظ واللغة العربيّة؛ ليتمكّنوا من خلال هذا التنزيل من نيل ما أمكنهم؛ بحسب إيمانهم وعملهم، من بركات حقيقة القرآن.

تمارين

1. اذكر أبرز الأقوال في المعنى اللغويّ للفظ «القرآن»؛ مبيّناً المعنى الراجح منها.
2. بيّن المراد من قيود التعريف الاصطلاحيّ للقرآن: «كلام الله المُنزَل على النبيّ محمّد ﷺ، المنقول عنه بالتواتر، المتعبّد بتلاوته».
3. ما هي فلسفة تعدّد نزول القرآن الكريم؟ وما هي خصائص كلّ نزول؟

مطالعة:

القرآن جوامع الكلم[1]:

حيث إنّ الذات المقدّسة للحقّ جلّ وعلا على حسب ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾[2]، يتجلّى لقلوب الأنبياء والأولياء في كسوة الأسماء والصفات. وتختلف التجلّيات على حسب اختلاف قلوبهم، والكتب السماويّة التي نزلت على قلوبهم بنعت الإيحاء بتوسّط ملك اللوح جبرائيل، تختلف على حسب اختلاف هذه التجلّيات، وعلى حسب اختلاف الأسماء التي لها المبدئيّة. كما أنّ اختلاف الأنبياء وشرائعهم - أيضاً - باختلاف الدول الأسمائيّة، فكلّ اسم تكون إحاطته أكثر ويكون أجمع، تكون دولته أكثر إحاطة، والنبوّة التابعة له أكثر إحاطة، والكتاب النازل منه أكثر إحاطة وجامعيّة، وتكون الشريعة التابعة له أكثر إحاطة وأدوم. وحيث إنّ النبوّة الختميّة والقرآن الشريف وشريعة سيّد البشر من مظاهر المقام الجامع الأحديّ وحضرة اسم الله الأعظم ومجاليها، أو من تجلّياتها وظهوراته، فلهذا صارت أكثر النبوّات والكتب والشرائع إحاطة وأجمعها. ولا يتصوّر أكمل وأشرف من نبوّته وكتابه وشريعته. ولا يتنزّل من عالم الغيب على بسيط الطبيعة علم أعلى منه، أو شبيه له. بمعنى أنّ هذا هو آخر ظهور للكمال العلميّ المربوط بالشرائع، وليس للأعلى منه إمكان النزول في عالم المُلك. فنفس الرسول الخاتم أشرف الموجودات، والمظهر التامّ للاسم الأعظم، ونبوّته -أيضاً - أتمّ النبوّات الممكنة، وصورة لدولة الاسم الأعظم، ولهذه الجهة لهذا الكتاب أحديّة الجمع والتفصيل. وهو من جوامع الكلم، كما أنّ كلامه ﷺ - أيضاً - كان من جوامع الكلم. والمراد من كون القرآن أو كلامه من جوامع الكلم، ليس أنّ القرآن، أو الرسول ﷺ بيّنا الكلّيّات والضوابط الجامعة، وإنْ كانت أحاديثه ﷺ - أيضاً - من الجوامع والضوابط بذلك المعنى، كما أنّ ذلك معلوم في علم الفقه، بل جامعيّته عبارة عن أنّ القرآن نزل لجميع طبقات الإنسان في جميع أدوار العمر البشريّ، وهو رافع لجميع

(1) الخمينيّ، روح الله: منهجيّة الثورة الإسلاميّة (مقتطفات من أفكار وآراء الإمام الخمينيّ قدس سره)، ط1، طهران، مؤسّسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخمينيّ قدس سره، 1996م، ص56-57.

(2) سورة الرحمن، الاية 29

حوائج هذا النوع. وحيث إنّ حقيقة هذا النوع حقيقة جامعة وواحدة لتمام المنازل، من المنزل الأسفل الملكيّ إلى أعلى مراتب الروحانيّة والملكوت والجبروت، ولهذه الجهة يختلف أفراد هذا النوع في هذا العالم الأسفل الملكيّ اختلافاً تامّاً. والاختلاف والتفاوت الموجودان في أفراد هذا النوع لا يوجدان في أفراد سائر الموجودات. ففي هذا النوع الشقيّ الذي هو في كمال الشقاوة، والسعيد الذي هو في كمال السعادة، وهو نوع بعض أفراده أسفل من جميع الحيوانات، وبعض أفراده أشرف من جميع الملائكة المقرّبين. وبالجملة، حيث إنّ أفراد هذا النوع مختلفة متفاوتة في المدارك والمعارف، فالقرآن نزل على نحو يستفيد كلٌّ منهم على حسب كمال إدراكه ومعارفه وضعفها، وعلى حسب ما له من الدرجة العلميّة.

الدرس الثاني

البيّنة الثانية
«أسماء القرآن وأوصافه»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يعرف أسماء القرآن الكريم ومعانيها.

2 . يشرح ثلاثة من أوصاف القرآن الكريم ومعانيها.

3 . يعدِّد أوصاف القرآن.

1. أسماء القرآن:

اختلف الباحثون في عدد أسماء القرآن، وتفاوتت تحديداتهم في هذا الصدد، إذ حصر بعضهم أسماء القرآن في اسم «**القرآن**» وحسب، وعدّ الأسماء الأخرى المتداولة صفات للقرآن لا أسماءً له[1]، وذهب آخرون إلى أنّ للقرآن 55 اسمًا[2]، وآخرون إلى أنّ له 95 اسمًا[3]...

ولعلّ السبب في هذا الاختلاف راجع إلى وجود خلل في التمييز بين أسماء القرآن وصفاته، أو إلى تباين الأذواق والمعايير المعتمدة في تحديد الأسماء والصفات[4]. ويمكن الإشارة إلى معيار يميّز من خلاله بين الاسم والصفة؛ وهو أنّ اسم الشيء هو تعريفه وتشخيصه في الخارج ضمن أبعاد وحدود تحكي ماهيّة المسمّى ويُعرَف بها. وأمّا الصفة فهي تحكي خاصّيّة معيّنة من المسمّى. وعليه، فأسماء القرآن هي خصوص المعرّفات والمشخّصات التي تحكي عن القرآن في الخارج من أنّه كلام اللّه تعالى المنزل على نبيّه ﷺ بالإعجاز. وأمّا صفات القرآن فهي تحكي عن خاصّيّة معيّنة يشتمل عليها القرآن من قبيل: الهداية، التبشير، الإنذار...

والمشهور من الأسماء هو الآتي[5]:

أ. القرآن:

وردت مفردة «**قرآن**» 68 مرّة في القرآن الكريم: (قرآن: 58 مرّة/ قرآناً: 10 مرّات)[6].

---

(1) انظر: العسكريّ، مرتضى: معالم المدرستين، لاط، بيروت، مؤسّسة النعمان، 1410هـ.ق/ 1990م، ج2، ص13-15.

(2) انظر: الزركشّي، البرهان في علوم القرآن، م.س، ج1، ص273؛ السيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن، م.س، ج1، ص141.

(3) انظر: الزركشّي، البرهان في علوم القرآن، م.س، ج1، ص273.

(4) انظر: الزرقانيّ، مناهل العرفان في علوم القرآن، م.س، ج1، ص17.

(5) انظر: م.ن، ص15-17.

(6) انظر: روحاني، محمود: المعجم الإحصائيّ لألفاظ القرآن الكريم، ط1، مشهد المقدّسة، مؤسّسة الآستانة الرضويّة المقدّسة، 1372هـ.ق/ 1987م، ج3، ص1154.

وأُريد بها تارة مجموعة من الآيات؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1]؛ وتارة أخرى أُريد مجموع الكتاب (أي ما بين الدفّتين)، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[2]. وقد تقدّم معنى القرآن لغةً واصطلاحاً.

ب. الفرقان:

وردت مفردة «**فرقان**» 6 مرّات في القرآن الكريم[3]. والفرقان من الفرق والتفرقة، ويُراد بها ما يفرق بين الحقّ والباطل[4]. ورُوي أنّه سُئِلَ الإمام الصادق عليه السلام عن القرآن والفرقان، أهما شيئان أم شيء واحد؟ فقال عليه السلام: «**القرآن جملة الكتاب، والفرقان الحكم الواجب العمل به**»[5].

ج. الذِكْر:

وردت مفردة «**ذِكْر**» 52 مرّة في القرآن الكريم[6]، وأريد بها القرآن في بعض المواضع فقط؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿... وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[9]. ويُراد بالذِكْر: الشرف[10].

---

(1) سورة الأعراف، الآية 204.

(2) سورة الإسراء، الآية 106.

(3) انظر: روحاني، المعجم الإحصائيّ لألفاظ القرآن الكريم، م.س، ج3، ص1082.

(4) انظر: ابن فارس، أحمد: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، لاط، لام، مكتب الإعلام الإسلاميّ، 1404هـ.ق، ج4، مادّة «فرق»، ص493-495.

(5) الكلينيّ، محمّد بن يعقوب: الكافي، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاريّ، ط5، طهران، دار الكتب الإسلاميّة؛ مطبعة حيدري، 1363هـ.ش، ج2، كتاب فضل القرآن، باب النوادر، ح11، ص630.

(6) انظر: روحاني، المعجم الإحصائيّ لألفاظ القرآن الكريم، م.س، ج2، ص746.

(7) سورة الأنبياء، الآية 50.

(8) سورة النحل، الآية 44.

(9) سورة الزخرف، الآية 44.

(10) انظر: الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن، م.س، مادّة «ذكر»، ص328.

د. الكتاب:

وردت مفردة «**كتاب**» 230 مرّة في القرآن الكريم[1]؛ كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ...﴾[3]. والكتاب هو جملة ما هو موجود بين الدفّتين. وقد استعمل في القرآن الكريم وأُريد به: تارة ما أُنزِلَ على الأنبياء والرسل عليهم السلام من كلام الله تعالى المُوحَى إليهم، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ...﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[5]، وقوله تعالى - على لسان نبيّه عيسى عليه السلام -: ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ...﴾[6]. وتارة استعمل الكتاب بمعنى خصوص المكتوب على نحو المراسلات والمخاطبات؛ كما في قوله تعالى - في معرض حكايته لقصّة النبيّ سليمان عليه السلام وملكة سبأ -: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ ٢٨ قَالَتۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾[7]. وتارة استعمل بمعنى صحيفة أعمال الإنسان؛ كما في قوله تعالى: ﴿... مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ...﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾[9]...

هـ. التنزيل[10]:

وردت مفردة «**تنزيل**» 11 مرّة في القرآن الكريم[11]؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ

(1) انظر: روحاني، المعجم الإحصائيّ لألفاظ القرآن الكريم، م.س، ج3، ص1211.
(2) سورة البقرة، الآية 2.
(3) سورة فاطر، الآية 32.
(4) سورة مريم، الآية 12.
(5) سورة الإسراء، الآية 2.
(6) سورة مريم، الآية 30.
(7) سورة النمل، الآيتان 28-29.
(8) سورة الكهف، الآية 49.
(9) سورة الإسراء، الآيتان 13-14.
(10) عدّه عبد العظيم الزرقانيّ من أسماء القرآن الكريم. انظر: الزرقانيّ، مناهل العرفان، م.س، ج1، ص15.
(11) انظر: روحاني، المعجم الإحصائيّ لألفاظ القرآن الكريم، م.س، ج2، ص584.

رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾[3]. ويُراد من التنزيل: القرآن النازل مفرّقاً مرّة بعد أخرى[4].

و. المصحف:

لم يرد ذِكْر هذه المفردة في القرآن الكريم، ولكن اشتهر تداولها بين المسلمين بعد رحيل الرسول الأكرم ﷺ؛ بوصفها اسماً من أسماء القرآن الكريم. ولعلّ اشتهار تداولها يعود إلى شدّة انشغال المسلمين واهتمامهم بعد رحيل الرسول الأكرم ﷺ بكتابة القرآن وتدوينه وجمعه بين دفّتين. و»الصَّحِيفَةُ: المبسوط من الشيء، كصحيفة الوجه. والصَّحِيفَةُ: التي يُكتب فيها، وجمعها: صَحَائِفُ وصُحُفٌ. قال تعالى: ﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾[5]، ﴿يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝٣ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾ (البينة: 2-3)، قيل: أريد بها القرآن، وجعله صحفاً فيها كتب من أجل تضمّنه زيادة ما في كتب اللَّه المتقدّمة. والْمُصْحَفُ: ما جعل جامعاً لِلصُّحُفِ المكتوبة، وجمعه: مَصَاحِفُ»[6].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الأسماء الثلاثة: الكتاب، الذكر، الفرقان، هي أسماء مشتركة بين القرآن والكتب السماوية الأخرى. وأمّا اسم «**القرآن**»، فهو الاسم الوحيد الذي اختصّ به كتاب رسالة الإسلام عن كتب باقي الرسالات السماويّة. ويُعدّ من أشهر أسماء القرآن: القرآن، ثمّ الفرقان، ثمّ يأتي بعدهما في الشهرة ترتيباً: الكتاب، والذكر، والتنزيل[7].

2. أوصاف القرآن:

ذكر القرآن الكريم جملة من الصفات التي اقترنت بأسمائه المشهورة - التي تقدّم ذكرها -، منها:

- **الحكيم:** أي مستقرّة فيه الحكمة؛ وهي حقائق المعارف وما يتفرّع منها من

(1) سورة الشعراء، الآية 192.
(2) سورة فصّلت، الآية 2.
(3) سورة يس، الآية 5.
(4) انظر: الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن، م.س، مادّة «نزل»، ص799.
(5) سورة الأعلى، الآية 19.
(6) الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن، م.س، مادّة «صحف»، ص476.
(7) انظر: الزرقانيّ، مناهل العرفان في علوم القرآن، م.س، ج1، ص17.

الشرائع والعبر والمواعظ[1]. قال تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾[2].

- **العزيز:** أي عديم النظير، أو المنيع من أن يُغلَب. قال تعالى: ﴿... وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[3]. والمعنى الثاني أنسب[4]، لما يتعقّبه من سياق العبارة المتّصل: ﴿لاَّ يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ﴾.
- **العظيم:** أي عظيم القدر وجليل الشأن والمنزلة[5]. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾[6].
- **العربيّ:** أي إنّه أُلبِسَ في مرحلة الإنزال لباس القراءة والعربيّة، وجُعِلَ لفظاً متلوّاً مطابقاً لما يتداوله العرب من اللغة[7]. قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[8].
- **البشير:** أي المبشِّر للمتّبعين له[9]. قال تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[10].
- **النذير:** أي المُنْذِر للمعرضين عنه[11]. قال تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[12].
- **الشافي:** أي إنّ القرآن بالنسبة إلى القلوب وأحوالها هو كالدواء الشافي بالنسبة إلى المرض[13]. قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ...﴾[14].

(1) انظر: الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج17، ص62.
(2) سورة يس، الآيتان 1-2؛ سورة يونس، الآية 1.
(3) سورة فصّلت، الآيتان 41-42.
(4) انظر: الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج17، ص398.
(5) انظر: م.ن، ج12، ص192.
(6) سورة الحجر، الآية 87.
(7) انظر: الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج11، ص75.
(8) سورة يوسف، الآية 2.
(9) انظر: الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج17، ص358-360.
(10) سورة فصّلت، الآية 4.
(11) انظر: الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج17، ص358-360.
(12) سورة فصّلت، الآية 4.
(13) انظر: الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج13، ص182.
(14) سورة الإسراء، الآية 82.

- **القيِّم:** أي الذي يقوم على مصلحة المجتمع البشريّ ويدبّر أمره في الدنيا والآخرة؛ بما يتضمّن من اعتقاد حقّ وعمل صالح[1]. قال تعالى: ﴿... أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ...﴾[2].
- **الكريم:** أي إنّه كريم على الله عزيز عنده، وكريم محمود الصفات، وكريم بذّال نفّاع للناس؛ لما فيه من أصول المعارف التي فيها سعادة الدنيا والآخرة[3]. قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾[4].
- **المبارك:** أي إنّه ثابت دائم كثير البركات، ينتفع به المؤمن والكافر في المجتمع البشريّ، وتتنعّم به الدنيا؛ سواء أعرفته أم أنكرته، أقرّت بحقّه أم جحدته[5]. قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكۡرٞ مُّبَارَكٌ أَنزَلۡنَٰهُۚ أَفَأَنتُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[6].
- **المبين:** أي إنّه مبين واضح في نفسه، ومبين موضِّح لغيره؛ بما ضمّنه الله تعالى من المعارف الإلهيّة وحقائق المبدأ والمعاد[7]. قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾[8]، ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾[9].
- **المتشابه:** أي الذي يشبه بعض أجزائه بعضها الآخر؛ لجهة الإعجاز وعدم الاختلاف فيه[10]. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا...﴾[11].
- **المثاني:** أي إنّ بعض الآيات يوضّح حال البعض الآخر، ويلوي وينعطف عليه؛ والعكس صحيح. فالقرآن يصدّق بعضه بعضه الآخر، ويشهد بعضه على بعضه

(1) انظر: الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج13، ص237-238.
(2) سورة الكهف، الآيتان 1-2.
(3) انظر: الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج19، ص137.
(4) سورة الواقعة، الآية 77.
(5) انظر: الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج14، ص296.
(6) سورة الأنبياء، الآية 50.
(7) انظر: الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج11، ص74.
(8) سورة يوسف، الآية 1؛ سورة الشعراء، الآية 2؛ سورة القصص، الآية 2.
(9) سورة الزخرف، الآية 2؛ سورة الدخان، الآية 2.
(10) انظر: الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص66؛ ج17، ص256.
(11) سورة الزمر، الآية 23.

الآخر[1]: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ...﴾[2].

- **المجيد:** أي ذو الشرف الوسيع والعظيم[3]. قال تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾[4].
- **ذو الذّكر:** أي المذكِّر بالله تعالى وبتوحيده وما يتفرّع منه من المعارف الحقّة من المعاد والنبوّة وغيرهما[5]: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾[6].
- **غير ذي عوج:** أي المستقيم؛ غير المنحرف عن الحقّ[7]: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾[8]...

وغيرها أوصاف كثيرة[9].

(1) انظر: الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج12، ص191.
(2) سورة الزمر، الآية 23.
(3) انظر: الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج18، ص337-338.
(4) سورة ق، الآية 1؛ سورة البروج، الآية 21.
(5) انظر: الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج17، ص181.
(6) سورة ص، الآية 1.
(7) انظر: الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج17، ص258.
(8) سورة الزمر، الآية 28.
(9) لمزيد من التفصيل، انظر: الزرقانيّ، البرهان في علوم القرآن، م.س، ج1، ص273-276؛ ج1، السيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن، م.س، ص141-143.

الأفكار الرئيسة:

1. للقرآن الكريم تسميات عدّة غير اسم القرآن؛ هي بحسب اشتهارها: القرآن، ثمّ الفرقان، ثمّ يأتي بعدهما في الشهرة ترتيباً: الكتاب، والذِكْر، والتنزيل، والمصحف.
2. ورد ذِكْر هذه الأسماء في القرآن الكريم؛ باستثناء اسم المصحف الذي جرى تداوله بين المسلمين بعد رحيل النبيّ ﷺ في مسألة جمع القرآن.
3. اسم «القرآن» هو الاسم الوحيد الذي اختصّ به كتاب رسالة الإسلام عن كتب باقي الرسالات السماويّة.
4. الأسماء الثلاثة: الكتاب، الذكر، الفرقان، هي أسماء مشتركة بين القرآن والكتب السماويّة الأخرى.
5. ورد في القرآن الكريم ذِكْر جملة من الصفات التي اقترنت بأسماء القرآن المشهورة؛ منها: الحكيم، العزيز، العظيم، العربيّ، البشير، النذير، الشافي، القيّم، الكريم، المبارك، المبين، المتشابه، المثاني، المجيد، ذو الذِكْر، غير ذي عوج، . . .

فكّر وأجب:

1. عدّد أبرز أسماء القرآن الكريم؛ مبيناً معانيها وترتيبها بحسب المشهور.
2. تكلّم عن اسم الكتاب؛ مبيّناً المعاني التي ورد فيها في القرآن.
3. اذكر 5 صفات من أوصاف القرآن الكريم؛ مبيّناً معانيها.

مطالعة:

عظمة القرآن[1]:

إنّ عظمة كلّ كلام وكلّ كتاب؛ إمّا بعظمة متكلّمه وكاتبه، وإمّا بعظمة مطالبه ومقاصده، وإمّا بعظمة نتائجه وثمراته، وإمّا بعظمة الرسول والواسطة، وإمّا بعظمة المرسَل إليه وحامله، وإمّا بعظمة حافظه وحارسه، وإمّا بعظمة شارحه ومبيّنه، وإمّا بعظمة وقت إرساله وكيفيّة إرساله. وبعض هذه الأمور دخيل في العظمة ذاتاً وجوهراً، وبعضها عرضاً وبالواسطة، وبعضها كاشف عن العظمة. وجميع هذه الأمور التي ذكرناها موجودة في هذه الصحيفة النورانيّة بالوجه الأعلى والأوفى، بل هي من مختصّاتها؛ بحيث إنّ أيّ كتاب آخر؛ إمّا ألاَّ يشترك معها في شيء أصلاً، وإمّا أن لا يشترك معها في بعض المراتب.

أمّا عظمة متكلّمه ومنشئه وصاحبه؛ فهو العظيم المطلق الذي جميع أنواع العظمة المتصوّرة في الملك والملكوت، وجميع أنواع القدرة النازلة في الغيب والشهادة رشحة من تجلّيات عظمة فعل تلك الذات المقدّسة. ولا يمكن أن يتجلّى الحقّ تعالى بالعظمة لأحدٍ؛ وإنّما يتجلّى بها من وراء آلاف الحجب والسرادقات، كما في الحديث: «**إن لله تبارك وتعالى سبعين ألف حجاب من نور وظلمة، لو كُشفت لأحرقت سبحات وجهه ما دونه**»[2]. وعند أهل المعرفة فقد صدر هذا الكتاب الشريف من الحقّ تعالى بمبدئيّة جميع الشؤون الذاتيّة والصفاتيّة والفعليّة، وبجميع التجلّيات الجماليّة والجلاليّة، وليست لسائر الكتب السماويّة هذه المرتبة والمنزلة.

وأمّا عظمته بواسطة محتوياته ومقاصده ومطالبه، فيستدعي ذلك عقد فصل على حدة، بل فصول وأبواب، ورسالة مستقلّة، وكتاب مستقلّ، حتّى يسلك نبذة منها في سلك البيان والتحرير...

---

(1) الخمينيّ، منهجيّة الثورة الإسلاميّة، م.س، ص 49-51.

(2) المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار، تحقيق: يحيى العابدي الزنجاني؛ كاظم الموسويّ الميامويّ، ط2، بيروت، مؤسّسة الوفاء، 1403هـ.ق/ 1983م، ج58، باب5، ح13، ص45.

وأمّا عظمة رسول الوحي وواسطة الإيصال، فهو جبرائيل الأمين والروح الأعظم الذي يتّصل الرسول الأكرم ﷺ بعد خروجه من الجلباب البشريّ، وتوجيه شطر قلبه إلى حضرة الجبروت، بذاك الروح الأعظم، وهو أحد أركان دار التحقّق الأربعة، بل هو أعظم أركانها وأشرف أنواعها؛ لأنّ تلك الذات النورانيّة ملك موكل للعلم والحكمة، وصاحب الأرزاق المعنويّة والأطعمة الروحانيّة. ويستفاد من كتاب الله والأحاديث الشريفة تعظيم جبرائيل وتقدّمه على سائر الملائكة.

وأمّا عظمة المرسَل إليه ومتحمّله؛ فهو القلب التقيّ النقيّ الأحمديّ الأحديّ الجمعيّ المحمّديّ الذي تجلّى له الحقّ تعالى بجميع الشؤون الذاتيّة والصفاتيّة والأسمائيّة والأفعاليّة، وهو صاحب النبوّة الختميّة، والولاية المطلقة، وهو أكرم البريّة، وأعظم الخليقة، وخلاصة الكون، وجوهرة الوجود، وعصارة دار التحقّق، واللبنة الأخيرة، وصاحب البرزخيّة الكبرى، والخلافة العظمى.

وأمّا حافظه وحارسه؛ فهو ذات الحقّ جلّ جلاله؛ كما قال في الآية الكريمة المباركة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[1].

وأمّا شارحه ومبيّنه؛ فالذّوات المطهّرة المعصومون من رسول الله ﷺ إلى حجّة العصر عجّل الله فرجه، الذين هم مفاتيح الوجود، ومخازن الكبرياء، ومعادن الحكمة والوحي، وأصول المعارف والعوارف، وأصحاب مقام الجمع والتفصيل.

وأمّا وقت الوحي فليلة القدر، أعظم الليالي و﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[2]، وأنور الأزمنة؛ وهي في الحقيقة وقت وصول الوليّ المطلق والرسول الخاتم ﷺ.

(1) سورة الحجر، الآية 9.
(2) سورة القدر، الآية 3.

الدرس الثالث

البيّنة الثالثة
«لغة القرآن»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف وجه الحكمة في اختيار اللغة العربية لتكون لغة للقرآن.
2. يعدِّد خصائص اللغة العربية.
3. يشرح خصائص اللغة العربية؛ بوصفها لغة القرآن.

إنّ لغة القرآن هي اللغة العربيّة، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بعدّة تعابير، من قبيل: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[1]، ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٞ﴾[2]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ﴾[3].

وأمّا اختيار اللغة العربيّة لتكون لغة القرآن الكريم؛ فيعود إلى نكات دقيقة، أبرزها الآتية:

1. اتّحاد لسان الرسول ورسالته مع المُرسَل إليهم:

جاء نزول القرآن باللغة العربيّة استناداً إلى أصل عامّ وسنّة إلهيّة في الإنذار والتبشير، مفادها: اتّحاد لغة كلّ رسول مع لغة قومه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[4]. كما أنّ هذه السنّة تقتضي أن يكون الرسول من القوم الذين أُرسل إليهم: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾[5]. وهذه القاعدة العامّة في إرسال الرسل عليهم السلام، تنطبق أيضاً على إنزال الكتب السماويّة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا...﴾[6].

---

(1) سورة يوسف، الآية 2؛ وانظر: سورة طه، الآية 113؛ سورة الزمر، الآية 28؛ سورة فصّلت، الآية 3؛ سورة الشورى، الآية 7؛ سورة الزخرف، الآية 3.

(2) سورة النحل، الآية 103؛ وانظر: سورة الأحقاف، الآية 12.

(3) سورة الرعد، الآية 37.

(4) سورة إبراهيم، الآية 4.

(5) سورة الأنعام، الآية 130.

(6) سورة الشورى، الآية 7.

ومن هذا المنطلق، فإنّ نزول القرآن باللغة العربيّة أمر طبيعيّ موافق للسنّة الإلهيّة في الإنذار والتبشير. وهذا لا يتنافى مع رسالة الإسلام العالميّة، ودعوته العامّة على مدى العصور والأجيال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1]، ولا مع ما جاء به القرآن من هداية عامّة للناس كافّة: ﴿... هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ...﴾[2]. وأمّا إنذار الرسول الأكرم ﷺ لأهل مكّة، الذي ورد في سورة الشورى، فلم يكن إلا لأنّه ﷺ كان في المراحل الأولى من حركته العالميّة، مكلّفاً بدعوة قومه وهداية أبناء بيئته. ومن غير المعقول أن يُؤمَر ﷺ بإرشاد الناس وهدايتهم، ثمّ يعرض عليهم كتاباً بلغة غريبة عنهم: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ١٩٨ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ﴾[3].

وتجدر الإشارة إلى أنّ نزول القرآن في البيئة الجعرافيّة التي يقطنها العرب آنذاك؛ كان وفق تدبير إلهيّ حكيم؛ وذلك لأمور عدّة؛ أبرزها:

- إنّ القرآن رسالة الإسلام الخاتمة والعالميّة؛ فلا بدّ من تهيئة أمر انتشار هذا الدين واستحكام أمره في بيئة مصونة نسبيّاً عن التهديدات والأخطار التي تحول دون ذلك من جهة، وقريبة من جغرافيّة الرسالات السماويّة السابقة من جهة ثانية، ولغتها قادرة على إيصال تعاليم الرسالة الجديدة بنحو أفضل من غيرها من اللغات من جهة ثالثة؛ فكانت بيئة الجزيرة العربيّة البيئة المناسبة لهذه المرحلة التأسيسيّة؛ ولا سيّما أنّ خصائصها الجغرافيّة والمناخيّة صعبة وشاقّة لمن يريد أن يغزوها، وأنّها بعيدة نسبيّاً عن الأمبراطوريّات القويّة آنذاك، التي يمكن أن تشكّل تهديداً كبيراً لانتشار هذه الرسالة؛ كأمبراطوريّتي الفرس والروم.
- قضت الحكمة الإلهيّة التمهيد لهذه البيئة الجغرافيّة تكويناً وتشريعاً؛ عبر وضع الكعبة المشرّفة فيها: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[4]، ثمّ

(1) سورة سبأ، الآية 28.
(2) سورة البقرة، الآية 185.
(3) سورة الشعراء، الآيتان 198-199.
(4) سورة آل عمران، الآية 96.

بيّن الوحي الإلهيّ خصوصيّة هذا المكان بتوجيه دعوات الأنبياء عليهم السلام والرسل عليهم السلام للناس إليه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ...﴾[1]، ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[2]، ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ...﴾[3].

وغيرهما زمور أخرى تقتضي نزول القرآن الكريم باللغة العربيّة في بيئة الجزيرة العربيّة.

2. خصائص اللغة العربيّة اللفظيّة والمعنائيّة:

يرى علماء اللغة أنّ اللغة العربيّة تمتاز عن اللغات الأخرى بأنّها واسعة جدّاً، ولها قدرة عالية على حكاية المفاهيم المعنويّة العالية والسامية التي يطرحها القرآن، أكثر من غيرها من اللغات الأخرى. فعلى سبيل المثال: إنّ الأفعال في اللغة العربيّة لها أربع عشرة صيغة بدلاً من ستّ صيغ في لغات أخرى، ولكلّ الأسماء فيها مذكّر ومؤنّث، وتتطابق معها الأفعال والضمائر والصفات. وتتميّز اللغة العربيّة - أيضاً - بكثرة المفردات، واشتقاق الكلمات، ووفرة قواعدها، وفصاحتها، وبلاغتها، وإيجازها...

وقد اختار الله تعالى اللغة العربيّة لتكون لغة للقرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[5].

وهاتان الآيتان تكشفان عن حقيقة أنّ إكساء القرآن باللغة العربيّة مُسنَد إلى الله

(1) سورة البقرة، الآيتان 125-126.
(2) سورة إبراهيم، الآية 37.
(3) سورة آل عمران، الآية 97.
(4) سورة يوسف، الآية 2.
(5) سورة الزخرف، الآية 3.

تعالى، وهو الذي أنزل معنى القرآن ومحتواه بقالب اللفظ العربيّ؛ ليكون قابلاً للتعقّل والتأمّل. وفي الآية الواردة في سورة الزخرف يقول تعالى - بعد بيان أنّ لغة القرآن هي العربيّة -: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. وفي ذلك دلالة ما على أنّ لألفاظ الكتاب العزيز من جهة تعيّنها ونظمها على مستوى الحروف والألفاظ والجُمل والعبارات والآيات والسور؛ بالاستناد إلى الوحي، وكونها عربيّة؛ دخلاً في ضبط أسرار الآيات وحقائق المعارف ما لا يمكن إيصاله عبر لغة أخرى غير اللغة العربية، ولا يمكن تحقّقه عبر ناظم آخر لكلامه غير اللّه تعالى. ولو أنّه تعالى أوحى إلى النبيّ ﷺ بمعناه، وكان اللفظ الحالي له هو لفظ النبيّ ﷺ؛ كما في الأحاديث القدسية - مثلاً -، أو تُرجِم إلى لغة أخرى؛ لخفي بعض أسرار آياته البيّنات عن عقول الناس، ولم تنله عقولهم وأفهامهم[1].

3. ثبات اللغة العربيّة:

اللغة ظاهرة اجتماعيّة معرّضة كغيرها من الظواهر الاجتماعيّة للتغيّر والتبدّل؛ وإنْ كانت عمليّة التبدّل والتغيّر فيها تحتاج إلى عشرات السنين، بل مئات السنين، فما من لغة في التاريخ البشريّ إلا وقد أصابها التغيّير، إلى حدّ أنّها تبدّلت مع مرور السنين إلى لغة أخرى لا تشترك مع اللغة الأمّ إلا في الاسم. لكنّ اللغة العربيّة وحدها من اللغات البشريّة التي احتفظت بخصائصها ومميّزاتها مع مرور السنين والقرون؛ لأنّ القرآن الكريم حفظها فلم يطرأ عليها تغيير أو تبديل جوهريّ في بنيتها؛ إلا ما ندر من دخول ألفاظ بفعل احتكاك الشعوب العربيّة بحضارات وثقافات أخرى، أو ظهور معانٍ جديدة لم تكن متداولة للألفاظ سابقاً؛ وهذا الأمر تستوعبه اللغة العربيّة؛ بما تشتمل عليه من خاصّيّة التعبير المجازيّ عن معانٍ لها نحو علاقة بالمعنى الحقيقيّ، وخاصّيّات أخرى كالاشتقاق والترادُف والتعريب... وغيرها من الآليّات التي تستخدمها اللغة العربيّة لتُجدِّد خَلاياها حتى تُناسِب العصر والمُحدَثات، مع احتفاظها بأُصُولها وألفاظها وقواعدها؛ حتى غدت لُغة الأدب والعلم والحضارة.

(1) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج11، ص75. (بتصّرف)

فلو ألقينا نظرة كلّيّة على أغلب مفردات اللغة العربيّة المتداولة قبل قرون من الزمن عند العرب القدماء، لوجدناها مفهومة لدى العرب المعاصرين؛ وليس ذلك إلا بفعل ثبات اللغة العربيّة ومتانتها؛ بحيث لا تنفعل بسهولة أمام لغات الثقافات والحضارات العريقة التي دخلت بموروثاتها وسماتها الحضاريّة في البيئة الإسلاميّة؛ كحضارات الفرس والروم وغيرهما. ولكن مع ذلك ظلَّت اللغة العربيّة محافِظة على هُويَّتها وخصائصها ومميّزاتها، فلم تنصهر في لغات هذه الثقافات، بل على العكس، جعلتها تنصهر فيها؛ كما نراه في اللغة الفارسيّة الحاليّة (نسبة كبيرة من مفردات اللغة الفارسيّة المعاصرة هي عربيّة الأصل).

وتجدر الإشارة إلى أنّ تميّز اللغة العربيّة بالثبات، لا يَعنِي جمودها وعدم تطوُّرها، أو عدم انفعالها بمتغيّرات الزمان والمكان، والاحتكاك الثقافيّ والحضاريّ بلغات الشعوب الأخرى، بل إنّها متطوِّرة في إطارٍ ثابت مؤطّر بقواعد ثابتة، مع مواكبتها لكلّ زمان ومكان. لذلك لم يصبها ما أصاب اللغات الأخرى من تبدّل أو تغيير جذريّ في بنيتها؛ بما أدَّى إلى اندراسها، أو تبدّلها إلى لغات أخرى لا تشترك معها في الجوهر والبنية اللغويّة إلا في الاسم.

4. اللغة العربيّة لغة السهولة والوضوح:

أكّد القرآن الكريم صفة كونه بلسان عربيّ في وجه مَنْ زعموا أنّ هناك شخصاً يعلّم الرسول ﷺ القرآن: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[1]. ويُراد بـ «**أعجميّ**»: أنّه غير فصيح، فـ«الإعجام: الإبهام. والعجم خلاف العرب، والعجميّ منسوب إليهم. والأعجم: مَنْ في لسانه عجمة، عربياً كان أو غير عربيّ»[2].

وورد في حديث جاء جواباً عن معنى «**لسان عربيّ مبين**»: «**يبيّنُ الألسُنَ، ولا تبيّنهُ الألسُنُ**»[3].

ومن هنا، فالمراد بالعربيّة هو: بيان حقيقة أنّ اللغة العربيّة لغة الفصاحة والوضوح

(1) سورة النحل، الآية 103.
(2) انظر: الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن، م.س، مادّة «عجم»، ص549.
(3) الكلينيّ، الكافي، م.س، ج2، كتاب فضل القرآن، باب النوادر، ح20، ص632.

والخلوّ من التعقيد والإبهام، في مقابل الأعجميّ المبهم وغير الواضح والمعقّد. وقد اختارها الله تعالى ليبيّن بها معارف وحقائق راقية؛ بلغة فصيحة وبليغة.

الأفكار الرئيسة:

1. نزول القرآن باللغة العربيّة يستند إلى أصل عامّ وسنّة إلهيّة في الإنذار والتبشير، مفادها اتّحاد لغة كلّ رسول مع لغة قومه. وهذا لا يتنافى مع رسالة الإسلام العالميّة، ودعوته العامّة على مدى العصور والأجيال.
2. تمتاز اللغة العربيّة بأنّها واسعة جدّاً، ولها قدرة عالية على حكاية المفاهيم المعنويّة العالية والسامية التي يطرحها القرآن، أكثر من اللغات الأخرى.
3. اللغة العربيّة وحدها من اللغات البشريّة التي احتفظت بخصائصها ومميّزاتها مع مرور السنين والقرون؛ على نحو لم يطرأ عليها تغيير أو تبديل جوهريّ في بنيتها.
4. اللغة العربيّة لغة الفصاحة والوضوح والخلوّ من التعقيد والإبهام.
5. اللغة العربيّة تتناسب مع الهدف القرآنيّ الأسمى، وهو التوحيد؛ إذ لا يوجد في تأليف القضية في اللغة العربيّة سوى طرفين فقط، هما: الموضوع والمحمول، وهما متّحدان ذاتاً، يرجعان إلى وحدة ذاتيّة ومغايرة اعتباريّة مفاهيميّة.

فكّر وأجب:

1. هل نزول القرآن باللغة العربيّة يستلزم اختصاصه بالعرب وحسب؟
2. ما هو دور الخصائص المعنائيّة واللفظيّة للّغة العربيّة في اختيارها لغة للقرآن؟
3. بيّن علاقة ثبات اللغة العربيّة ومرونتها ووضوحها في اختيارها لغة للقرآن.

مطالعة:

تطوّر اللغة العربيّة ورسمها[1]:

ترتبط نشأة اللغات الإنسانيّة بتطوّرات الحياة الاجتماعيّة وتفاعلاتها، وتعدّ اللغة العربيّة من اللغات التي خضعت على طول مسيرتها لهذه القاعدة، حيث تعرّضت لكثير من التطوّرات بفعل سعة بقعة انتشارها؛ فتعدّدت لهجاتها واختلفت، ولا سيّما بعد الفتوحات الإسلاميّة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ اللهجة عبارة عن سلوك لغويّ له مميّزات لغويّة ذاتُ نظامٍ صوتيّ خاصّ تخصّ بيئةً معيّنة، يشترك فيها جميع أفراد تلك البيئة. ومجال الاختلاف الأهمّ بين اللهجات هو الأصوات، واختلاف معاني الوحدات الدلاليّة.

وقد اشتهرت لهجة قريش أكثر من غيرها من اللهجات العربيّة الأخرى السائدة قبل الإسلام؛ كتميم وهذيل وغيرهما؛ للموقع الاقتصاديّ والدينيّ الذي كانت تتمتّع به مكّة آنذاك؛ ما أدّى إلى مزيد من الأثر في تهذّب لهجة قريش وتطوّرها؛ نتيجة الاختلاط بلهجات الشعوب والقبائل الأخرى. ثمّ كان لنزول القرآن الكريم بلهجة رسول الله ﷺ القرشيّة، بالغ الأثر في سيادة هذه اللهجة القرشيّة وصيرورتها اللّغة الفصحى.

والمشهور أنّ العرب أخذوا لغتهم من الحيرة، التي أخذت من الأنبار، وأخذت الأنبار من الأنباط، وأخذ الأنباط لغتهم من الكتابة الساميّة الشماليّة المأخوذة من الكتابة الفينيقيّة، التي بدورها أخذت كتابتها من الكتابة السينائيّة الأمّ في سيناء.

وادُّعي أنّ رسم العربيّة الشماليّ اشتُقّ من الكتابة السريانيّة. والواقع أنّه لا دليل على ذلك، وغاية ما يمكن استفادته تأثير السريانيّة في الكتابة النبطيّة التي تأثّر بها رسم العربيّة الشماليّ.

(1) انظر: المغربيّ، عبد الرحمن (ابن خلدون): المقدّمة، لاط، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، لات، ص417-421؛ وافي، علي عبد الواحد: علم اللغة، ط9، القاهرة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ومطبعتها، لا.ت، ص96، 176-177؛ السامرائيّ، إبراهيم: التطوّر اللغويّ التاريخيّ، ط3، بيروت، دار الأندلس، 1983م، ص34.

وقد تفرّع الخطّ النبطيّ إلى نوعين من الخطوط: خطٌ يشبه الخطّ الكوفيّ في خطوطه المستقيمة وزواياه، وخطّ نسخيّ حرفه أكثر استدارة وأسهل كتابة.

وبقي الخطّان - النسخي والكوفي - متداولين بين المسلمين، يعملون على تحسينهما وتطويرهما، حتى جاء ابن مقلة في بداية القرن الرابع للهجرة، وأدخل تحسينات هامّة جدّاً على الخطّ النسخيّ؛ ليصبح على ما هو عليه اليوم من جمال فائق، بخلاف الخطّ الكوفيّ الذي لم يلقَ أيّ تطوّر أو ازدهار حتى هُجِرَ تماماً.

الدرس الرابع

البيّنة الرابعة
«فضل القرآن الكريم ومنزلته»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يعرف فضل القرآن ومنزلته.

2 . يعرف مكانة القرآن الكريم بين الرسالات الإلهية وكونه مهيمناً عليها.

3 . يشرح كيف في القرآن الكريم بيان لكل شيء.

وردت مجموعة من الآيات القرآنيّة في بيان فضل القرآن في نفسه، ومكانته بين الكتب السماويّة الأخرى، ومنزلته عند الله تعالى.

1. القرآن مهيمن على الرسالات الإلهيّة:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ... * ... * وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ * ... * وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ...﴾[1].

فبعد ذِكْر خصائص كلّ من التوراة والإنجيل وما فيهما من نور وهدى للناس، وتصديق اللاحق من الرسالات الإلهيّة للسابق منها، وشهادة السابق منها على اللاحق، بيّن الله تعالى أنّ القرآن الكريم مهيمن وحاكم على الرسالات الإلهيّة السابقة. وتكمن هيمنة القرآن في بيانه لكلّ شيء يحتاج إليه الإنسان في اهتدائه إلى سعادته وكماله، مع حفظه الأصولَ الثابتة غير المتغيّرة من الرسالات السابقة عليه، ونسخه منها ما ينبغي أن يُنسخ من الفروع التي يمكن أن يتطرّق إليها التغيّر والتبدّل حتى يناسب حال الإنسان؛ بحسب سلوكه صراط الترقّي والتكامل بمرور الزمان: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾[2]، ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ

(1) سورة المائدة، الآيات 44، 46، 48.

(2) سورة البقرة، الآية 106.

ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]. فالقرآن الكريم يصدّق ما ورد في التوراة والإنجيل من التعاليم والمعارف والأحكام؛ بما يناسب حال هذه الأمّة، ويهيمن عليها بالنسخ والتكميل والزيادة؛ لما فيه صلاح الإنسانيّة في الترقّي إلى مقصدها الكماليّ عبر التدرّج في الرسالات الإلهيّة؛ كما كان المسيح عليه السلام أو إنجيله مصدّقاً للتوراة، مع إحلاله بعض ما فيها من المحرّمات؛ كما حكاه الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[2]. لذا، كان القرآن حاكمًا ومهيمناً على الرسالات السماويّة السابقة عليه؛ من منطلق تضمّنه لما في هذه الرسالات من نور وهدى، وما يزيد على ذلك؛ ممّا تتطلّبه هداية الإنسانيّة إلى مقصدها الكماليّ[3].

2. القرآن أقوم الرسالات الإلهيّة:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾[4].

والمراد بـ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ الملّة الحنيفيّة؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[5]. والأقوم أفعل تفضيل؛ والأصل في الباب القيام ضدّ القعود الذي هو أحد أحوال الإنسان وأوضاعه، وحالاته التي يتسلّط بها على ما يريده من العمل ويكون فيها على أتمّ استعداد وجهوزيّة لما يواجهه من أمور؛ بخلاف القعود والاستلقاء والانبطاح ونحوها، ثمّ كنّى به عن حسن

(1) سورة الأعراف، الآية 157.
(2) سورة آل عمران، الآية 50.
(3) انظر: الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج5، ص348-349.
(4) سورة الإسراء، الآية 9.
(5) سورة الأنعام، الآية 161.

تصدّيه للأمور إذا قوي عليها من غير عجز وعيّ، وأحسن إدارتها للغاية المرجوّة منها. وقد وصف الله سبحانه هذه الملّة الحنيفيّة بالقيام: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1]، ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ...﴾[2]؛ وذلك لكون هذا الدين مهيمناً على ما فيه خير دنياهم وآخرتهم، قيّماً على إصلاح حالهم في معاشهم ومعادهم، وليس ذلك إلّا لكونه موافقاً لما تقتضيه الفطرة الإنسانيّة والخلقة التي سوّى الله سبحانه الإنسان عليها، وجهّزه بحسبها؛ بما يهديه إلى غايته التي أريدت له، وسعادته التي هُيِّئت لأجله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[3]. فهذه الملّة الحنيفيّة أكمل من الملل السابقة التي تضمّنتها كتب الأنبياء والرسل السابقين عليهم السلام؛ بما تشتمل عليه من المعارف الإلهيّة على آخر ما تتحمّله البنية الإنسانيّة، ومن الشرائع على ما لا يشذّ منه شاذّ من أعمال الإنسان الفرديّة والاجتماعيّة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ...﴾[4]، فما يهدي إليه القرآن أقوم ممّا يهدي إليه غيره من الكتب السماويّة السابقة[5].

3. القرآن فيه بيان كلّ شيء:

قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[6].

يصف القرآن الكريم نفسه في هذه الآية بكرائم صفاته؛ فصفته العامّة أنّه تبيان وبيان لكلّ شيء يرجع إلى أمر الهداية ممّا يحتاج إليه الناس في اهتدائهم، من المعارف الحقيقيّة المتعلّقة بالمبدأ والمعاد والأخلاق الفاضلة والشرائع الإلهيّة والقصص والمواعظ؛

(1) سورة الروم، الآية 30.
(2) سورة الروم، الآية 43.
(3) سورة الأعلى، الآيتان 2-3.
(4) سورة المائدة، الآية 48.
(5) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج13، ص46-47. (بتصّرف)
(6) سورة النحل، الآية 89.

فالقرآن تبيان لذلك كلّه. ومن صفته الخاصّة؛ أنّه هداية للّذين يسلمون للحقّ ويهتدون به إلى مستقيم الصراط، ورحمة لهم من الله سبحانه، يحوزون بالعمل بما فيه خير الدنيا والآخرة، وينالون به ثواب الله ورضوانه، وبشرى لهم بمغفرة من الله ورضوان وجنّات لهم فيها نعيم مقيم. وفي الروايات المأثورة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام ما يدلّ على أنّ القرآن فيه علم ما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة. فهي قرينة على أنّ المراد بالتبيان في الآية أعمّ ممّا يكون من طريق الدلالة اللفظيّة. فلعلّ هناك إشارات من غير طريق الدلالة اللفظية تكشف عن أسرار وخبايا لا سبيل للفهم المتعارف إليها وعلمها إلّا عند المعصوم عليه السلام. وبالرجوع إلى سياق الآيات المحتفّة بهذه الآية وهي مسوقة للاحتجاج على الأصول الثلاثة: التوحيد والنبوّة والمعاد، والكلام فيها ينعطف مرّة بعد أخرى عليها، يظهر أنّ الواو في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ...﴾ ليست استئنافيّة، بل حاليّة متعلّقة بضمير الخطاب في ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ والمعنى: وجئنا بك شهيداً على هؤلاء يوم القيامة؛ والحال أنّا نزّلنا عليك من قبل في الدنيا الكتاب؛ وهو بيان لكلّ شيء من أمر الهداية؛ يُعلم به الحقّ من الباطل، فيتحمّل شهادة أعمالهم، فيشهد يوم القيامة على الظالمين بما ظلموا، وعلى المسلمين بما أسلموا؛ لأنّ الكتاب كان هدى ورحمة وبشرى لهم، وكنت أنت بذلك هادياً ورحمة ومبشّراً لهم. وعليه، فصدر الآية كالتوطئة لذيلها؛ كأنّه قيل: سيبعث اللّه شهداء يشهدون على الناس بأعمالهم؛ وأنت منهم، ولذلك نزّلنا عليك كتاباً يبيّن الحقّ والباطل، ويميّز بينهما؛ حتى تشهد به يوم القيامة على الظالمين بظلمهم، وعلى المسلمين بإسلامهم. وقد كان الكتاب هدى ورحمة وبشرى لهم، وكنت هادياً ورحمة ومبشّراً به. ومن لطيف ما يؤيّد هذا المعنى مقارنة الكتاب بالشهادة في بعض آيات الشهادة: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1]؛ والمراد بالكتاب اللوح المحفوظ، وقد

(1) سورة الزمر، الآية 69.

تكرّر في كلامه تعالى أنّ القرآن من اللوح المحفوظ؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾[1]، ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾[2]؛ وشهادة اللوح المحفوظ وإنْ كانت غير شهادة النبيّ ﷺ، لكنّهما جميعاً متوقّفتان على قضاء الكتاب النازل[3].

4. القرآن أحسن الحديث:

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[4].

المراد بالحديث هو القول؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ...﴾[5]، ﴿... فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[6]. والقرآن الكريم هو أحسن القول؛ لاشتماله على محض الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو كلامه المجيد.

وقوله: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا...﴾؛ أي يشبه بعض أجزائه بعضها الآخر. وهذا غير التشابه الذي في المتشابه المقابل للمحكم؛ كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾[7]؛ فإنّه صفة بعض آيات الكتاب، والتشابه في هذه الآية صفة لجميع الآيات.

وقوله: ﴿مَّثَانِىَ﴾ جمع مثنيّة؛ بمعنى المعطوف بعضه على بعضه الآخر؛ لانعطاف بعض آياته على بعضها الآخر ورجوعه إليه؛ بياناً وتفسيراً، من غير اختلاف أو تدافع أو تناقض بين آياته: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[8].

(1) سورة الواقعة، الآيتان 77-78.
(2) سورة البروج، الآيتان 21-22.
(3) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج12، ص324-326. (بتصّرف)
(4) سورة الزمر، الآية 23.
(5) سورة الطور، الآية 34.
(6) سورة المرسلات، الآية 50.
(7) سورة آل عمران، الآية 7.
(8) سورة النساء، الآية 82.

وقوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، بيان صفة الكتاب وأنّه يُحدث توجّهاً إلى ساحة العظمة والكبرياء في نفوس الذين يخشون ربّهم.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ أي تسكن وتطمئنّ جلودهم وقلوبهم إلى ذِكْر الله.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي ما يأخذهم من توجّه نحو العظمة والكبرياء بفعل استماعهم للقرآن؛ هو هدى الله؛ وهو من باب تعريف الهداية بأحد لوازمها.

وقوله: ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ أي يهدي بهداه من يشاء من عباده؛ وهو خصوص العبد الذي لم يُبطل استعداده للاهتداء، ولم يُشغل نفسه بالموانع؛ كالفسق والظلم. فالهداية من فضله تعالى، وليس بموجب فيها مضطر إليها[1].

5. القرآن شفاء للقلوب:

قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

إذا أُخِذَت هذه النعوت الأربعة التي عدّها الله سبحانه للقرآن في هذه الآية؛ أي إنّه موعظة وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة، وقيس بعضها إلى بعضها الآخر، ثمّ اعتُبرت مع القرآن؛ كانت الآية بياناً جامعاً لعامّة أثره الطيّب الجميل، وعلمه الزاكي الطاهر الذي يرسمه في نفوس المؤمنين، منذ أوّل ما يقرع أسماعهم إلى آخر ما يتمكّن من نفوسهم ويستقرّ في قلوبهم. حيث يتعهّدهم بموعظته التي توقظهم من الغفلة، ويدلّهم ويأخذ بيدهم في تطهير أنفسهم من الملكات الرديئة والصفات الخبيثة ويدلّهم على المعارف الحقّة والأخلاق الحميدة والأعمال الصالحة، ليرفعهم بها إلى أعلى درجات القرب ويلبسهم لباس الرحمة، ويقرّهم في مستقرّ السعادة الأبدية. فالقرآن واعظ شافٍ لما في الصدور،

(1) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج17، ص256-257. (بتصّرف)
(2) سورة يونس، الآية 57.

هادٍ إلى مستقيم الصراط، مفيض للرحمة بإذن الله سبحانه. وإنّما يعظ بما فيه، ويشفي الصدور ويهدي ويبسط الرحمة بنفسه، لا بأمر آخر؛ فإنّه السبب الموصول بين الله وخلقه؛ فهو موعظة وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين[1].

ويوجد خصائص أخرى للقرآن الكريم تناولتها الآيات القرآنيّة؛ من قبيل: أنّه نور لمن استنار به في ظلمات الجهل والضلال؛ قاصداً المعرفة الحقّة؛ ثابتاً عليها في الصراط المستقيم: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[2]، وأنّه بيان وهدى وموعظة لمن اتّخذه إماماً ودليلًا في القول والعمل: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[3]...

(1) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج10، ص80-82. (بتصّرف)
(2) سورة إبراهيم، الآية 1.
(3) سورة آل عمران، الآية 138.

الأفكار الرئيسة:

1. القرآن الكريم يصدّق ما ورد في التوراة والإنجيل من التعاليم والمعارف والأحكام؛ بما يناسب حال هذه الأمّة، ويهيمن عليها بالنسخ والتكميل والزيادة؛ لما فيه صلاح الإنسانيّة في الترقّي إلى مقصدها الكماليّ، عبر التدرّج في الرسالات الإلهيّة.
2. ما يهدي إليه القرآن أقوم ممّا يهدي إليه غيره من الكتب السماويّة السابقة.
3. القرآن بيان لكلّ شيء من أمر الهداية؛ يُعلم به الحقّ من الباطل، فيتحمّل شهادة أعمال الناس، ويشهد يوم القيامة على الظالمين بما ظلموا، وعلى المسلمين بما أسلموا.
4. القرآن الكريم هو أحسن القول؛ لاشتماله على محض الحقّ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو كلامه المجيد.
5. القرآن واعظ شافٍ لما في الصدور، هادٍ إلى مستقيم الصراط، مفيض للرحمة بإذن الله سبحانه.

فكّر وأجب:

1. بيّن حقيقة هيمنة القرآن الكريم على الكتب السماويّة السابقة عليه.
2. ما المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾؟
3. لماذا يُعدّ القرآن الكريم أحسن القول؟

مطالعة:

روايات في فضل القرآن الكريم ومنزلته:

وردت مجموعة من الروايات المأثورة عن النبيّ ﷺ وأهل بيته المعصومين عليهم السلام، في بيان فضل القرآن ومكانته ومنزلته؛ منها:

- ما رُوي عن رسول الله ﷺ: «إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم؛ فعليكم بالقرآن؛ فإنَّه شافع مشفّع، وماحل مصدّق، مَن جعله أمامه قاده إلى الجنّة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار. وهو الدليل يدلّ على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيلٌ وبيانٌ وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكم، وباطنه علم، ظاهره أنيق، وباطنه عميق، له تخوم، وعلى تخومه تخوم، لا تُحصى عجائبه ولا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة، ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة، فَلْيَجْلُ جال بصره، وليبلغ الصفة نظره؛ ينجُ من عطب، ويتخلّص من نشب؛ فإنّ التفكّر حياة قلب البصير؛ كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور، فعليكم بحسن التخلّص وقلّة التربّص»[1].
- ما رُوي عن أمير المؤمنين الإمام عليّ عليه السلام: «واعلموا أنّ هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغشّ، والهادي الذي لا يضلّ، والمحدّث الذي لا يكذب. وما جالس هذا القرآنَ أحدٌ إلا قام عنه بزيادة أو نقصان: زيادة في هدى، أو نقصان في عمى. واعلموا أنّه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم، واستعينوا به على لأوائكم، فإنّ فيه شفاءً من أكبر الداء؛ وهو الكفر والنفاق والغيّ والضلال. فاسألوا الله به، وتوجّهوا إليه بحبّه، ولا تسألوا به خلقه؛ إنّه ما توجّه العباد إلى الله بمثله. واعلموا أنّه شافع مشفَّع، وقائل مصدَّق. وأنّه مَنْ شفع له القرآن يوم القيامة شُفّع فيه، ومَنْ محل به القرآن يوم القيامة صُدّق عليه، فإنّه ينادي منادٍ يوم القيامة: ألا إنّ كلّ حارث مبتلى في حرثه وعاقبة عمله، غير حرثة القرآن. فكونوا من

(1) الكلينيّ، الكافي، م.س، ج2، كتاب فضل القرآن، باب في تمثّل القرآن وشفاعته لأهله، ح2، ص599.

حرثته وأتباعه، واستدلّوه على ربّكم، واستنصحوه على أنفسكم، واتّهموا عليه آراءكم، واستغشّوا فيه أهواءكم... وإنّ الله سبحانه لم يعظ أحداً بمثل هذا القرآن، فإنّه حبل الله المتين، وسببه الأمين، وفيه ربيع القلب، وينابيع العلم، وما للقلب جلاء غيره»[1].

- ما رُوي عنه عليه السلام أيضاً: «ثمّ أنزل عليه (أي على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم)، الكتاب نوراً لا تُطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقّده، وبحراً لا يُدرَك قعره، ومنهاجاً لا يضلّ نهجه، وشعاعاً لا يُظلِم ضوؤه، وفرقاناً لا يُخمَد برهانه، وتبياناً لا تُهدَم أركانه، وشفاءً لا تُخشَى أسقامه، وعزّاً لا تُهزَم أنصاره، وحقّاً لا تُخذَل أعوانه، فهو معدن الإيمان وبحبوحته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافيّ الإسلام وبنيانه، وأودية الحقّ وغيطانه، وبحر لا يُنزفه المنتزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضلّ نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون، جعله الله ريّاً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجَّ لطرق الصلحاء، ودواءً ليس بعده داء، ونوراً ليس معه ظلمة، وحبلاً وثيقاً عروته، ومعقلاً منيعاً ذروته، وعزّاً لمن تولّاه، وسلماً لمن دخله، وهدى لمن ائتمّ به، وعذراً لمن انتحله، وبرهاناً لمن تكلّم به، وشاهداً لمن خاصم به، وفلجاً لمن حاجّ به، وحاملاً لمن حمله، ومطيّة لمن أعمله، وآيةً لمن توسّم، وجُنّة لمن استلأم، وعلماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى، وحكماً لمن قضى»[2].

(1) العلويّ، محمّد بن الحسين (الشريف الرضّي): نهج البلاغة (الجامع لخطب الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام ورسائله وحكمه)، شرح: محمّد عبده، ط1، قم المقدّسة، دار الذخائر؛ مطبعة النهضة، 1412هـ.ق/ 1370هـ.ش، ج2، الخطبة176، ص91-92.

(2) م.ن، ج2، الخطبة198، ص177-178.

الدرس الخامس

البيّنة الخامسة
«عالميّة رسالة القرآن»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يفهم حقيقة عالميّة رسالة القرآن وأدلّتها.

2 . يطلع على أبرز الشبهات المثارة حول عالميّة القرآن ويدحضها بالدليل.

3 . يوظّف حقيقة عالمية رسالة القرآن في تعزيز الارتباط الفكريّ بالقرآن الكريم.

1. عالميّة رسالة القرآن بدلالة القرآن الكريم:

يمكن الاستدلال على عالميّة رسالة القرآن للناس كافّة، من خلال الأدلّة الآتية:

أ. تصريح القرآن الكريم بعالميّة رسالته للناس كافّة:

حيث وردت فيه آيات كثيرة تبيّن هذه الحقيقة؛ منها:

- قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[1].

ذكر القرآن الكريم مجموعة من الأوصاف التي وصف بها نبيّه ﷺ في سياق الآية السابقة على هذه الآية؛ وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[2]؛ وفيها بيان أنّ النبيّ ﷺ عنده كمال الدين الذي به تحقّق الناس بالحياة الطيّبة، في أيّ مكان فُرِضُوا، وفي أيّ زمان قُدِّرَ وجودهم فيه، ولا حاجة للناس في طيب حياتهم إلى أزيد من أن يُؤمَروا بالمعروف، ويُنهَوا عن المنكر، وتُحلَّل لهم الطيّبات، وتحرَّم عليهم الخبائث، ويُوضع عنهم إصرهم والأغلال التي عليهم وفق ما تستسيغه فِطَرهم وتنجذب إليه. ثمّ جاء قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾؛ وفيه أمر لنبيّه ﷺ أن يعلن برسالته إلى الناس جميعاً، من غير أن تختصّ بقوم دون قوم، ولا بزمان دون زمان[3].

---

(1) سورة الأعراف، الآية 158.

(2) سورة الأعراف، الآية 157.

(3) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج8، ص283. (بتصّرف)

- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

إنّ الجمع المحلّى باللام في قوله تعالى: ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ يفيد العموم؛ فيكون مفاد الآية: إنّك أيّها النبيّ ﷺ رحمة مُرسَلة إلى الجماعات البشريّة كلّهم؛ وذلك مقتضى عموم الرسالة.

والنبيّ ﷺ رحمة لأهل الدنيا؛ من جهة إتيانه بدين يكمن في أخذهم به تحقيق سعادتهم في دنياهم وأخراهم. وهو ﷺ رحمة لأهل الدنيا من حيث الآثار الحسنة التي سَرَت من قيامه بالدعوة الحقّة في مجتمعاتهم؛ وهو ما يظهر ظهوراً بالغاً بقياس الحياة العامّة للبشريّة اليوم إلى ما كانت عليه قبل بعثته الشريفة ﷺ، وتطبيق إحدى الحياتين على الأخرى[2].

وغيرهما آيات أُخَر[3].

ب. عموم خطابات القرآن وإطلاقها:

إنّ القرآن غالباً ما يوجّه خطاباته إلى الناس على نحو العموم والإطلاق من غير تخصيص أو تقييد بشيء؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾[6]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ

(1) سورة الأنبياء، الآية 107.

(2) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج14، ص331. (بتصّرف)

(3) انظر: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ (سورة سبأ، الآية 28)؛ ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾ (سورة الأنعام، الآية 19)؛ ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ (سورة النساء، الآية 79)؛ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (سورة الفرقان، الآية 1).

(4) سورة البقرة، الآية 21.

(5) سورة البقرة، الآية 168.

(6) سورة آل عمران، الآية 97.

عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1]، وقوله تعالى في آيات أُخَر[2]؛ فلو كانت رسالة القرآن خاصّة بفئة من الناس دون غيرهم، فما هو وجه الحكمة حينها في إطلاق خطابات القرآن لجميع الناس في كلّ زمان ومكان؟!!

ج. موافقة رسالة القرآن للفطرة الإنسانيّة:

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

عبّر القرآن الكريم في بداية الآية بقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾؛ وهذا التعبير ينبّه السامع إلى أمر في غاية الخطورة والأهمّيّة بالنسبة إليه؛ فلا بدّ له من الإقبال عليه والتفاعل معه بكلّ جوارحه وعقله وفكره؛ وهذا الأمر هو الدين الذي تهتف به خِلْقة الإنسان، وتهديه إليه فطرته الإلهيّة التي لا تبديل لها؛ لأنّ الدين سنّة الحياة والسبيل التي يجب على الإنسان أن يسلكه؛ حتى يسعد في حياته، ولا غاية للإنسان يتّبعها إلا السعادة. وقد هدى الله الإنسان إلى سعادته التي هي بغية حياته؛ بفطرته ونوع خلقته، وجهّزه في وجوده بما يناسب غايته من التجهيز: ﴿... رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[4]،

(1) سورة الحجرات، الآية 13.

(2) انظر: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (سورة النساء، الآية 1)؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (سورة النساء، الآية 170)؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (سورة النساء، الآية 174)؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يونس، الآية 57)؛ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ (سورة يونس، الآية 108)؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة الحج، الآية 1)؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ (سورة الحج، الآية 5)؛ ...

(3) سورة الروم، الآية 30.

(4) سورة طه، الآية 50.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[1]. فالإنسان كسائر الأنواع المخلوقة، مفطور بفطرة تهديه إلى تتميم نواقصه ورفع حوائجه، وتهتف له بما ينفعه وما يضرّه في حياته: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[2]؛ وهو مع ذلك مجهّز بما يتمّ له به ما يجب له أن يقصده من العمل: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾[3]، وله فطرة خاصّة تهديه إلى سنّة خاصّة في الحياة، وسبيل معيّنة ذات غاية مشخّصة ليس له إلّا أن يسلكها خاصّة: ﴿... فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ...﴾، فما للإنسان من جهة أنّه إنسان إلا سعادة واحدة؛ فمن الضروريّ حينئذ أن يكون تجاه عمله سنّة واحدة ثابتة يهديه إليها هاد واحد ثابت؛ هو الدين الإلهيّ الذي يكفل سعادة هذا النوع الإنسانيّ[4].

وعليه، إذا كانت رسالة القرآن هي من الدين، بل الدين الكامل والخاتم: ﴿... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ...﴾[5]؛ وهذا الدين موافق لمقتضى الفطرة الإنسانية، وهذه الفطرة مشتركة بين جميع الناس باختلاف أزمنتهم وأمكنتهم، ولا يمكن للنوع الإنسانيّ أن يصل إلى كماله إلا باتّباع الدين الذي تهدي إليه الفطرة؛ فلا محيص من أنّ رسالة القرآن هي رسالة عالميّة لكافّة الناس إلى قيام يوم الدين.

ويؤيّد ذلك ما ورد من وصف للقرآن بأنّه هداية ونور لجميع الناس في كلّ زمان ومكان: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ﴾[6]، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[7].

(1) سورة الأعلى، الآيتان 2-3.
(2) سورة الشمس، الآيتان 7-8.
(3) سورة عبس، الآيتان 19-20.
(4) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج2، ص111-112؛ ج16، ص178-179. (بتصّرف)
(5) سورة المائدة، الآية 3.
(6) سورة البقرة، الآية 185.
(7) سورة الزمر، الآية 27.

2. شبهات حول عالميّة رسالة القرآن:

أ. **الشبهة الأولى:** رسالة القرآن خاصّة بالعرب، لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ...﴾[1].

الجواب: إنّ نزول القرآن بلسان العرب لا يستلزم أن تكون الرسالة مختصّة بهم؛ لأنّ السنّة الإلهيّة في إرسال الرسل الإلهيّين تقتضي اتّحاد لغتهم ولغة رسالتهم مع لغة الأقوام المرسَلين إليهم؛ ليتحقّق البيان الإلهيّ من التبشير والإنذار، وتتهيّأ البيئة المناسبة لانتشار الدعوة؛ فإذا ما تحقّق البيان وتهيّأت البيئة المناسبة؛ كان بالإمكان نقل هذا البيان إلى غيرهم من الأقوام الآخرين ونشر الدعوة فيهم، ولا سيما مع الالتفات إلى أنّ لنزول القرآن باللغة العربيّة حكمة بالغة في إيصال تعاليم السماء؛ بما لا يمكن لأيّ لغة أخرى أن تقوم مقامها في أداء هذه المهمّة الدقيقة والحسّاسة.

ب. **الشبهة الثانية:** رسالة القرآن خاصّة بقوم الرسول الأكرم ﷺ، لقوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمَا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾[2].

الجواب: إنّ إنذار النبيّ ﷺ لقومه في بداية دعوته لا يستلزم اختصاصها بهم، بل هو جري وفق السنّة الإلهيّة في إرسال الرسل عليهم السلام بلسان أقوامهم، ولتهيئة البيئة المناسبة لانتشار دعوته ﷺ إلى الأقوام الآخرين، بعد تثبيتها في بيئة قومه ﷺ. ولو كانت رسالته ﷺ مختصّة بقومه؛ لما أرسل النبيّ ﷺ الكتب والرسائل إلى الملوك يدعوهم فيها هم وأقوامهم إلى الدخول في الإسلام، ولكان فعله ﷺ هذا لغواً!

ج. **الشبهة الثالثة:** رسالة القرآن خاصّة بأهل مكّة ومحيطها، لقوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ...﴾[3]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا...﴾[4].

---

(1) سورة إبراهيم، الآية 4.
(2) سورة يس، الآية 6.
(3) سورة الأنعام، الآية 92.
(4) سورة الشورى، الآية 7.

الجواب: إنّ هذا الإنذار في دعوة النبيّ ﷺ يجري وفق سنّة التدرّج في انتشار الدعوة الإلهيّة؛ فبعد أن أمره الله تعالى بإنذار عشيرته الأقربين: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[1]، تدرّج النبيّ ﷺ في دعوته ممتثلاً أمره تعالى بإنذار أهل مكّة ومن حولها: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، ثمّ بتعميم دعوته لجميع الناس في كلّ زمان ومكان: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[2].

د. **الشبهة الرابعة:** قبول إيمان غير المسلمين من اليهود والنصارى والصابئين يستلزم عدم عالميّة رسالة القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3].

الجواب: إنّ هذه الآية ليست بصدد إمضاء إيمان غير المسلمين بعد نزول رسالة الإسلام، وإنّما هي بصدد بيان أنّ مجرّد الاسم لا ينجّي الإنسان يوم القيامة؛ بل لا بدّ للمؤمن من الاعتقاد الصحيح والعمل الصالح؛ وإلا فسوف يبتلى بالخسران. فإيمان وعمل مَنْ مضى من اليهود والنصارى والصابئين قبل نزول الإسلام؛ إذا كان وفق الدين الحقّ الذي نزل إليهم وكُلِّفوا به آنذاك؛ يقتضي قبولهم عند الله تعالى وفوزهم وفلاحهم، وأمّا بعد نزول رسالة الإسلام؛ فلا يقبل من الإنسان اعتقاد أو عمل إلا ما يدعو إليه الإسلام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾[4]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾[5].

(1) سورة الشعراء، الآية 214.
(2) سورة الأعراف، الآية 158.
(3) سورة البقرة، الآية 62.
(4) سورة آل عمران، الآية 19.
(5) سورة آل عمران، الآية 85.

الأفكار الرئيسة:

1. صرّح القرآن الكريم بعالميّة رسالته للناس كافّة.
2. القرآن غالباً ما يوجّه خطاباته إلى الناس على نحو العموم والإطلاق من غير تخصيص أو تقييد بشيء من زمان او مكان؛ وهذا ليس إلا لعالميّة رسالته.
3. إذا كانت رسالة القرآن هي من الدين، بل الدين الكامل والخاتم؛ وهذا الدين موافقاً لمقتضى الفطرة الإنسانية، وهذه الفطرة مشتركة بين جميع الناس باختلاف أزمنتهم وأمكنتهم، ولا يمكن للنوع الإنسانيّ أن يصل إلى كماله إلا باتّباع الدين الذي تهدي إليه الفطرة؛ فلا محيص من أنّ رسالة القرآن هي رسالة عالميّة للناس كافّة إلى قيام يوم الدين.
4. من الشبهات المطروحة حول عالميّة رسالة القرآن، أنّ رسالة القرآن خاصّة بالعرب، وحسب، أو هي خاصّة بقومه، أو هي خاصّة بأهل مكّة، أو هي غير ملزمة لأتباع الديانات السماويّة الأخرى، ...

فكّر وأجب:

1. اذكر دليلاً على عالميّة رسالة القرآن الكريم.
2. هل القرآن خاصّ بالعرب أو بقوم النبيّ ﷺ أو بأهل مكّة؟ بيّن ذلك.
3. هل أتباع الديانات الأخرى غير ملزمين باتّباع رسالة القرآن؟ بيّن ذلك.

مطالعة:

عالميّة رسالة القرآن بدلالة السنّة الشريفة:

إنّ السنّة الشريفة القوليّة والعمليّة واضحة الدلالة على عالميّة رسالة القرآن الكريم للناس كافّة؛ وبيان ذلك في الآتي:

1. قول الرسول الأكرم ﷺ لعشيرته الأقربين: «**واللَّه الّذي لا إله إلّا هو، إنّي رسولُ اللَّه إليكم خاصّة، وإلى الناس عامّةً**»[1].
2. قوله ﷺ أيضاً: «**كان كلّ نبيّ يُبعث إلى قومه خاصّة، وبُعثت إلى كلّ أحمر وأسود**»[2].
3. سيرة الرسول الأكرم ﷺ الدعويّة: ومن الشواهد على ذلك مكاتيبه ورسائله التي وجّهها إلى الملوك؛ كَكِسرى مَلِك الفُرس، وقَيْصر مَلِك الروم، والمقوقس عظيم القِبْط، والنجاشيّ ملك الحبشة، وغيرهم[3]، ومن هذه المكاتيب والرسائل:

- رسالته ﷺ إلى كسرى ملك فارس: «**بسم الله الرحمن الرحيم... من محمّد رسول الله، إلى كسرى عظيم فارس: سلام على من اتّبع الهدى... وأدعوك بدعاية الله، فإنّي أنا رسول الله إلى الناس كافّة، لأنذر من كان حيّاً، ويحقّ القول على الكافرين، أسلم تسلم؛ فإنْ أبيت، فعليك إثم المجوس**»[4].
- رسالته ﷺ إلى القيصر ملك الروم: «**بسم الله الرحمن الرحيم... إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتّبع الهدى. أمّا بعد. فإنّي أدعوك بالإسلام. أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرّتين، فإن تولّيت؛ فإنّما عليك إثم الأريسيّين**»[5].
- رسالته ﷺ إلى النجاشيّ ملك الحبشة: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، من محمّد رسول الله إلى النجاشيّ ملك الحبشة، إنّي أحمد إليك الله، الملك القدّوس السلام

(1) الشيبانيّ، علّي (ابن الأثير): الكامل في التاريخ، لاط، بيروت، دار صادر، 1386هـ.ش/ 1966م، ج2، ص61.
(2) النيسابوريّ، مسلم: صحيح مسلم، لاط، بيروت، دار الفكر، لات، ج2، ص63.
(3) انظر: الأحمديّ الميانجيّ، علّي: مكاتيب الرسول، ط1، لام، دار الحديث، 1998م، ج1، ص193-223.
(4) م.ن، ج2، ص316.
(5) م.ن، ص390.

المهيمن، وأشهد أنّ عيسى ابن مريم روح الله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ (سورة النساء، الآية 171) البتول الطيّبة، فحملت بعيسى، وإنّي أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وأن تتّبعني وتؤمن بالذي جاءني؛ فإنّي رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمّي جعفراً ومعه نفر من المسلمين، والسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى»[1].

فكتب النجاشيّ إلى رسول الله ﷺ مجيباً: «**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، إلى محمّد رسول الله من النجاشيّ، سلام عليك يا نبيّ الله ورحمة الله وبركاته، الذي لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام. أمّا بعد، فقد بلغني كتابك يا رسول الله في ما ذكرت من أمر عيسى، فوربّ السماء والأرض، إنّ عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثفروقاً (قِمَع التمرة؛ وهي ما يكون على أعلى رأسها)، إنّه كما قلت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقدم ابن عمّك وأصحابك، وأشهد أنّك رسول الله، وقد بايعتك وبايعت ابن عمّك، وأسلمت على يديه لله ربّ العالمين، فإنْ شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله، فإنّي أشهد أنّ ما تقول حقّ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته**»[2].

(1) ابن حبّان، محمّد: كتاب الثقات، ط1، الهند - حيدر آباد الدكن، مؤسّسة الكتب الثقافيّة؛ مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة، 1393هـ.ق، ج2، ص8-9.

(2) م.ن، ص9.

الدرس السادس

البيّنة السادسة
«خاتميّة رسالة القرآن»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يفهم حقيقة خاتميّة رسالة القرآن وأدلّتها.

2 . يشرح أبرز الشبهات المثارة حول خاتميّة القرآن الكريم.

3 . يمتلك القدرة على رد الشبهات المثارة حول القرآن الكريم.

1. خاتميّة رسالة القرآن بدلالة القرآن نفسه:

ورد في القرآن الكريم آيات واضحة الدلالة على خاتميّة رسالة القرآن للرسالات السماويّة، ومن هذه الآيات:

أ. قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[1].

الخاتم بفتح التاء، ما يُختم به؛ كالطابع والقالب؛ بمعنى ما يُطبع به وما يُقلب به. والمراد بكون النبيّ ﷺ خاتم النبيّين عليهم السلام، هو أنّ النبوّة اختتمت به ﷺ، فلا نبيّ بعده. وبما أنّ الرسول عليه السلام هو الذي يحمل رسالة من الله إلى الناس، والنبيّ عليه السلام هو الذي يحمل نبأ الغيب الذي هو الدين وحقائقه؛ فإنّ لازم ذلك أن ترتفع الرسالة بارتفاع النبوّة؛ فإنّ الرسالة من أنباء الغيب، فإذا انقطعت هذه الأنباء انقطعت الرسالة. وعليه، فكونه ﷺ خاتم النبيّين عليهم السلام؛ يستلزم كونه خاتماً للرسل، ورسالته خاتمة الرسالات[2].

ب. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[3].

إتيان الباطل إليه هو وروده فيه، وصيرورة بعض أجزائه أو جميعها باطلاً؛ بأنْ يصير ما فيه من المعارف الحقّة أو بعضها غير حقّة، أو ما فيه من الأحكام والشرائع وما يلحقها من الأخلاق أو بعضها لاغياً لا ينبغي العمل به. والمراد بقوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾

(1) سورة الأحزاب، الآية 40.

(2) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج16، ص325. (بتصّرف)

(3) سورة فصّلت، الآيتان 41-42.

زماناً؛ الحال والاستقبال؛ أي زمان النزول وما بعده إلى يوم القيامة. وهذا العموم مستفاد من إطلاق النفي في قوله: ﴿لَّا يَأْتِيهِ﴾. وعليه فرسالة القرآن خاتمة الرسالات الإلهيّة[1].

ج. قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ﴾[2].

تدلّ الآية على كون القرآن الكريم حجّة من الله وكتاباً له ينطق بالحقّ على أهل الدنيا من لدن نزوله إلى يوم القيامة. وقد قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ ولم يقل: «**لأنذركم بقراءته**»؛ ليفيد أنّ القرآن حجّة على مَنْ سمع لفظه وعرف معناه واهتدى إلى مقاصده، أو فُسِّر له لفظه وقرع سمعه بمضامينه. فليس من شرط كتاب مكتوب إلى قوم أن يكون بلسانهم، بل أن تقوم عليهم حجّته وتشملهم مضامينه. وقد دعا ﷺ بكتابه إلى مصر، والحبشة، والروم، والفرس؛ ولسانهم غير لسان القرآن، وقد كان في مَن آمن به في حياته وقبل إيمانهم؛ سلمان الفارسيّ، وبلال الحبشيّ، وصهيب الروميّ، وعدّة من اليهود؛ ولسانهم غير لسان العرب[3].

د. قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[4].

المراد بتمام الكلمة ظهورها بالدعوة الإسلاميّة بنبوّة محمّد ﷺ، ونزول الكتاب المهيمن على جميع الكتب؛ في مرتبة الثبوت، واستقرارها في مستقرّ التحقّق، بعد ما كانت تسير دهراً طويلاً في مدارج التدريج؛ بنبوّة بعد نبوّة، وشريعة بعد شريعة؛ إلى أن انتهى الأمر إلى الشريعة الإسلاميّة التي تضمّنت كلّ تعاليم الشرائع السابقة، وتعاليم أخرى لم ترد فيها: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ

(1) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج17، ص398. (بتصّرف)
(2) سورة الأنعام، الآية 19.
(3) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج7، ص39-40. (بتصّرف)
(4) سورة الأنعام، الآيتان 114-115.

وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ...﴾[1]، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾[2]. وبذلك يظهر معنى تمام الكلمة؛ وهو انتهاء تدرّج الشرائع من مراحل النقص إلى مرحلة الكمال؛ ومصداقها رسالة الإسلام. وعليه، فرسالة القرآن خاتمة الرسالات السماويّة[3].

وغيرها آيات كثيرة يُستفاد منها خاتميّة رسالة القرآن[4].

2. شبهات حول خاتميّة رسالة القرآن:

أ. **الشبهة الأولى:** القرآن نفسه ينفي خاتميّته للرسالات الإلهيّة، ويشير إلى فتح باب نزول الرسالات إلى يوم القيامة؛ حيث يقول تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[5]؛ بقرينة التعبير بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿يَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ وهو يدلّ على الاستمرار، وكذلك التوكيد الذي يدلّ على التحقّق.

الجواب: إنّ إلقاء نظرة سريعة على سياق الآيات المتّصلة بهذه الآية؛ يفيد أنّها ليست واردة لإنشاء خطاب في ظرف عصر نزول القرآن؛ حتى يلزم منها ما تقدّم، بل هي واردة لحكاية خطاب خاطب به الله تعالى آدم عليه السلام وبنيه، من بعد خلقه وهبوطه إلى الأرض: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَٰكُمۡ ثُمَّ صَوَّرۡنَٰكُمۡ ثُمَّ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ... وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ

(1) سورة الشورى، الآية 13.

(2) سورة الصف، الآيتان 8 - 9.

(3) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج7، ص329-330. (بتصرّف)

(4) انظر: قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (سورة سبأ، الآية 28)؛ ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ...﴾ (سورة المائدة، الآية 48)؛ ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ (سورة الفرقان، الآية 1)؛ ...

(5) سورة الأعراف، الآية 35.

حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ... فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ... يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ... يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[1]. وقد ورد مضمون هذا الخطاب في مواضع أخرى من القرآن بعد ذِكْر قصّة آدم عليه السلام وهبوطه إلى الأرض؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[2]، ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾[3].

كما ورد مضمون هذه الآية في سياق خطاب احتجاجيّ على جميع الأمم في ظرف يوم القيامة: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ﴾[4]؛ وهو موافق لخطاب الآية الواردة في سورة الأعراف؛ وبذلك يظهر أنّ ظرف الخطاب فيها هو ظرف خلق آدم عليه السلام وهبوطه إلى الأرض، وليس ظرف نزول القرآن.

(1) سورة الأعراف، الآيات 11-36.
(2) سورة البقرة، الآيتان 38-39.
(3) سورة طه، الآيتان 123-124.
(4) سورة الأنعام، الآية 130.

أضف إلى ذلك أنّ آية سورة الأعراف ليست ناظرة إلى بيان مجيء الرسل وتتابعهم بعد عصر نزول القرآن، بل هي بصدد بيان أنّ المؤمن والعامل بما يأمر به الرسول والنبيّ في عصره هو المفلح يوم القيامة.

ب. **الشبهة الثانية:** ورد في القرآن الكريم أنّ لكلّ أمّة رسولاً: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[1]، وأنّ لكلّ أمّة أجلًا محدوداً: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[2]؛ وهذا معناه أنّ أمّة الإسلام هي أمّة محدودة زماناً؛ وبذلك فإنّ رسالة الإسلام ليست باقية إلى يوم القيامة.

الجواب: إنّ مراجعة السياق القرآنيّ لهاتين الآيتين: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يفيد أنّه بصدد بيان سنّة إلهيّة جارية في الهداية؛ وهي إرسال رسل إلهيّين إلى الجماعات البشريّة؛ ليحتجّوا عليهم بالإنذار والتبشير؛ فمن يعرض عن التذكرة؛ فإنّ له أجلاً لا يستطيع أن يحيد عنه، وهو بالغه لا محالة. فالآيات ناظرة إلى ذلك؛ بقرينة السياق، وليست ناظرة إلى أنّ هناك أمداً محدّداً لهذه الرسالات.

ج. **الشبهة الثالثة:** إنّ مقتضى قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾[3]، هو نزول دين لاحق على الإسلام؛ بقرينة أنّ القرآن أعلن عن

(1) سورة يونس، الآية 47.
(2) سورة يونس، الآية 49.
(3) سورة النور، الآية 25.

تمام رسالته وكمالها في آخر آية نزلت منه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[1]، وبقرينة قوله تعالى: ﴿يُوَفِّيهِمُ﴾؛ وهو ظاهر في ظرف الاستقبال. لذا، فإنّ هذه الآية تشير إلى نزول دين آخر لاحق على دين الإسلام.

الجواب: إنّ لفظ «الدين» من المشتركات اللفظيّة في اللغة العربيّة وفي الاستعمال القرآنيّ؛ حيث ورد بمعنى الجزاء والطاعة، ويوم الحساب والقيامة، والشريعة والطريقة. ولتعيين المراد من هذه المعاني، لا بدّ من الرجوع فيه إلى قرينة معينة. وبمراجعة سياق هذه الآية يتّضح أنّ المراد من الدين في هذه الآية هو خصوص الجزاء الأخرويّ الذي أخبرهم الله تعالى عنه ووعدهم به؛ وإخباره ووعده تعالى حقّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾[2].

(1) سورة المائدة، الآية 3.
(2) سورة النور، الآيات 23-25.

الأفكار الرئيسة:

1. كون النبيّ ﷺ خاتم النبيّين عليهم السلام؛ يستلزم كونه خاتماً للرسل عليهم السلام، ورسالته خاتمة الرسالات.
2. صرّح القرآن بأنّه لا يأتيه الباطل من زمن نزوله إلى يوم القيامة؛ وهذا دليل على خاتميّة رسالته.
3. القرآن حجّة على مَنْ سمع لفظه وعرف معناه واهتدى إلى مقاصده، أو فُسِّر له لفظه وقرع سمعه بمضامينه، فليس من شرط كتاب مكتوب إلى قوم أن يكون بلسانهم، بل أن تقوم عليهم حجّته وتشملهم مضامينه.
4. بنزول القرآن تمّت الكلمة؛ وهي الشرائع الإلهيّة. وتمام الكلمة يستلزم خاتميّة رسالة القرآن.
5. أثيرت شبهات حول خاتميّة رسالة القرآن، تدّعي عدم خاتميّته بشهادة بعض آياته. وهي شبهات واهية باطلة بأدنى تأمّل في هذه الآيات.

فكّر وأجب:

1. اذكر دليلاً على خاتميّة رسالة القرآن
2. هل يستفاد من قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ فتح باب نزول الرسالات بعد القرآن؟ بيّن ذلك
3. ورد في القرآن أنّ لكلّ أمّة رسولاً، وأنّ لكلّ أمّة أمداً محدوداً؛ فهل يدلّ ذلك على عدم خاتميّة رسالة القرآن؟ بيّن ذلك.

مطالعة:

خاتميّة رسالة القرآن بدلالة السنّة الشريفة:

وردت في السنّة الشريفة مجموعة من الأحاديث الصريحة في خاتميّة النبوّة؛ وبالتالي، فهي بالالتزام تشهد على خاتميّة الرسالة؛ لأنّه لا رسالة من دون نبوّة، ومن هذه الأحاديث:

- حديث المنزلة: عن رسول الله ﷺ في حقّ الإمام عليّ عليه السلام: «أَنْتَ مِنِّي بمنزلة هارونَ من موسى، إِلَّا أَنَّه لا نَبِيَّ بَعْدي»[1].
- وعنه ﷺ: «إنّ مَثَلي وَمَثَلَ الأنبياء من قبل، كمثَل رجل بنى بيتاً، فأحسنه وأجمله إلّا موضع لَبِنَةٍ من زاوية، فجعل الناسَ يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلّا وضعت هذه اللَّبنة. قال ﷺ: فأنا اللَّبنة، وأنا خاتم النبيّين»[2].
- وعنه ﷺ: «لي خمسة أسماء: أنا محمّد، وأحمد. أنا الماحي؛ يمحو اللَّه بي الكفر. وأنا الحاشر؛ يُحشر الناس على قدمي. وأنا العاقب؛ الذي ليس بعده نبيّ»[3].
- وعنه ﷺ: «أُرسلت إلى الناس كافّة، وبي خُتِمَ النبيّون»[4].
- وعنه ﷺ: «فُضّلت بِستّ: أُعطيتُ جوامِعَ الكَلِم، ونُصِرْتُ بالرُّعب، وأُحلّت لي الغنائم، وجُعِلَتْ لي الأَرضُ مسجداً وطهوراً، وأُرْسِلْتُ إلى الخَلْقِ كافّة، وخُتم بي النبيّون»[5].
- عن الإمام عليّ عليه السلام: «... إلى أَنْ بَعَثَ اللَّه مُحمّداً ﷺ، لإنجاز عِدَته، وتمام نُبُوَّته، مأخوذاً على النبيّين ميثاقُه، مشهورةً سِماتُه، كريماً ميلادُه»[6].
- وعنه عليه السلام: «أَرسَلَهُ على حين فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسل، وتنازُع من الألسن؛ فَقَفّى به الرسل، وختم به الوحي»[7].

(1) انظر: المجلسي، بحار الأنوار، م.س، ج37، باب53، ص254-273.
(2) ابن حنبل، مسند أحمد، م.س، ج2، ص398.
(3) المجلسّي، بحار الأنوار، م.س، ج16، باب6، ح43، ص114.
(4) ابن سعد، محمّد: الطبقات الكبرى، لا.ط، بيروت، دار صادر، لا.ت، ج1، ص192.
(5) ابن حنبل، أحمد: مسند أحمد، لا.ط، بيروت، دار صادر، لا.ت، ج2، ص412.
(6) الشريف الرضّي، نهج البلاغة، م.س، ج1، الخطبة1، ص24.
(7) م.ن، الخطبة235، ص228.

- وعنه عليه السلام؛ وهو يلي غسل رسول اللّه بعد ارتحاله صلى الله عليه وآله وسلم: «بأبي أنتَ وأُمّي، لقد انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك، من النُّبوّة والإنباء، وأخبار السماء، خصّصت حتى صرت مُسَلّياً عمّن سواك، وعَمَمْتَ حتى صار الناس فيك سواءً»[1].
- وعنه عليه السلام: «أمّا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم فخاتم النبيّين، ليس بعده نبيّ ولا رسول، وختم برسول اللّه الأنبياء إلى يوم القيامة»[2].

(1) الشريف الرضّي، نهج البلاغة، م.س، ج2، الخطبة133، ص16.

(2) الطبرسّي، أحمد بن علي: الاحتجاج، تعليق وملاحظات: محمّد باقر الخرسان، لا.ط، النجف الأشرف، دار النعمان، 1386هـ.ق/ 1966م، ج1، ص220.

الدرس السابع

البيّنة السابع
«شموليّة رسالة القرآن»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يعرف حقيقة شموليّة رسالة القرآن وخصائص منهجه.

2 . يشرح أبرز الشبهات حول شموليّة رسالة القرآن ويدحضها بالدليل.

3 . يرد أبرز الشبهات حول رسالة القرآن.

1. القرآن منهاج الحياة:

يشتمل القرآن الكريم على أتمّ مناهج الحياة وأكملها؛ بما يحويه من تعاليم ومعارف من شأنها البلوغ بالإنسانيّة إلى السعادة والكمال في الدنيا والآخرة: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[1]. وقد تضمّن القرآن أصولًا من المعارف الاعتقاديّة والأخلاقيّة والتشريعيّة تتكفّل بهداية الإنسان الفرد والمجتمع إلى ما فيه صلاحهما وفلاحهما: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾[2]، ﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ﴾[3].

ويكمن اشتمال القرآن الكريم على أتمّ المناهج الحياتيّة وأكملها؛ بمراعاته مجموعة من الأمور الحاكمة على الحياة الإنسانيّة وحركتها؛ أبرزها الآتية:

أ. السعادة غاية حركة الإنسان:

يهدف كلّ إنسان في هذه الحياة الدنيا للحصول على السعادة بفطرته. ولكنْ يختلف البشر في تحديدها وتشخيص مصداقها الخارجيّ، فبعضٌ يظنّ السعادة في جمع المال، وآخر في الحصول على الجاه والمنصب، وغيرهم في تحقيق الشهرة...؛ وكلّها عناوين لا تلبّي نداء الفطرة المنجذبة نحو الكمال؛ لأنّها أشياء يشوبها النقص والزوال والفساد.

والواقع أنّ السعادة الحقّة التي تليق بذات الإنسان وتستجيب لنداء فطرته، لا

(1) سورة إبراهيم، الآية 1.
(2) سورة الإسراء، الآية 9.
(3) سورة النحل، الآية 89.

تتحقّق إلا في نشأة خالية من المكدّرات والمنغّصات؛ وهي النشأة الأخرويّة: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾[1]، ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾[2].

ب. سنّة الامتحان والابتلاء الإلهيّ للإنسان:

لا بدّ للإنسان حتى يصل باختياره وإرادته إلى مبتغاه من السعادة، من إيجاده في نشأة أرضيّة دنيويّة يُمحتن فيها ويُبتلى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾[3]، ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾[4]؛ حتى يخرج استعداده للكمال والسعادة المستعدّ لها في أصل خلقته، من حيّز القوّة إلى حيّز الفعليّة؛ ولا يتحقّق له ذلك إلا بالاعتقاد الحقّ والعمل الصالح؛ وهما ملاك الحياة الأخرويّة الأبديّة: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾[5]، ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[6].

ج. ضرورة وضع نظام للحياة الإنسانيّة:

إنّ الإنسان في سيره الدنيويّ نحو مبتغاه من السعادة والكمال مدفوعاً بمقتضى فطرته؛ يحتاج إلى من يبيّن له معالم طريق الكمال، وإلى من يضبط له سيره ويرشّده؛ وهو في كلا الأمرين يحتاج إلى أمر خارج عن ذاته؛ لأنّه غير عالم تفصيلاً بحقيقة الحياة الإنسانيّة وأسرارها، وليس بمقدوره وضع نظام أو قانون يضبط الحياة الإنسانيّة؛ لأنّه محكوم بحكم فطرته التي تميل به نحو الانجذاب لطلب المنافع والنفور والفرار من المضارّ؛ ولن يتمكّن من وضع قانون أو نظام يكون متجرّداً في وضعه عن النفع الذاتيّ الراجع له؛ بما يؤدّي إلى حرمان الآخرين. وعليه، يحتاج الإنسان إلى قانون ونظام من خارج نفسه.

ولذلك أنزل الله تعالى الدين نظاماً للبشريّة فيه تفاصيل طريق السعادة والكمال، وما

(1) سورة الأعلى، الآية 17.
(2) سورة العنكبوت، الآية 64.
(3) سورة الملك، الآية 2.
(4) سورة الأنبياء، الآية 35.
(5) سورة العصر، الآيتان 2-3.
(6) سورة النجم، الآيات 39.

يحتاجون إليه لاستقامة حياتهم الدنيويّة الاجتماعيّة التي هي ظرف لتكاملهم: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

د. ضرورة موافقة القوانين للفطرة الإنسانيّة:

ينبغي أن تكون القوانين والأنظمة والآداب الإلهيّة موافقة للفطرة السليمة؛ بحيث ينجذب إليها الإنسان بخِلقته وجِبلّته: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[2]؛ وإلاّ فلن يتحرّك لامتثالها؛ بما يؤدّي إلى نقض الغرض من وضعها.

وقد يتبادر سؤال مفاده: لماذا يستثقل الإنسان بعض التكاليف الإلهيّة؛ كالصوم والجهاد والخمس والزكاة؟! أليست موافقة للفطرة؟!

ويكمن الجواب في أنّ الإنسان يتعامل مع الأشياء بمقتضى فطرته من الانجذاب إلى الكمال والنفور من النقص، وهو في نشأته الدنيويّة يتعلّق ببعض الأمور التي يجد فيها ظاهراً منفعة سهلة التحصيل، ويستثقل بعض الأمور التي يجد فيها ظاهراً مضرّة له. فإذا ما دقّق النظر وجد أنّ ما تعلّق به من منفعة ظاهرة ليست دائمة ولا مستمرّة، وأنّ ما فرّ منه من نقص ظاهر ليس نقصاً حقيقيّاً، بل هو معبر وطريق لنيل منفعة دائمة لا نفاد لها ولا زوال.

ولذلك، قد يجد الإنسان في امتثال تكاليف الصوم والجهاد والخمس والزكاة، عناءً وتعباً ومشقّة ونقصاً في نظرته البدوية، ولكنّه لو دقّق النظر والتفت إلى ما يترتّب على امتثال هذه التكاليف من منافع حقيقيّة بيّنها الشارع الكريم؛ لاندفع لامتثالها بمقتضى فطرته؛ طلباً للكمال والسعادة الحقيقيّين.

(1) سورة البقرة، الآية 213.
(2) سورة الروم، الآية 30.

2. خصائص المنهج القرآنيّ:

يحتوي القرآن الكريم على نظام الدين بأبعاده الثلاثة؛ العقديّة والقيميّة والتشريعيّة؛ حيث هدى الله تعالى الإنسان إليها بفطرته: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وأرشده إليها بعقله وحواسّه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1]، ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[2]؛ فكانت معرفته تعالى أساس منهج الحياة الحقيقيّة للإنسان، والاعتقاد بوحدانيّته أوّل الأصول الدينيّة والاعتقاديّة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[3]. ومن طريق معرفته تعالى دلّه على المعاد، والاعتقاد بيوم القيامة؛ الذي يُجازى فيه المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، وجعله أصلاً اعتقاديّاً ثانياً: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ﴾[4]، ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾[5]. ثمّ من طريق الاعتقاد بالمعاد دلّه على معرفة النبيّ عليه السلام؛ لأنّ الجزاء على الأعمال لا يمكن إلّا بعد معرفة الطاعة والمعصية والحسن والسيّئ. ولا تتأتّى هذه المعرفة إلّا من طريق الوحي والنبوّة، وجعل هذا أصلاً اعتقاديّاً ثالثاً: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[6].

---

(1) سورة فصّلت، الآية 53.
(2) سورة الذاريات، الآيتان 20-21.
(3) سورة الإخلاص، الآيات 1-4.
(4) سورة الحج، الآيتان 6 - 7. وانظر: سورة المؤمنون، الآيات 12-16.
(5) سورة فصّلت، الآية 54.
(6) سورة البقرة، الآية 213.

وعدّ القرآن الكريم هذه الأصول الاعتقاديّة: الاعتقاد بالتوحيد، والنبوّة التي يتفرّع منها الإمامة، والمعاد الذي يتفرّع منه العدل، أصول الاعتقاد في الدين الإسلاميّ.

وبعد هذا، بيّن أصول القيم والأخلاق المرضيّة والصفات الحسنة، التي لا بدّ من أن يتحلّى بها كلّ إنسان مؤمن. ثمّ شرّع له الأصول والقوانين والأنظمة العمليّة الّتي تضمن سعادته الحقيقيّة، وتنمّي فيه الأخلاق الطيّبة. وقد جعل الله تعالى كلّاً من الأصول القيميّة والأصول التشريعيّة، منسجمة مع الأصول الاعتقاديّة ومرتكزة عليها، ولا سيّما في مقام الالتزام العمليّ للمكلّف؛ بما يؤدّيه كلّ من الوعد والوعيد الأخرويّ؛ بالاستناد إلى هذه الأصول الاعتقاديّة، من دور تحفيزيّ أو ردعيّ للمكلّف في مقام امتثال الأوامر الإلهيّة، أو الارتداع عن النواهي الإلهيّة في ظرف التكليف الإلهيّ[1].

3. شبهات حول شموليّة رسالة القرآن:

أ. **الشبهة الأولى:** إنّ الاجتماع البشريّ محكوم بسنّة التغيّر والتبدّل؛ بتغيّر الزمان والمكان. وعليه فلا معنى لوضع قانون أو شريعة شاملة لكلّ الموضوعات؛ نظراً لتبدّل الموضوعات؛ وبالتالي سوف تتبدّل الأحكام تبعاً لتبدّلها. وهذا ينفي شموليّة رسالة القرآن.

الجواب: إنّ الحياة البشريّة محكومة بمجموعة كبيرة من الثوابت على مستوى الرؤية الكونيّة والأخلاق والقيم والتشريع. وعليه، فإنّ تبدّل الزمان والمكان لا يغيّر في مواضيع هذه التعاليم ومتعلّقاتها. فعلى سبيل المثال: إنّ الظلم محكوم بالقبح والعدل محكوم بالحسن على اختلاف الزمان والمكان. وقد تكفّل القرآن الكريم ببيان أحكام هذه الموضوعات وتعاليمها.

ب. **الشبهة الثانية:** إنّ تطوّر الحياة البشريّة سوف يؤدّي إلى ظهور موضوعات كثيرة جديدة تفوق قدرة أيّ قانون أو نظام على مواكبتها؛ إذ كيف يمكن للمحدود من القوانين والأنظمة أن يواكب اللامتناهي من الموضوعات والوقائع المستجدّة؟!

(1) الطباطبائيّ، محمد حسين: القرآن في الإسلام، تعريب: أحمد سامي وهبي، ط1، بيروت، دار الولاء، 2001م/ 1422هـ.ق، ص13-23. (بتصرّف)

الجواب: إنّ أحكام القرآن وتعاليمه صالحة لمواكبة متغيّرات الزمان والمكان؛ لأنّها تتمتّع بخاصّيّتي الحيويّة والمرونة.

وتتجلّى خاصّيّة المرونة بملاحظة ما أعطاه القرآن الكريم من حجّيّة في الأمور الآتية:

- حجّيّة العقل في مجال التشريع، كما في باب الملازمات، والمسائل الراجعة إلى حكم العقل بالحسن والقبح.
- تبعيّة الأحكام للمصالح والمفاسد؛ فلا حرمة لفعل إلا لمفسدة في اقترافه، ولا فرض لفعل إلا لمصلحة في الإتيان به. والمراد بالمصالح والمفاسد الأعمّ من الدنيويّة والأخرويّة.
- حجّيّة السنّة الشريفة في تفصيل ما أجمل بيانه في القرآن من تشريعات.
- فتح باب الاجتهاد والاستنباط من مصادر التشريع (القرآن/ السنّة/ العقل).
- مراعاة المصلحة في التشريعات الراجعة إلى إدارة المجتمع من قبل الحاكم الإسلاميّ.

وأمّا خاصّيّة المرونة، فتتجلّى في الأمور الآتية:

- النظر إلى المعاني دون الظواهر وعدم الجمود عليها.
- وجود قوانين حاكمة على قوانين أخرى؛ كقاعدة «لا ضرر»، وقاعدة «نفي الحرج».
- وسطيّة رسالة القرآن في تشريعاتها ومراعاتها لمقتضى الفطرة الإنسانيّة.

الأفكار الرئيسة:

1. يشتمل القرآن الكريم على أتمّ مناهج الحياة وأكملها؛ بما يحويه من تعاليم ومعارف من شأنها البلوغ بالإنسانيّة إلى السعادة والكمال في الدنيا والآخرة.
2. يكمن اشتمال القرآن الكريم على أتمّ المناهج الحياتيّة وأكملها؛ بمراعاته مجموعة من الأمور الحاكمة على الحياة الإنسانيّة وحركتها؛ أبرزها الآتية: إنّ السعادة غاية حركة الإنسان، سنّة الامتحان والابتلاء الإلهيّ للإنسان، ضرورة وضع نظام للحياة الإنسانيّة، ضرورة موافقة القوانين للفطرة الإنسانيّة، . . .
3. يحتوي القرآن الكريم على نظام الدين بأبعاده الثلاثة؛ العقديّة والقيميّة والتشريعيّة.
4. أثيرت مجموعة من الشبهات حول شموليّة رسالة القرآن ومواكبتها لمقتضيات الزمان والمكان، يمكن دحضها وإبطالها بأدنى تأمّل في خصائص القرآن الكريم.

فكّر وأجب:

1. بيّن كيفيّة اشتمال القرآن الكريم على أتمّ المناهج الحياتيّة.
2. ما هي خصائص المنهج القرآنيّ؟
3. تكلّم عن خصوصيّة مواكبة القرآن الكريم لتطوّرات الحياة البشريّة ومتغيّرات الزمان والمكان.

مطالعة:

شموليّة القرآن بدلالة السنّة الشريفة:

وردت في السنّة الشريفة روايات كثيرة، يستفاد منها شموليّة القرآن؛ منها:

- ما رُوي عن الإمام عليّ عليه السلام: «**وكتاب الله بين أظهركم ناطق لا يعيى لسانه، وبيت لا تُهدم أركانه، وعزّ لا تهزم أعوانه... كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض، ولا يختلف في الله، ولا يخالف بصاحبه عن الله**»[1].
- سأل الفُضَيل بن يسار الإمام أبا جعفر الباقر عليه السلام عن الحديث المعروف: ما من آية إلاّ ولها ظهر وبطن، وما فيه حرف إلاّ وله حدّ يطلع(ومطلع)، ما يعني بقوله: لها ظهر وبطن؟ قال عليه السلام: «**ظهر وبطن هو تأويلها، منه ما قد مضى، ومنه ما لم يجئ، يجري كما تجري الشمس والقمر، كلّما جاء فيه تأويل شيء منه، يكون على الأموات، كما يكون على الأحياء، كما قال الله تعالى:** ﴿... وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ... ﴾، **ونحن نعلمه**»[2].
- وعنه عليه السلام: «**ولو أنّ الآية نزلت في قوم، ثمّ مات أولئك القوم ماتت الآية، لَمَا بقي من القرآن شيء، ولكنّ القرآن يجري أوّله على آخِره ما دامت السماوات والأرض، ولكلّ قومٍ آية يتلونها، هُم منها من خير أو شرّ**»[3].
- ما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ العزيز الجبّار أنزل عليكم كتابه؛ وهو الصادق البارّ؛ فيه خبركم، وخبر من قبلكم، وخبر من بعدكم، وخبر السماء والأرض، ولو أتاكم من يخبركم عن ذلك لتعجّبتم**»[4].

---

(1) الشريف الرضّي، نهج البلاغة، م.س، ج2، الخطبة 133، ص17.

(2) الصفّار، محمد بن الحسن: بصائر الدرجات، تصحيح وتعليق وتقديم: حسن كوچه باغي، لا.ط، طهران، مؤسّسة الأعلمي؛ مطبعة الأحمدي، 1404هـ.ق/ 1362هـ.ش، ج4(القسم الرابع)، باب10، ح2، ص223.

(3) العيّاشي، محمّد بن مسعود: تفسير العيّاشي، تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي، لا.ط، طهران، المكتبة العلميّة الإسلاميّة، لا.ت، ج1، باب في ما أنزل من القرآن، ح7، ص10.

(4) الكلينيّ، الكافي، م.س، ج2، كتاب فضل القرآن، ح3، ص599.

- ما رُوي عنه عليه السلام أيضاً: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: القرآن هدى من الضلالة، وتبيان من العمى، واستقالة من العثرة، ونور من الظلمة، وضياء من الأحداث، وعصمة من الهلكة، ورشد من الغواية، وبيان من الفتن، وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة؛ وفيه كمال دينكم، وما عدل أحد عن القرآن إلّا إلى النار**»[1].

(1) الكلينيّ، الكافي، م.س، ج2، كتاب فضل القرآن، ح8، ص600-601.

الدرس الثامن

البيّنة الثامنة
«إعجاز القرآن الكريم»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يعرف معنى الإعجاز وأركانه.

2 . يفهم حقيقة انطباق معنى الإعجاز وأركانه على القرآن الكريم وخصوصيّة إعجازه.

3 . يستدل من القرآن على عجز الإنس والجن على الإتيان بمثله.

1. معنى الإعجاز وأركانه:

المُعْجِز هو: الأمر الخارق للعادة، المطابق للدعوى، المقارن لها، المقرون بالتحدّي، مع العجز عن الإتيان بمثله[1].

وبالتأمّل في هذا التعريف، نجده يحتوي على خمسة عناصر تشكّل أركان المعجزة؛ وهي:

-أمر خارق للعادة
-المطابقة لدعوى النبوّة والرسالة
-الاقتران زماناً مع دعوى النبوّة والرسالة
-الاقتران بالتحدّي
-العجز عن الإتيان بمثله

2. القرآن مصداقٌ للأمر المُعجِز:

إنّ إثبات إعجاز أمر ما يكمن في النظر فيه لجهة اشتماله على عناصر المعجزة المتقدّمة. وعليه، فلا بدّ من النظر في القرآن الكريم لجهة اشتماله على هذه العناصر؛ حتى يتبيّن لنا أنّه أمر معجز. وبيان ذلك في الآتي:

أ. العنصر الأوّل: أمر خارق للعادة:

إنّ المتأمّل في القرآن الكريم يجده خارقاً لما اعتاده الناس من الكلام؛ على اختلاف خصائصه اللفظيّة والصوتيّة والأسلوبيّة والنظميّة والمعنائيّة...، وما ينطوي عليه من حقائق ومعارف شاملة وتامّة وكاملة، بحيث لم يعتد الناس احتواءها في كلام من دون أن

(1) لمزيد من التفصيل في التحديدات اللغويّة والاصطلاحيّة للأمر المُعجِز؛ انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، م.س، ج4، مادّة «عجز»، ص232؛ الطريحيّ، فخر الدين: مجمع البحرين، ط2، طهران، نشر مرتضوي؛ مطبعة چاپخانهء طراوت، 1362هـ.ش، مادّة «عجز»، ج4، ص25؛ الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص58-87؛ الخوئيّ، أبو القاسم: البيان في تفسير القرآن، ط4، بيروت، دار الزهراء، 1395هـ.ق/ 1975م، ص33-34.

يعتريه نقص أو خلل ما: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾[1]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[2].

ب. العنصر الثاني: المطابقة لدعوى النبوّة والرسالة:

إنّ التاريخ - وكذلك الواقع - يشهد من دون أدنى شكّ ولا ريب، على أنّ القرآن الذي أنزله الله تعالى على رسوله الأكرم ﷺ، ينسجم تمام الانسجام مع ما صدح به ﷺ من تعاليم، وما كشف عنه من حقائق، ودعا إليه من اعتقاد وعمل، وصدر عنه من تبشير وإنذار. وقد تكلّم القرآن الكريم نفسه عن هذه المطابقة بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[3]، ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾[4].

ج. العنصر الثالث: الاقتران زماناً مع دعوى النبوّة والرسالة

إنّ التاريخ يشهد من دون أدنى شكّ ولا ريب، بأنّ الرسول الأكرم ﷺ عندما أعلن عن رسالته الإلهيّة أفصح عن هذه الرسالة للناس وبيّن لهم نصّها ومضمونها؛ من خلال تلاوتها عليهم وتفسيرها لهم؛ بنحو مقارن لدعواه الرسالة.

وقد بيّن القرآن نفسه ذلك؛ حيث أمر النبيّ ﷺ منذ أوّل البعثة الشريفة بقراءة القرآن وتلاوته وتفسيره للناس: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾[5]، ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ

(1) سورة النحل، الآية 89.
(2) سورة النساء، الآية 82.
(3) سورة النجم، الآيتان 3-4.
(4) سورة الحاقّة، الآيات 40-47.
(5) سورة العلق، الآية 1.

لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]، ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[2]. فلم يسبق نزول القرآن وإظهاره للناس على ظهور دعوى الرسالة فيهم: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[3]، ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[4]، وكذلك لم يتأخّر عنها: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[5].

د. العنصر الرابع: الاقتران بالتحدّي:

تحدّى القرآن بكلامه الإنس والجنّ، ومن بينهم العرب الذين بلغوا مبلغاً لم يذكره التاريخ لواحدة من الأمم المتقدّمة عليهم أو المتأخّرة عنهم، ووطئوا موطئاً لم تطأه أقدام غيرهم؛ في كمال البيان، وجزالة النظم، ووفاء اللفظ، ورعاية المقام، وسهولة المنطق[6]. وقد ورد هذا التحدّي في القرآن ضمن خمس آيات؛ هي بحسب ترتيب نزولها وفق الترتيب الآتي:

- ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[7].
- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[8].
- ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[9].

(1) سورة النحل، الآية 44.
(2) سورة القيامة، الآيات 16-19.
(3) سورة يونس، الآية 16.
(4) سورة العنكبوت، الآية 48.
(5) سورة الإسراء، الآية 106.
(6) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص68. (بتصّرف)
(7) سورة الإسراء، الآية 88.
(8) سورة يونس، الآية 38.
(9) سورة هود، الآية 13.

- ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾[1].
- ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾[2].

وبالتأمّل في هذه الآيات، نلاحظ بعض الخصوصيّات المتعلّقة بهذا التحدّي[3]؛ وهي:

- الآيات الأربع الأولى آيات مكيّة، والآية الأخيرة آية مدنية.
- تدلّ آيات التحدّي جميعها على أنّ القرآن آية معجزة خارقة من عند الله تعالى.
- التحدّي في الآيات عامّ لكلّ ما يتضمّنه القرآن الكريم من معارف حقيقيّة، وحجج وبراهين ساطعة، ومواعظ حسنة، وأخلاق كريمة، وشرائع إلهيّة، وإخبارات غيبيّة، وفصاحة وبلاغة...
- آيات التحدّي مختلفة في العموم والخصوص، ومن أعمّها تحدّياً الآية الأولى.
- إنّ كلّ واحدة من الآيات تؤمّ غرضاً خاصّاً من التحدّي يرجع إلى معانيه السامية ومقاصده العالية، فالآية الأولى واردة مورد التحدّي بجميع القرآن؛ لما جمع فيه من الأغراض الإلهيّة، ويختصّ بأنّه جامع لعامّة ما يحتاج إليه الناس إلى يوم القيامة. والآية الثانية واردة مورد التحدّي بسورة من القرآن؛ لما فيها من بيان غرض تامّ جامع من أغراض الهدى الإلهيّ؛ بياناً فصلاً من غير هزل. والآية الثالثة هي تحدٍّ بعشر من السور القرآنيّة؛ لما في ذلك من التفنّن في البيان والتنوّع في الأغراض من جهة الكثرة، ليظهر به أنّ تنوّع الأغراض القرآنيّة في بيانه المعجز ليس إلّا من قبل الله. والآية الرابعة هي تحدٍّ بما يعمّ التحدّيات الثلاثة السابقة؛ فإنّ الحديث يعمّ السورة والعشر سور والقرآن كلّه؛ فهو تحدٍّ بمطلق الخاصّية القرآنيّة. والآية الخامسة وردت مورد تأبيد التحدّي والتسليم لحقيقة أنّ القرآن كتاب منزل من عند الله لا ريب فيه، إعجازاً باقياً بمرّ الدهور وتوالي القرون.

(1) سورة الطور، الآيتان 33-34.

(2) سورة البقرة، الآيتان 23-24.

(3) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص59، 68؛ ج10، ص162؛ ج10، ص167-170. (بتصّرف)

- إنّ نوع العناية بالتحدّي في الآية الثالثة غير نوع العناية بالتحدّي في الآيات الأخرى؛ ففي هذه الآيات تتعلّق العناية بالتحدّي بعدم قدرتهم على الإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة منه؛ بما أنّه قرآن مشتمل على جهات لا تتعلّق بها قدرة الإنسان ولا يظهر عليها غيره تعالى، وقد أطلق القول فيها إطلاقاً. بينما في الآية الثالثة وبملاحظة تعقيبها بقوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ...﴾؛ فإنّ نوع العناية بالتحدّي، إنّما هو بكون القرآن متضمّناً لما يختصّ علمه بالله تعالى ولا سبيل لغيره إليه. وهذا أمر لا يقبل الافتراء بذاته؛ فكأنّه قيل: إنّ هذا القرآن لا يقبل بذاته افتراءً؛ فإنّه متضمّن لأمور من العلم الإلهيّ الذي لا سبيل لغيره تعالى إليه، وإن ارتبتم في ذلك فأتوا بعشر سور مثله مفتريات تدّعون أنّها افتراء، واستعينوا بمن استطعتم من دون الله، فإن لم تقدروا عليه؛ فاعلموا أنّه من العلم المخصوص به تعالى.
- جاء التحدّي في هذه الآيات بالإتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة أو عشر سور أو حديث منه، ومعنى التحدّي بالمثل أنّ الكلام لمّا كان آية معجزة، فلو أتى إنسان بما يماثله؛ لكفى في إبطال كونه آية معجزة، ولم يحتج إلى الإتيان بما يترجّح عليه في صفاته، ويفضل عليه في خواصّه.

هـ. العنصر الخامس: العجز عن الإتيان بمثله:

طالت مدّة تحدّي القرآن للإنس والجنّ على الإتيان بمثله؛ حتى مع نزول مستوى التحدّي إلى الإتيان بمثل حديث منه، وتمادى زمان الاستنهاض؛ فلم يجيبوه إلا بالتجافي، ولم يزدهم إلا العجز، ولم يكن منهم إلا الاستخفاء والفرار: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[1].

وقد سجّل التاريخ بعض المحاولات لمعارضة القرآن، فكانت مدعاة للعبرة والدهشة، ولم ينتج منها سوى الخسران والخزي، وفي ما يأتي أمثلة من تلك المعارضات[2]:

(1) سورة هود، الآية 5.

(2) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص68؛ الخوئي، البيان في تفسير القرآن، م.س، ص94، 97-98. (بتصّرف)

- عارض مسيلمة الكذّاب سورة الفيل بقوله: «الفيل، ما الفيل، وما أدراك ما الفيل، له ذنب وبيل وخرطوم طويل».
- ادّعى أحد الكتّاب المسيحيّين المعاصرين معارضة القرآن، محاولاً معارضة سورة الحمد من خلال اقتباس جمل من السورة نفسها وتحوير بعض ألفاظها، وجاء بكلام يقول فيه: «الحمد للرحمن، ربّ الأكوان، الملك الديّان، لك العبادة وبك المستعان، اهدنا صراط الإيمان». وقال في معارضته سورة الكوثر: «إنّا أعطيناك الجواهر، فصلّ لربّك وجاهر، ولا تعتمد قول ساحر». حاول هذا الشخص نفسه من خلال تقليده التامّ لنظم الآيات القرآنيّة وصياغتها وتبديل بعض كلماتها، الإيحاء للناس بأنّه قد عارض القرآن. وقبله فعل مسيلمة الكذّاب - أيضاً - في معارضة سورة الكوثر بقوله: «إنّا أعطيناك الجماهر، فصلّ لربّك وهاجر، إنّ مبغضك رجل كافر».

3. خصوصيّة إعجاز القرآن:

إنّ خصوصيّة اختيار الكلام ليكون سرّ إعجاز القرآن، يمكن في المقاربات الآتية:

أ. أبلغ المعجزات أثراً في مقام التصديق والتسليم هو ما شابه منها أرقى فنون العصر، وعجز أهل هذه الفنون وأربابها عن الإتيان بمثلها:

رُوي أنّه سأل ابن السكّيت[1] الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام، فقال: لماذا بعث الله موسى بن عمران عليه السلام بالعصا واليد البيضاء وآلة السحر؟ وبعث عيسى بآلة الطبّ؟ وبعث محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بالكلام والخطب؟ فقال عليه السلام: «إنّ الله لمّا بعث موسى عليه السلام كان الغالب على أهل عصره السحر، فأتاهم من عند الله بما لم يكن في وسعهم مثله، وما أبطل به سحرهم، وأثبت به الحجّة عليهم. وإنّ الله بعث عيسى عليه السلام في وقت قد ظهرت فيه الزمانات[2]، واحتاج الناس إلى الطبّ، فأتاهم من عند الله بما لم يكن عندهم

(1) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الدورقيّ الأهوازيّ الشيعيّ؛ أحد أئمّة اللغة والأدب، ذكره كثير من المؤرّخين وأثنوا عليه، وكان ثقةً جليلاً من عظماء الشيعة، ويُعدّ من خواصّ الإمامين التقيّين عليهما السلام وكان حامل لواء علم العربيّة والأدب والشعر واللغة والنحو، له تصانيف كثيرة مفيدة، منها: كتاب تهذيب الألفاظ، وكتاب إصلاح المنطق.

(2) الآفات الواردة على بعض الأعضاء، فتمنعها عن الحركة؛ كالفالج، واللقوة. ويطلق المزمن على مرض طال زمانه.

مثله، وبما أحيا لهم الموتى، وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله، وأثبت به الحجّة عليهم. وإنّ الله بعث محمداً ﷺ في وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام، فأتاهم من عند الله من مواعظه وحكمه؛ ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجّة عليهم»[1].

ويُفهَم من هذه الرواية أنّ فلسفة تنوّع المعجزات واختيار إحداها لتكون معجزة لنبيّ من الأنبياء عليهم السلام يدور مدار الخاصّيّة الغالبة على أهل عصر مَن يُجري الله تعالى على يديه المعجزة؛ لتكون أبلغ في التأثير، وأظهر في التحدّي، وآكد في تصديق الدعوة.

ب. إنّ دوام التصديق بالدين في كلّ زمان ومكان رهن باستمرار معجزته على اختلاف الزمان والمكان؛ فلمّا كانت رسالة القرآن رسالة عالميّة وخاتمة إلى يوم القيامة؛ فلا بدّ من أن تكون معجزة هذه الرسالة عالميّة وخالدة - أيضاً -؛ على اختلاف الزمان والمكان؛ وبالتالي على اختلاف خصائص البيئات الاجتماعيّة الإنسانيّة.

ولذا، كان الكلام؛ بما يشتمل عليه من خصائص لغويّة وصوتيّة ونظميّة ومعنايّة ومضمونيّة...؛ محلّاً للإعجاز.

ج. تقدّم أنّ نوع العناية بالتحدّي في قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ...﴾؛ هو بكون القرآن متضمّناً لما يختصّ علمه بالله تعالى ولا سبيل لغيره إليه. لذا كان القرآن من العلم المخصوص به تعالى.

(1) الكلينيّ، الكافي، م.س، ج1، كتاب العقل والجهل، ح20، ص24.

الأفكار الرئيسة:

1. الأمر المُعْجِز هو الأمر الخارق للعادة، المطابق للدعوى، المقارن لها، المقرون بالتحدّي، مع العجز عن الإتيان بمثله.
2. القرآن الكريم مصداق لأمر المعجز.
3. تحدّي القرآن عامّ للإنس والجنّ.
4. تحدّي القرآن مؤبّد.
5. التاريخ والواقع شاهدان على إعجاز القرآن الكريم.
6. معجزة القرآن شاملة لجميع جوانب الكلام الأدبيّة واللغويّة والمضمونيّة، وما ينضوي عليه كلام من معارف، وما يتّكىء عليه من حقائق.
7. خصوصيّة إعجاز القرآن أنّه من أبلغ المعاجز وأرقاها في كلّ زمان ومكان، وأنّه يرجع إلى كون القرآن من العلم المخصوص بالله تعالى.

تمارين

1. عرّف الأمر المعجز؛ مبيّناً عناصره.
2. بيّن حقيقة أنّ القرآن مصداق للأمر المعجز.
3. ما هي خصائص إعجاز القرآن الكريم؟

مطالعة:

حكمة كون المعجز للعرب هو القرآن[1]:

وأمّا العرب الذين ابتدأت بهم دعوة الإسلام في حكمة سيرها في الإصلاح، فقد كانت معارفهم نوعاً ما منحصرة بالأدب العربيّ، وكانوا خالين من سائر العلوم والصنائع الخاضعة للعلم والتعلّم. فلم يكونوا يميّزون حدودها العاديّة؛ بحسب موازين العلم والتعلّم وأسرار الطبيعيّات المنقادة بقوانينها للباحث والممارس والمتعلّم والمجرّب والمكتشف، والداخلة تحت سيطرة العلم والتعلّم. فلا يعرفون من الأعمال ما هو خارج عن هذه الحدود وخارق للعادة، ولا يكون إلا بإعجاز إلهيّ.

فكلّ عمل معجز من غير الأدب العربيّ بمجرّد مشاهدتهم له أو سماعهم به، يسبق إلى أذهانهم ويستحكم في حسبانهم أنّه من السحر، أو من مهارة أهل البلاد الأجنبيّة في الصنائع وتقدّمهم في العلوم وأسرار الطبيعيّات وقوانينها. ولا يذعنون بأنّه معجز إلهيّ، بل يسوقهم شكّ الجهل إلى الجحود؛ خصوصاً إذا كان ذلك يحتجّ به النبيّ ﷺ على دعوى ودعوة ثقيلتين على ضلالتهم، باهظتين لعاداتهم الوحشية وأهواء الجهل. نعم، برعوا في الأدب العربيّ وبلاغة الكلام التي تقدّموا فيها تقدّماً باهراً؛ حتى قد زها في عصر الدعوة روضه الخميل، وأينعت حدائقه وفاق مجده، وقرّروا له المواسم، وعقدوا المحافل للمفاخرة بالرقيّ فيه، فرقت بينهم صناعته إلى أوج مجدها، وزهرت بأجمل مظاهرها، وأحاطوا بأطرافها وحدّدوا مقدورها، فعاد المرء منهم جدّ خبير بما هو داخل في حدود القدرة البشريّة، وما هو خارج عنها، ولا يصدر على لسان بشر ابتداءً إلا بعناية إلهيّة خاصّة خارقة للعادة البشريّة لحكمة إلهيّة شريفة. ولذا، اقتضت الحكمة الإلهيّة، «**وللّه الحكمة البالغة**»، أن يكون القرآن الكريم هو المعجز المعنون، الذي عليه المدار في الحجّة لرسالة خاتم النبيّين وصفوة المرسلين عليهم السلام، فإنّه يكون حجّة على العرب بإعجازه ببلاغته وبعجزهم عن الإتيان بمثله أو بسورة من مثله. وبخضوعهم لإعجازه؛ وهم الخبراء في ذلك،

(1) البلاغي، محمد جواد: آلاء الرحمن في تفسير القرآن، لا.ط، بيروت، دار إحياء التراث العربيّ، لا.ت، ج1، ص4-5.

يكون - أيضاً - حجّة على غيرهم في ذلك. وأنّه هو الذي يدخل في حكمة المعجز والإعجاز في شمول الدّعوة للعرب وابتدائها بهم؛ بحسب سيرها الطبيعيّ على الحكمة، وبه تتمّ فائدة المعجز على وجهها.

الدرس التاسع

البيّنة التاسعة
«صيانة القرآن الكريم عن التحريف»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يعرف معنى التحريف في اللغة والاصطلاح.

2 . يستدل على صيانة القرآن عن التحريف بالفعل.

3 . يفهم أدلة صيانة القرآن عن التحريف من السنة الشريفة.

1. معنى التحريف:

التحريف في اللغة هو تغيير معنى الكلمة والعدول بها عن مقصدها الحقيقيّ؛ وهو مختصّ بالتحريف المعنويّ[1].

وفي الاصطلاح، هو وقوع التغيير في ألفاظ القرآن وحروفه وحركاته؛ تبديلاً وترتيباً؛ ونقصاً وزيادةً[2].

وتجدر الإشارة إلى أنّ القرآن لم يستخدم مفهوم التحريف إلا بمعناه اللغويّ، في حين أنّ محور بحث صيانة القرآن عن التحريف يختصّ بالتحريف بمعناه الاصطلاحيّ.

2. أهمية إثبات صيانة القرآن عن التحريف:

إنّ لإثبات صيانة القرآن عن التحريف آثاراً مهمة جدّاً؛ وهي:

- صحّة الاستفادة من القرآن.
- إثبات النبوّة والرسالة.
- صحّة عرض الروايات عليه؛ بوصفه معياراً لصحّتها.

3. صيانة القرآن عن التحريف بدلالة العقل والشرع:

يمكن تقريب صيانة القرآن عن التحريف من خلال مقدّمات عقليّة وشرعيّة؛ هي:

أ. إنّ القرآن كتاب هداية للعالمين: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[3]،

(1) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، م.س، ج2، مادّة «حرف»، ص42-43؛ الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن، م.س، مادّة «حرف»، ص228-229.

(2) انظر: الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج12، ص108؛ الخوئي، البيان في تفسير القرآن، م.س، ص198-190.

(3) سورة البقرة، الآية 2.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾[1].

ب. القرآن كتاب خاتم، كما أنّ الرسول ﷺ رسول خاتم: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[2]، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾[3].

ج. إذا حُرّف القرآن يترتّب على ذلك إضلال الناس.

د. مقتضى حكمة الله تعالى أن ينزّل كتاباً آخر ويُرسل رسولاً آخر؛ وهذا يلزم منه: إمّا تكذيب الله سبحانه وتعالى؛ لأنّه أخبر بأنّ الرسول ﷺ هو خاتم الرسل ورسالته خاتمة الرسالات، وإمّا نسبة الجهل إليه جلّ وعلا، على فرض اكتشافه ضرورة إرسال نبيّ آخر ورسالة أخرى.

النتيجة: إذن، القرآن لم يحرَّف.

3. صيانة القرآن عن التحريف بدلالة القرآن الكريم:

وردت في القرآن الكريم آيات عدّة يستفاد منها صيانة القرآن عن التحريف، أبرزها الآتية:

أ. قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[4]:

من أجمع الأوصاف التي يذكرها القرآن لنفسه أنّه ذِكْر لله؛ فإنّه يذكِّر به تعالى؛ بما أنّه آية دالّة عليه؛ حيّة خالدة. وتفيد هذه الآية أنّ الله تعالى هو حافظ هذا القرآن في مرحلتي التنزيل والبقاء، إذ أُطلِقَ الذِكْر وأُطلِقَ الحِفظ؛ فالقرآن محفوظ بحفظ الله عن كلّ زيادة ونقيصة وتغيير في اللفظ أو في الترتيب، يزيله عن الذِكريّة ويُبطِل كونه ذكراً لله سبحانه بوجه. وقد وُضِعَت كلّ عوامل التأكيد بعضها إلى جانب بعضها الآخر؛ لبيان هذه الحقيقة المهمّة والخالدة[5].

(1) سورة إبراهيم، الآية 1.
(2) سورة المائدة، الآية 3.
(3) سورة الأحزاب، الآية 40.
(4) سورة الحجر، الآية 9.
(5) انظر: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج12، ص106؛ الخوئي، البيان في تفسير القرآن، م.س، ص207-209.

ب. قوله تعالى: ﴿... وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ...﴾[1].

المراد بالعزيز: عديم النظير، أو المنيع الممتنع من أن يُغلَب. والمعنى الثاني أنسب؛ لما يعقبه من قوله تعالى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ...﴾. فلا تناقض في بيانات القرآن، ولا كذب في أخباره، ولا بطلان يتطرّق إلى معارفه وحكمه وشرائعه، ولا يُعارَض ولا يُغيَّر بإدخال ما ليس منه فيه، أو بتحريف آية من وجه إلى وجه. وكيف لا يكون كذلك، وهو منزَّل من حكيم متقِن في فعله، لا يشوب فعله وهن، محمود على الإطلاق؟! فهذه الآية تنفي أيّ احتمال للتحريف بالزيادة أو التحريف بالنقصان، وتشير إلى أنّ خاصّيّة الحفظ جاءت من داخل القرآن؛ بفعل تماسك بنيانه[2].

وغيرهما آيات كثيرة تدلّ على صيانة القرآن عن التحريف[3].

وقد يتبادر هذا الإشكال: بأنّ الاستدلال بالقرآن على عدم حصول تحريف في القرآن، لا يصحّ إلا إذا ثبت أنّ ما يُستدلّ به من آيات هي من القرآن، فمن أين نعلم أنّها من القرآن، وأنّها ليست محرّفة؟

ويُجاب عنه:

- إنّ مدّعي التحريف من المسلمين لا يذهب إلى القول بالتحريف بالزيادة. وعليه، فإنّ عدم الزيادة في القرآن أمر متّفق عليه؛ فيمكن عندها الاستدلال بالقرآن نفسه على صيانته عن التحريف.
- عدم ورود هذه الآيات المستدلّ بها على التحريف في نصوص الروايات التي ادّعي دلالتها على التحريف.

---

(1) سورة فصّلت، الآيتان 41-42.

(2) انظر: الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج17، ص398-399؛ الخوئي، البيان في تفسير القرآن، م.س، ص210-211.

(3) انظر: قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ (سورة البقرة، الآية 2)؛ ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (سورة السجدة، الآية 2)؛ ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ أَن يُفۡتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (سورة يونس، الآية 37)؛ ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ (سورة الفرقان، الآية 30)؛ ...

- ظهور هذه الآيات ينفي الادّعاء الإجماليّ بوقوع التحريف في القرآن.
- إنّ الآيات الدالّة على صيانة القرآن عن التحريف تثبت عدم وجود نقص في القرآن، بعد الفراغ عن قرآنيّتها؛ ولازم ذلك صيانة القرآن عن التحريف مطلقاً.

5. صيانة القرآن عن التحريف بدلالة السنّة الشريفة:

أ. روايات صريحة في صيانة القرآن عن التحريف:

إذ تدلّ هذه الروايات على صيانة القرآن عن التحريف، ومنها:

- ما رُوي عن الإمام الباقر عليه السلام: «... وكان من نبذهم الكتاب أن أقاموا حروفه وحرّفوا حدوده، فهم يروونه ولا يرعونه، والجهّال يعجبهم حفظهم للرواية، والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية...»[1].
- ما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام: «ما بين الدفّتين قرآن»[2].
- ما رُوي عن الإمام العسكريّ عليه السلام: «اجتمعت الأمّة قاطبة لا اختلاف بينهم في ذلك: أنّ القرآن حقّ لا ريب فيه عند جميع فرقها، فهم في حالة الإجماع عليه مصيبون، وعلى تصديق ما أنزل الله مهتدون...»[3].

ب. حديث الثقلين[4]:

«إنّي تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».

---

(1) الكلينيّ، الكافي، م.س، ج8، كتاب الروضة، ح16، ص53.

(2) انظر: مجموعة من المحدّثين: الأصول الستّة عشر، أصل حسين بن عثمان بن شريك العامريّ، ط2، قمّ المقدّسة، دار الشبستري للمطبوعات؛ مطبعة مهديه، 1405/ 1363هـ.ش، ص111.

(3) انظر: الطبرسّي، الفضل بن الحسن: الاحتجاج، تعليق محمّد باقر الخرسان، لاط، النجف الأشرف، دار النعمان، 1386هـ.ق/ 1966م، ج2، ص251.

(4) تجدر الإشارة إلى أنّ هذه الروايات متواترة تواتراً معنوياً بين المسلمين؛ وهي منقولة في كتب السنّة والشيعة. انظر: الصفّار، بصائر الدرجات، م.س، ج8، باب 17 في قول رسول الله صلى الله عليه وآله «إنّي تارك فيكم الثقلين»، ح1-6، ص433-434؛ ابن حنبل، مسند أحمد، م.س، ج3، ص14؛ النيسابوريّ، أبو عبدالله: المستدرك على الصحيحين، إشراف: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، لا.ط، بيروت، دار المعرفة، لا.ت، ج3، ص148؛ المتّقي الهنديّ، عليّ: كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال، ضبط وتفسير: بكري حياني، تصحيح وفهرسة: صفوة السقا، لا.ط، بيروت، مؤسّسة الرسالة، 1409هـ.ق/ 1989م، ج1، ح943-955، ص185-187.

ووجه الاستدلال به: أنّ القول بالتحريف يستلزم عدم وجوب التمسّك بالكتاب المنزل؛ لضياعه على الأمّة؛ بسبب وقوع التحريف، ولكن وجوب التمسّك بالكتاب باقٍ إلى يوم القيام؛ لصريح حديث الثقلين؛ فيكون القول بالتحريف باطلاً جزماً. وقد دلّت هذه الروايات على اقتران العترة بالكتاب، وعلى أنّهما باقيان في الناس إلى يوم القيامة، فلا بدّ من وجود شخص يكون قريناً للكتاب، ولا بدّ من وجود الكتاب ليكون قريناً للعترة؛ حتى يردا على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الحوض، وليكون التمسّك بهما حفظا للأمّة عن الضلال[1].

ج. روايات التمسّك بالقرآن[2]:

توصينا هذه الروايات بالرجوع إلى القرآن عند الفتن والشدائد، وتصف القرآن بأنّه ملاذ حصين. فإذا كان الكتاب نفسه لم يسلم من فتن الزمان؛ كيف يمكنه حماية الآخرين من أضرار الفتن؟

د. روايات العرض على القرآن[3]:

وردت روايات عن أهل البيت عليهم السلام جاء فيها: «**إنّ على كلّ حقّ حقيقة، وعلى كلّ صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه**»، «**كلّ حديث لا يوافق كتاب الله فهو زخرف**»، «**ما لم يوافق من الحديث القرآن فهو زخرف**»، «**اعرضوها (أي الروايات) على كتاب الله، فما وافى كتاب الله عزّ وجلّ فخذوه، وما خالف كتاب الله فردّوه**».

ويفهم من مجموع هذه الروايات أنّ القرآن هو الميزان الحقّ الذي يُعتمد عليه في كشف الحقّ من الباطل والتمييز بينهما. وعليه، فكلّ رواية تشير إلى تحريف القرآن، إذا تعذّر تأويلها وتوجيهها؛ تكون باطلة وموضوعة ولا اعتبار لها[4].

(1) انظر: الخوئي، البيان في تفسير القرآن، م.س، ص211؛ الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج12، ص107.
(2) انظر: الكلينيّ، الكافي، م.س، ج2، كتاب فضل القرآن، باب في تمثّل القرآن وشفاعته لأهله، ح1-14، ص598-602.
(3) انظر: م.ن، ج1، المقدّمة، ص8؛ كتاب فضل العلم، باب الأخذ بالسنّة وشواهد الكتاب، ح1-5، ص69.
(4) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج12، ص107-108. (بتصّرف)

هـ. روايات الأمر بقراءة سورة كاملة بعد الفاتحة في الصلاة:

فلو كان القرآن محرّفاً؛ لما صحّ الأمر بالقراءة منه، ولكان الأمر بالقراءة منه لغواً وتكليفاً بغير المقدور للمكلّف. وهذا ما لا يلتزم به القائلون بالتحريف[1].

وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الروايات لا تنهض بنفي دعوى وقوع نقص في القرآن بسورة كاملة أو أكثر من سورة.

و. روايات تلاوة القرآن وفضلها وثوابها[2]:

يفيد مجموع هذه الروايات أنّ القرآن الموجود بين أيدينا غير محرّف؛ وإلّا لكانت هذه الروايات لغواً، غير مقدور تحصيل ثوابها للمكلّف[3].

(1) انظر: الخوئي، البيان في تفسير القرآن، م.س، ص214-215.

(2) انظر: الكلينيّ، الكافي، م.س، ج2، كتاب فضل القرآن، باب فضل حامل القرآن، ح1-11، ص603-606؛ باب من يتعلّم القرآن بمشقّة، ح1-3، ص606-607؛ باب ثواب قراءة القرآن، ح1-7، ص611-613؛...

(3) انظر: الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج12، ص108.

الأفكار الرئيسة:

1. التحريف في اللغة هو تغيير معنى الكلمة والعدول بها عن مقصدها الحقيقيّ؛ وهو مختصّ بالتحريف المعنويّ.
2. التحريف في الاصطلاح هو وقوع التغيير في ألفاظ القرآن وحروفه وحركاته؛ تبديلاً وترتيباً؛ ونقصاً وزيادةً.
3. يوجد أدلّة كثيرة من العقل والقرآن والسنّة الشريفة وغيرها؛ تفيد القطع بصيانة القرآن عن التحريف.

فكّر وأجب:

1. اذكر دليلاً عقليّاً - شرعيّاً على صيانة القرآن عن التحريف.
2. بيّن دلالة القرآن الكريم على صيانته عن التحريف.
3. وضّح دلالة السنّة الشريفة على صيانة القرآن عن التحريف.

مطالعة:

صيانة القرآن عن التحريف بشهادة التاريخ:

يوجد شواهد تاريخيّة كثيرة تدلّ بوضوح على صيانة القرآن الكريم عن التحريف[1]، منها:

- من ضروريّات التاريخ أنّ النبيّ العربيّ محمّداً ﷺ جاء قبل أربعة عشر قرناً تقريباً، وادّعى النبوّة، وانتهض للدعوة، وآمن به أمّة من العرب وغيرهم، وأنّه جاء بكتاب يسمّيه القرآن، وينسبه إلى ربّه، متضمّن لجمل المعارف، وكلّيّات الشريعة التي كان يدعو إليها، وكان يتحدّى به، ويعدّه آية لنبوّته، وأنّ القرآن الموجود اليوم بأيدينا هو القرآن الذي جاء به وقرأه على الناس المعاصرين له.
- توافر الدواعي على نقله وحراسته وصيانته؛ لأنّ القرآن معجزة النبوّة ودليل الرسالة الخاتمة، ولا سيّما في وجه أصحاب البدع والتحريف، الذين يترصّدون شرّاً بالإسلام والقرآن.
- شدّة عناية المسلمين بحفظ القرآن وتلاوته، وضبطهم الشديد في هذا الصدد.
- لو كان القرآن محرّفاً؛ لاتّخذه غير أهل الإسلام من أعظم المطاعن على الإسلام وأهله.
- وجود بعض الأخطاء في رسم المصحف حتى يومنا هذا، مع التفات المسلمين لها بعد توحيد المصاحف؛ دليل واضح على شدّة عنايتهم بحفظ القرآن وعدم المساس به.

(1) انظر: الطبرسّي، الفضل بن الحسن: مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحقّقين، ط1، بيروت، مؤسّسة الأعلمي، 1415هـ.ق/ 1995م، ج1، ص43؛ الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج12، ص104؛ الخوئي، البيان في تفسير القرآن، م.س، ص200-207؛ المحمّدي، فتح الله (نجارزادگان): سلامة القرآن من التحريف...، تهران، مؤسّسة فرهنگي وهنري مشعر، 1424هـ.ق/ 1337هـ.ش، ص34-36.

الدرس العاشر

البيّنة العاشرة
«رسالة القرآن وأهدافه العامّة»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يعرف رسالة القرآن وأهدافه العامّة.

2 . يعرف كيفية تحقيق رسالة القرآن وأهدافه العامّة في حياة الإنسان.

3 . يوظّف معرفة رسالة القرآن وأهدافه العامّة في تعزيز الارتباط الوجدانيّ والفكريّ بالقرآن الكريم.

1. تحديد رسالة القرآن:

إنّ المقصود بالرسالة هو خصوص الغايات الكبرى الموجّهة لرؤية ما؛ بحيث تحضر في تفاصيل حركة أتباع هذه الرؤية وسلوكهم، وتنضوي تحتها مجموعة من الأهداف العامّة المحقّقة لهذه الرؤية على مستويات عدّة؛ تمهيداً لإيصال أتباع هذه الرؤية إلى التحقّق برسالتها.

وبالتأمّل في القرآن الكريم، نجده كثيراً ما يصف نفسه بأنّه ذِكْر؛ قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾[1]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[2]، ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾[3]، ﴿وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾[4]، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[5]، وغيرها من الآيات.

والمراد بالذِكْر هو التذكّر في قبال الغفلة والنسيان. وإطلاق وصف الذِكْر على ما يذكَّر به مبالغة، فكأنّه وجود خارجيّ عن الذِكْر ومظهر له[6].

وقد ورد الذِكْر في مقابل الغفلة والنسيان في القرآن الكريم: في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ

(1) سورة آل عمران، الآية 58.

(2) سورة الحجر، الآية 9.

(3) سورة يوسف، الآية 104.

(4) سورة الأنبياء، الآية 50.

(5) سورة الزخرف، الآية 44.

(6) انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، م.س، ج2، مادّة «ذَكَرَ»، ص358-359؛ الأصفهانيّ، مفردات ألفاظ القرآن، م.س، مادّة «ذَكَرَ»، ص328؛ المصطفوي، حسن: التحقيق في كلمات القرآن، ط1، طهران، مؤسّسة الطباعة والنشر وزارة الثقافة والإرشاد الإسلاميّ، 1417هـ.ق، ج3، مادّة «ذَكَرَ»، ص318-319.

إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾[1]، ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[2]، ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾[3]، ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[4]، ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[5]، وغيرها من الآيات.

وبالنظر في ما تقدَّم، يمكن القول إنّ رسالة القرآن الأساس تكمن في إخراج الإنسان من حالة الغفلة إلى اليقظة؛ بغية إنقاذه من سنّة الخسران: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[6]؛ وهو ما عبرّ عنه القرآن بإخراج الإنسان من الظلمات إلى النور: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾[7] ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[8]؛ ولا يتمّ له ذلك إلا باهتدائه بنور القرآن؛ بما يحويه من تعاليم وحقائق موقظة للإنسان، وموجّهة له في سيره العبوديّ إلى الله تعالى.

2. تحديد الأهداف العامّة للقرآن:

إنّ المقصود بالأهداف العامّة للقرآن الكريم هو خصوص المقاصد الكلّيّة التي تجسّد إرادة التغيير والتطوير والرقيّ التي يرمي القرآن إلى تحقيقها في الإنسان؛ ويمكن حصرها بمحور جامع هو الهداية بشقّيها التكوينيّ والتشريعيّ، وبيان ذلك: أنّ رسالة القرآن الكريم تتلخّص - بناءً على ما تقدَّم - بإيقاظ الإنسان وإنقاذه أو بإخراجه من الظلمات

(1) سورة الكهف، الآية 24.
(2) سورة الأنعام، الآية 44.
(3) سورة الفرقان، الآية 18.
(4) سورة الكهف، الآية 28.
(5) سورة الأعراف، الآية 205.
(6) سورة العصر، الآيات 1-3.
(7) سورة إبراهيم، الآية 1.
(8) سورة المائدة، الآيتان 15-16.

إلى النور، ولكي يتمّ تحقيق هذه الرسالة، لا بدّ من إيصال الهداية التكوينيّة والتشريعيّة إلى من يُراد إيقاظه وإنقاذه؛ حتى تتحقّق الرسالة. وهو ما ركّز فيه القرآن الكريم وأكّده كثيراً؛ قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1]، ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[2]، ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾[3]، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾[4]، ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ﴾[5]، ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾[6].

والهداية هي الدلالة وإراءة الغاية بـإراءة الطريق، وهي نحو إيصال إلى المطلوب، وإنّما تكون من الله سبحانه، وسنّته سنّة الأسباب؛ بإيجاد سبب ينكشف به المطلوب، ويتحقّق به وصول العبد إلى غايته في سيره. وهدايته تعالى على نوعين: أحدهما الهداية التكوينيّة، وهي التي تتعلّق بالأمور التكوينيّة؛ كهدايته كلّ نوع من أنواع المصنوعات إلى كماله الذي خُلِقَ لأجله، وإلى أفعاله التي كُتِبَت له، وهدايته كلّ شخص من أشخاص الخليقة إلى الأمر المقدَّر له، والأجل المضروب لوجوده؛ قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[7]، ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[8]. والنوع الثاني الهداية التشريعيّة؛ وهي التي تتعلّق بالأمور التشريعيّة من الاعتقادات الحقّة والأعمال الصالحة التي وضعها الله سبحانه للأمر والنهي والبعث والزجر، ووعد على الأخذ بها ثواباً، وأوعد على تركها عقاباً. ومن هذه الهداية ما هي إراءة الطريق؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ

(1) سورة طه، الآية 50.
(2) سورة الإنسان، الآية 3.
(3) سورة الأنبياء، الآية 73.
(4) سورة محمد، الآية 17.
(5) سورة الأعراف، الآية 43.
(6) سورة الليل، الآيتان 12-13.
(7) سورة طه، الآية 50.
(8) سورة الأعلى، الآيتان 2-3.

ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1]. ومنها: ما هي بمعنى الإيصال إلى المطلوب؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَالَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]. وقد عرّف الله سبحانه هذه الهداية تعريفاً بقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ﴾[3]؛ فهي انبساط خاصّ في القلب يعي به الإنسان القول الحقّ والعمل الصالح، وتهيّؤ مخصوص له لا يأبى به التسليم لأمر الله، ولا يتحرّج عن حكمه. وقد رسم الله سبحانه لهذه الهداية رسماً آخر، وهو ما في قوله عقيب ذكره هدايته أنبياءه الكرام وما خصّهم به من النعم العظام: ﴿وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[4]؛ وهي تدلّ على أنّ من خاصّة الهداية الإلهيّة أنّها تورد المهتدين بها صراطاً مستقيماً وطريقاً سويّاً لا تخلّف فيه ولا اختلاف، فلا بعض أجزاء صراطه، الذي هو دينه بما فيه من المعارف والشرائع، يناقض بعضه الآخر؛ لأنّ الجميع يمثّل التوحيد الخالص الذي ليس إلا حقيقة ثابتة واحدة، ولأنّها كلّها مبنيّة على الفطرة الإلهيّة التي لا تخطئ في حكمها، ولا تتبدّل في نفسها ولا في مقتضياتها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5]. ولا بعض الراكبين عليه السائرين فيه يألفون بعضاً آخر، فالذي يدعو إليه نبيّ من أنبياء الله عليهم السلام هو الذي يدعو إليه جميعهم: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟

(1) سورة الإنسان، الآية 3.
(2) سورة الأعراف، الآية 176.
(3) سورة الأنعام، الآية 125.
(4) سورة الأنعام، الآيتان 87-88.
(5) سورة الروم، الآية 30.

فِيهِۚ﴾[1]، والذي يندب إليه خاتمهم وآخرهم هو الذي يندب إليه آدمهم وأوّلهم، من غير أيّ فرق؛ إلا من حيث الإجمال والتفصيل[2].

3. كيفيّة تحقيق رسالة القرآن وأهدافه العامّة:

إنّ العمل بالقرآن وحضوره في حياة الإنسان كفيل بإيصاله إلى مقصوده ومبتغاه من السعادة والكمال، ومتى ما غفل الإنسان عن القرآن وأهمله ابتلي بالسقوط والانحراف عن مقصده الفطريّ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾[3].

ومن هذا المنطلق، فإنّ المجتمع الذي يحضر فيه القرآن فكراً وعملاً؛ سوف يكتب له الفلاح والنجاح، ولا يتحقّق له ذلك إلا بجعل القرآن مرجعاً في حلّ مشكلات الحياة ومعضلاتها، ومعياراً في قبول أيّ قول أو رأي أو موقف، وفيصلاً فارقاً بين الحقّ والباطل ومصاديقهما في الحياة: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[4]، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾[5].

ولقد سعت قوى الطغيان والاستكبار منذ زمن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى واقعنا المعاصر، لمحاولة سلب الأمّة الإسلاميّة هذه القيمة المهمّة وإلهائهم عنها؛ لأنّها وجدت في القرآن مانعاً وحاجزاً منيعاً أمام مطامعها في استلاب الشعوب واستعبادها؛ فبذلت جهودها وسخّرت كلّ طاقاتها وإمكانيّاتها للحؤول دون انفعال الشعوب بتعاليم القرآن؛ تمهيداً لإقصائه من حياتهم العمليّة، وقصره على الطقوسيّة الشكليّة في حياة المسلمين. وهو ما أخبره عنه أهل بيت العصمة عليهم السلام، وحذّروا الأمّة من الوقوع فيه. فعن الإمام عليّ عليه السلام: «...

(1) سورة الشورى، الآية 13.
(2) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص34-35؛ ج7، ص346-347. (بتصّرف)
(3) سورة طه، الآيات 124-127.
(4) سورة الأنبياء، الآية 10.
(5) سورة آل عمران، الآية 110.

إلى الله أشكو من معشر يعيشون جهّالاً، ويموتون ضلّالاً، ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب؛ إذا تُلي حقّ تلاوته، ولا سلعة أنفق بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب؛ إذا حُرِّف عن مواضعه...»[1].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «**... وكان من نبذهم الكتاب، أن أقاموا حروفه، وحرّفوا حدوده، فهم يروونه ولا يرعونه، والجهّال يعجبهم حفظهم للرواية، والعلماء يحزنهم تركهم للرعاية...**»[2].

وعليه، لا بدّ من حضور القرآن الكريم اعتقاداً وعملاً في حياة الإنسان، حتّى يتمكّن من تحقيق رسالة القرآن وأهدافه العامّة؛ فيخرج من الظلمات إلى النور، ويهتدي إلى الصراط المستقيم. وهو ما يستعدّ له الإنسان بخلقته وتسويته التكوينيّة: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[3]؛ إذ زوّده الله تعالى بما من شأنه أن يجذبه إلى الهداية الإلهيّة ويصيّره منفعلاً بها؛ وهي الفطرة والعقل والقلب، التي أودعها الله تعالى في خِلْقة الإنسان وتكوينه، واعتنى بها القرآن الكريم عناية كبيرة؛ لما لها من دور في تحقيق رسالة القرآن وأهدافه العامّة في الإنسان. وسوف يأتي بيان ذلك في ما يأتي من بيّنات في الدروس اللّاحقة.

(1) الشريف الرضّي، نهج البلاغة، م.س، ج1، الخطبة17، ص54.
(2) الكلينيّ، الكافي، م.س، ج8، كتاب الروضة، ح16، ص53.
(3) سورة الأعلى، الآيتان 2-3.

الأفكار الرئيسة:

1. الرسالة هي خصوص الغايات الكبرى التي توجّه رؤية ما، وتنضوي تحتها الأهداف العامّة لهذه الرؤية.
2. رسالة القرآن هي إخراج الإنسان من حالة الغفلة إلى اليقظة؛ بغية إنقاذه من سنّة الخسران.
3. المقصود بالأهداف العامّة للقرآن الكريم، هو خصوص المقاصد الكلّيّة التي تجسّد إرادة التغيير والتطوير والرقيّ التي يرمي القرآن إلى تحقيقها في الإنسان؛ ويمكن حصرها بمحور جامع هو الهداية بشقّيها: التكوينيّ والتشريعيّ.
4. إنّ العمل بالقرآن وحضوره في حياة الإنسان كفيلان بإيصاله إلى مقصوده ومبتغاه من السعادة والكمال، ومتى ما غفل الإنسان عن القرآن وأهمله، أُبتلي بالسقوط والانحراف عن مقصده الفطريّ.

فكّر وأجب:

1. بيّن المراد من رسالة القرآن الكريم.
2. وضحّ المراد من الأهداف العامّة للقرآن.
3. ما هو السبيل لتحقيق رسالة القرآن وأهدافه العامّة في الإنسان؟

مطالعة:

طريق الاستفادة من القرآن الكريم[1]:

لا بدّ من لك أن تلفت النظر إلى مطلب مهمّ، يُكشَفُ لكَ بالتوجّه إليه طريقُ الاستفادة من الكتاب الشريف، وتنفتح على قلبك أبواب المعارف والحكم؛ وهو أن يكون نظرك إلى الكتاب الشريف الإلهيّ نظر التعليم، وتراه كتاب التعليم والإفادة، وترى نفسك موظّفة على التعلّم والاستفادة. وليس مقصودنا من التعليم والتعلّم والإفادة والاستفادة، أن تتعلّم منه الجهات الأدبيّة والنحو والصرف، أو تأخذ منه الفصاحة والبلاغة والنكات البيانيّة والبديعيّة، أو تنظر في قصصه وحكاياته بالنظر التاريخيّ والاطّلاع على الأمم السالفة، فإنّه ليس شيء من هذه داخلاً في مقاصد القرآن؛ وهو بعيد عن المنظور الأصليّ للكتاب الإلهيّ بمراحل. وليس مقصودنا من هذا البيان انتقاد التفاسير؛ فإنّ كلّ واحد من المفسّرين تحمّل المشاقّ الكثيرة والأتعاب التي لا نهاية لها حتى صنّف كتاباً شريفاً، فللّه درّهم، وعلى الله أجرهم. بل مقصودنا هو أنّه لا بدّ من أن يُفتَح للناس طريق الاستفادة من هذا الكتاب الشريف؛ الذي هو الكتاب الوحيد في السلوك إلى الله، والكتاب الأحديّ في تهذيب النفوس والآداب والسنن الإلهيّة، وأعظم وسيلة للربط بين الخالق والمخلوق، والعروة الوثقى، والحبل المتين للتمسّك بعزّ الربوبيّة. فعلى العلماء والمفسّرين أن يكتبوا التفاسير، وليكن مقصودهم بيان التعاليم والمقرّرات العرفانيّة والأخلاقيّة، وبيان كيفيّة ربط المخلوق بالخالق، وبيان الهجرة من دار الغرور إلى دار السرور والخلود؛ على نحو ما أُودِعَت في هذا الكتاب الشريف. فصاحب هذا الكتاب ليس هو السكّاكيّ، فيكون مقصده جهات البلاغة والفصاحة، وليس هو سيبويه والخليل، حتى يكون منظوره جهات النحو والصرف، وليس المسعوديّ وابن خلّكان، حتى يبحث حول تاريخ العالم... هذا الكتاب ليس كعصى موسى عليه السلام ويده البيضاء، أو نفس عيسى عليه السلام الذي يحيي الموتى؛ فيكون

(1) الخمينيّ، روح الله: الآداب المعنويّة للصلاة، ترجمة وشرح وتعليق: أحمد الفهري، ط2، بيروت، مؤسّسة الأعلمي، 1406هـ.ق/ 1986م، ص332-333.

للإعجاز وحسب، وللدّلالة على صدق النبيّ الأكرمﷺ، بل هذه الصحيفة الإلهيّة هي كتاب إحياء القلوب بالحياة الأبديّة العلميّة والمعارف الإلهيّة. هذا كتاب الله يدعو إلى الشؤون الإلهيّة، فالمفسّر، لا بدّ من أن يعلم الشؤون الإلهيّة، ويُرجِع الناس إلى تفسيره؛ لتعلّم الشؤون الإلهيّة؛ حتى تتحصّل الاستفادة منه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾[1]. فأيّ خسران أعظم من أن نقرأ الكتاب الإلهيّ منذ ثلاثين أو أربعين سنة، ونراجع التفاسير ونحرم مقاصده: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[2]».

(1) سورة الإسراء، الآية 82.
(2) سورة الأعراف، الآية 23.

الدرس الحادي عشر

البيّنة الحادية عشرة «عناية القرآن بالفطرة الإنسانيّة»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يعرف حقيقة الفطرة الإنسانيّة وخصائصها.

2 . يدرك أهمّيّة دور الفطرة في تكامل الإنسان.

3 . يفهم كيف تكون الفطرة إلهام إلهي.

1. حقيقة الفطرة الإنسانيّة:

الفطرة من الفطر؛ بمعنى الإيجاد والإبداع. وقد هدى الله تعالى كلّ نوع من أنواع خلقه إلى سعادته التي هي بغية حياته؛ بفطرته ونوع خِلقته، وجهّزه في وجوده بما يناسب غايته من التجهيز: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1]، ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[2]؛ فالإنسان، كسائر الأنواع المخلوقة، مفطور بفطرة تهديه إلى تتميم نواقصه ورفع حوائجه، وتهتف له بما ينفعه وما يضرّه في حياته: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾[3]، وهو مع ذلك مجهّز بما يتمّ له به ما يجب له أن يقصده بفطرته من الدين: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾[4]، ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[5]. وفطرة الله إشارة إلى أنّ هذا الدين الذي يجب إقامة الوجه له، هو الذي تهتف به الخلقة وتهدي إليه الفطرة الإلهيّة التي لا تبديل لها؛ وذلك أنّه ليس الدين إلا سنّة الحياة، والسبيل التي يجب على الانسان أن يسلكها حتى يسعد في حياته، فلا غاية للإنسان يتّبعها إلا السعادة[6].

---

(1) سورة طه، الآية 50.

(2) سورة الأعلى، الآيتان 2 - 3.

(3) سورة الشمس، الآيتان 7 - 8.

(4) سورة عبس، الآية 20.

(5) سورة الروم، الآية 30.

(6) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج10، ص298-299؛ ج16، ص178. (بتصّرف)

2. ثبات أصل الفطرة في خِلْقة الإنسان:

من المعلوم أنّ التوحيد من أشدّ المسائل ابتعاداً عن الحسّ، وبينونة للمادّة وارتباطاً بالأحكام العقليّة الصرفة. والقرآن يبيّن أنّ هذه المعارف الحقيقيّة من الفطرة: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ﴾[1]؛ أي إنّ الخلقة الإنسانيّة نوع من الإيجاد يستتبع هذه العلوم والإدراكات، فلن يستطيع الإنسان، أن يبطل علومه الفطريّة، ويسلك في الحياة سبيلاً آخر غير سبيلها البتّة، وأمّا الانحراف المشهود عن أحكام الفطرة فليس إبطالاً لحكمها، بل استعمال لها في غير ما ينبغي استعمالها، كأن لا يصيب الرامي الهدف في رميته، فإنّ آلة الرمي وسائر شرائطه موضوعة بالطبع للإصابة؛ إلا أنّ الاستعمال يوقعها في الغلط. لذا، كانت الفطرة لا تبطل البتّة؛ وإنّما يغلط الإنسان في كيفيّة استعمالها!

وللإنسان فطرة خاصّة تهديه إلى سنّة خاصّة في الحياة، وسبيل معيّنة ذات غاية مشخّصة ليس له إلا أن يسلكها خاصّة، فليس الإنسان في هذه النشأة إلا نوعاً واحداً، لا يختلف ما ينفعه وما يضرّه بالنظر إلى هذه البنية المؤلّفة من روح وبدن. فما للإنسان من جهة أنّه إنسان إلا سعادة واحدة وشقاء واحد، فمن الضروريّ حينئذ أن يكون تجاه عمله سنّة واحدة ثابتة يهديه إليها هاد واحد ثابت؛ وهو الفطرة ونوع الخِلْقة. فلو اختلفت سعادة الإنسان باختلاف أفراده لم ينعقد مجتمع واحد صالح يضمن سعادة الأفراد المجتمعين. ولو اختلفت السعادة باختلاف الأقطار التي تعيش فيها الأمم المختلفة؛ بمعنى أن يكون الأساس الوحيد للسنّة الاجتماعيّة؛ أي الدين، هو ما يقتضيه حكم المنطقة؛ لكان الإنسان أنواعاً مختلفة باختلاف الأقطار. ولو اختلفت السعادة باختلاف الأزمنة؛ بمعنى أن تكون الأعصار والقرون هي الأساس الوحيد للسنّة الدينيّة؛ لاختلفت نوعية كلّ قرن وجيل مع من ورثوا من آبائهم أو خلّفوا من أبنائهم، ولم يسر الاجتماع الإنسانيّ سير التكامل، ولم تكن الإنسانيّة متوجّهة من النقص إلى الكمال؛ إذ لا يتحقّق النقص والكمال إلا مع أمر

(1) سورة الروم، الآية 30.

مشترك ثابت محفوظ بينهما. وليس المراد بهذا إنكار أن يكون لاختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة بعض التأثير في انتظام السنّة الدينيّة في الجملة، بل إثبات أنّ الأساس للسنّة الدينيّة هو البنية الإنسانيّة التي هي حقيقة واحدة ثابتة مشتركة بين الأفراد. فللإنسانيّة سنّة واحدة ثابتة بثبات أساسها الذي هو الإنسان؛ وهي التي تدير رحى الإنسانيّة، مع ما يلحق بها من السنن الجزئيّة المختلفة باختلاف الأفراد أو الأمكنة أو الأزمنة[1].

3. إدراك الفطرة لأصول الدين:

إنّ الفطرة إذا سلمت لم تنفكّ من أن تتنبّه شاهدة لفقرها وحاجتها إلى أمر خارج عنها، وكذا احتياج كلّ ما سواها ممّا يقع عليه حسّ أو وهم أو عقل إلى أمر خارج يقف دونه سلسلة الحوائج، فهي مؤمنة مذعنة بوجود موجود غائب عن الحسّ، منه يبدأ الجميع وإليه ينتهي ويعود، وأنّه كما لم يهمل دقيقة من دقائق ما يحتاج إليه الخلق، كذلك لا يهمل هداية الناس إلى ما ينجيهم من مهلكات الأعمال والأخلاق، وهذا هو الإذعان بالتوحيد والنبوّة والمعاد؛ وهي أصول الدين[2].

4. الفطرة مثار اختلاف في النشأة الدنيويّة:

إنّ الإنسان موجود مفطور على الانجذاب إلى الكمال والتعلّق به، والنفور من النقص والفرار منه. وهذا ضروريّ في خِلْقة الإنسان؛ بهدف تحريكه ودفعه نحو صيرورة الاستكمال، وليس له التحقّق بذلك إلا بوضعه في نشأة تتيح له الاستكمال؛ وليست هذه النشأة إلا النشأة الدنيويّة. ولكنّ الإنسان - وهو نوع مفطور على الاجتماع والتعاون - كان في أوّل اجتماعه أمّة واحدة، ثمّ ظهر فيه الاختلاف؛ نظراً لطبيعة الفطرة التي تميل به نحو اقتناء المنافع، وطبيعة النشأة الدنيويّة التي هي نشأة تزاحم، ولأنّ وجود الفطرة ضروريّ في الإنسان لدفعه نحو الاستكمال، كما أنّ وجوده في النشأة الدنيويّة ضرورة لاستكماله؛ استدعى ذلك وضع قوانين ترفع الاختلافات الطارئة، والمشاجرات في

(1) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج5، ص312-313؛ ج16، ص178-179. (بتصّرف)
(2) م.ن، ج1، ص44-45. (بتصّرف)

لوازم الحياة في النشأة الدنيويّة، وتنظّم استفادة الإنسان من المنافع الحيويّة من دون أن يعرّض نفسه والآخرين إلى الحرمان من فرصة الاستكمال، فألبست القوانين الموضوعة لباس الدين، وشفّعت بالتبشير والإنذار؛ بالثواب والعقاب، وأصلحت بالعبادات المندوبة إليها ببعث النبيّين، وإرسال المرسلين. ثمّ اختلف أتباع الدين في معارف الدين أو أمور المبدأ والمعاد، فاختلّ بذلك أمر الوحدة الدينيّة، وظهرت الشعوب والأحزاب، وتبع ذلك الاختلاف في غيره، ولم يكن هذا الاختلاف الثاني إلا بغياً من الذين أوتوا الكتاب، وظلماً وعتوّاً منهم بعد ما تبيّنت لهم أصوله ومعارفه، وتمّت الحجّة عليهم: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]؛ فالاختلاف اختلافان: اختلاف في أمر الدين مستند إلى بغي الباغين دون فطرتهم وغريزتهم، واختلاف في أمر الدنيا، وهو فطريّ وسبب لتشريع الدين، ثمّ هدى الله سبحانه المؤمنين إلى الحقّ المختلف فيه بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. فالدين الإلهيّ هو السبب الوحيد لسعادة هذا النوع الإنسانيّ، والمصلح لأمر حياته، يصلح الفطرة بالفطرة ويعدّل قواها المختلفة عند طغيانها، وينظّم للإنسان سلك حياته الدنيويّة والأخرويّة، والمادّيّة والمعنويّة[2].

5. عدم كفاية الفطرة في هداية الإنسان إلى كماله:

إنّ هداية الإنسان إلى كماله وسعادته لا تتمّ له إلا بأحد أمرين: إمّا بفطرته وإمّا بأمر آخر وراءه، لكنّ الفطرة غير كافية، فإنّها هي المؤدّية إلى الاختلاف، فكيف ترفعها؟ فوجب أن يكون بهداية من غير طريق الفطرة والطبيعة؛ وهو التفهيم الإلهيّ غير الطبيعيّ المسمّى بالنبوّة والوحي، وهذه الحجّة مؤلّفة من مقدّمات مصرَّح بها في كتاب الله

(1) سورة البقرة، الآية 213.

(2) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير الميزان، م.س، ج2، ص111-112. (بتصرّف)

تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1]، وكلّ واحدة من هذه المقدّمات تجريبيّة، بيّنتها تجربة الإنسان في تاريخ حياته واجتماعاته المتنوّعة التي ظهرت وانقرضت في طيّ القرون المتراكمة الماضية، إلى أقدم أعصار الحياة الإنسانيّة التي يذكرها التاريخ. فلا الإنسان انصرف في حين من أحيان حياته عن حكم الاستخدام، واستخدامه لم يؤدِّ إلى الاجتماع وقضى بحياة فردية، ولا اجتماعه المكوّن خلا عن الاختلاف، ولا الاختلاف ارتفع بغير قوانين اجتماعيّة، ولا أنّ فطرته وعقله الذي يعدّه عقلاً سليماً قدرا على وضع قوانين تقطع منابت الاختلاف وتقلع مادّة الفساد. وناهيك في ذلك ما تشاهده من جريان الحوادث الاجتماعية، وما هو نصب عينيك من انحطاط الأخلاق وفساد عالم الإنسانيّة، والحروب المهلكة للحرث والنسل، والمقاتل المبيدة للملايين بعد الملايين من الناس، وسلطان التحكّم ونفوذ الاستعباد في نفوس البشر وأعراضهم وأموالهم في هذا القرن الذي يسمّى عصر المدنية والرقيّ والثقافة والعلم، فما ظنّك بالقرون الخالية، أعصار الجهل والظلمة؟ وأمّا أنّ الصنع والإيجاد يسوق كلّ موجود إلى كماله اللائق به؛ فأمر جارٍ في كلّ موجود بحسب التجربة والبحث، وكذا كون الخلقة والتكوين إذا اقتضى أثراً لم يقتضِ خلافه بعينه؛ أمر مسلَّم تثبته التجربة والبحث. وأمّا أنّ التعليم والتربية الدينيّين الصادرين من مصدر النبوّة والوحي يقدران على دفع هذا الاختلاف والفساد؛ فأمر يصدّقه البحث والتجربة معاً. أمّا البحث؛ فلأنّ الدين يدعو إلى حقائق المعارف وفواضل الأخلاق ومحاسن الأفعال، فصلاح العالم الإنسانيّ مفروض فيه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2]، ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[3]، وأمّا التجربة؛ فالإسلام أثبت ذلك في اليسير من الزمان الذي

(1) سورة البقرة، الآية 213.
(2) سورة يوسف، الآية 40؛ سورة الروم، الآية 30.
(3) سورة البيّنة، الآية 5.

كان الحاكم فيه على الاجتماع بين المسلمين هو الدين، وأثبت ذلك بتربية أفراد من الإنسان صلحت نفوسهم، وأصلحوا نفوس غيرهم من الناس: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1]، على أنّ استكمال الاجتماع المدنيّ حياة الحضارة والرقيّ مرهون بالتقدّم الإسلاميّ وسريانه في العالم الدنيويّ[2].

6. الفطرة إلهام إلهيّ وعقل عمليّ:

إنّ جميع ما يحصل للإنسان من العلم إنّما هو بهداية إلهيّة، غير أنّها مختلفة بحسب النوع، فما كان من خواصّ الأشياء الخارجيّة، فالطريق الذي يهدي به الله سبحانه الإنسان إليه هو طريق الحسّ، وما كان من العلوم الكلّيّة الفكريّة؛ فإنّما هي بإعطاء وتسخير إلهيّين من غير أن يبطلها وجود الحسّ أو يستغني الإنسان عنها في حال من الأحوال، وما كان من العلوم العمليّة المتعلّقة بصلاح الأعمال وفسادها، وما هو تقوى أو فجور؛ فإنّما هي بإلهام إلهيّ بالقذف في القلوب وقرع باب الفطرة. والقسم الثالث الذي يرجع بحسب الأصل إلى إلهام إلهيّ؛ إنّما ينجح في عمله ويتمّ في أثره إذا صلح القسم الثاني ونشأ على صحّة واستقامة؛ كما أنّ العقل - أيضاً - إنّما يستقيم في عمله؛ إذا استقام الإنسان في تقواه ودينه الفطريّ: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الْأَلْبَابِ﴾[3]، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ﴾[4]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[5]، ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾[6]؛ أي لا يترك مقتضيات الفطرة إلا من فسد عقله، فسلك غير سبيله. والاعتبار يساعد هذا التلازم الذي بين العقل والتقوى، فإنّ الإنسان إذا أصيب في قوّته النظريّة فلم يدرك الحقّ حقّاً أو لم يدرك الباطل باطلاً، فكيف يُلهم بلزوم هذا أو اجتناب

(1) سورة آل عمران، الآية 110.
(2) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير الميزان، م.س، ج2، ص131-132. (بتصّرف)
(3) سورة آل عمران، الآية 7.
(4) سورة غافر، الآية 13.
(5) سورة الأنعام، الآية 110.
(6) سورة البقرة، الآية 130.

ذاك؟ كمن يرى أنْ ليس وراء الحياة المادّية المعجّلة شيء، فإنّه لا يُلهم التقوى الدينيّة التي هي خير زاد للحياة الآخرة. وكذلك الإنسان إذا فسد دينه الفطريّ ولم يتزوّد من التقوى الدينيةلم تعتدل قواه الداخلية المحسَّة من شهوة أو غضب أو محبّة أو كراهة وغيرها. ومع اختلال أمر هذه القوى لا تعمل قوّة الإدراك النظريّة عملها عملاً مرضيّاً. والبيانات القرآنية تجري في بثّ المعارف الدينيّة وتعليم الناس العلم النافع هذا المجرى، وتراعي الطرق المتقدّمة التي عيّنتها للحصول على المعلومات، فما كان من الجزئيّات التي لها خواصّ تقبّل الإحساس؛ فإنّها تصريح فيها إلى الحواسّ؛ كالآيات المشتملة على قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾، ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾...، وما كان من الكلّيّات العقليّة ممّا يتعلّق بالأمور الكلّيّة المادّيّة، أو التي هي وراء عالم الشهادة؛ فإنّها تعتبر فيها العقل اعتباراً جازماً؛ وإن كانت غائبة عن الحسّ، خارجة عن محيط المادّة والمادّيات، كأغلب الآيات الراجعة إلى المبدأ والمعاد، المشتملة على أمثال قوله تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾، ﴿يَفْقَهُونَ﴾...، وما كان من القضايا العمليّة التي لها مساس بالخير والشرّ والنافع والضارّ في العمل والتقوى والفجور؛ فإنّها تستند فيها إلى الإلهام الإلهيّ بذكر ما بتذكّره يشعر الإنسان بإلهامه الباطنيّ؛ كالآيات المشتملة على مثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾، ﴿فِيهِمَآ إِثْمٌ﴾، ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾...[1].

(1) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج5، ص311-312؛ ج13، ص92-93. (بتصّرف)

الأفكار الرئيسة:

1. الإنسان، كسائر الأنواع المخلوقة، مفطور بفطرة تهديه إلى تتميم نواقصه ورفع حوائجه، وتهتف له بما ينفعه وما يضرّه في حياته. وهو مع ذلك مجهّز بما يتمّ له به ما يجب أن يقصده بفطرته من الدين.
2. هذه الفطرة خاصّة تهديه إلى سنّة خاصّة في الحياة وسبيل معيّنة ذات غاية مشخّصة لا تختلف باختلاف أفراد الإنسان.
3. الفطرة تهدي الإنسان إلى أصول الدين بنحو إجماليّ؛ وهو يحتاج إلى استكمال معرفته بها بالدين.
4. الفطرة منشأ للاختلاف في النشأة الدنيويّة، وقد جاء الدين ليرفع هذا الاختلاف.
5. الفطرة إلهام إلهيّ وعقل عمليّ.

تمارين

1. ما هو المراد من الفطرة؟ وما دورها في هداية الإنسان؟
2. بيّن حقيقة هداية الفطرة للإنسان إلى أصول الدين؟
3. ما المراد بفطريّة الدين؟ وما هو دور الدين في استكمال المعرفة الفطريّة؟

مطالعة:

الفطرة في السنّة الشريفة:

وردت في السنّة الشريفة روايات كثيرة تتحدّث عن الفطرة وخصائصها؛ منها:

- ما رواه عمر بن أذينة، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ﴾[1]؛ ما الحنيفيّة؟ قال: «هي الفطرة التي فطر الناس عليها، فطر الله الخلق على معرفته»[2].
- ما رواه زرارة، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾؟ قال: «فطرهم على معرفة أنّه ربّهم، ولولا ذلك لم يعلموا إذا سُئلوا من ربّهم ولا من رازقهم»[3].
- ما رواه زرارة، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾؟ قال: «ثبتت المعرفة في قلوبهم ونسوا الموقف، وسيذكرونه يوماً ما، ولولا ذلك لم يدرِ أحد من خالقه ولا من رازقه»[4].
- ما رواه عبد الله بن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾، ما تلك الفطرة؟ قال: «هي الإسلام؛ فطرهم الله حين أخذ ميثاقهم على التوحيد، قال: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ﴾؛ وفيه المؤمن والكافر»[5].

---

(1) سورة الحج، الآية 31.

(2) البرقي، أحمد بن محمّد بن خالد: المحاسن، تصحيح وتعليق: جلال الدين الحسينيّ (المحدِّث)، لا.ط، طهران، دار الكتب الإسلاميّة، 1370هـ.ق/ 1330هـ.ش، ج2، ح223، ص241.

(3) م.ن، ح224.

(4) م.ن، ح225.

(5) الكلينيّ، الكافي، م.س، كتاب الإيمان والكفر، باب فطرة الخلق على التوحيد، ح2، ص12.

الدرس الثاني عشر

البيّنة الثانية عشرة
«عناية القرآن بالعقل»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف حقيقة العقل وكيفيّة تنميته وتطويره.
2. يدرك أهمّيّة دور العقل في تكامل الإنسان وتحقّقه بالسعادة.
3. يوظّف معرفة حقيقة العقل وخصائصه في تعزيز الارتباط الفكريّ بالقرآن الكريم، والكشف عن معارفه وخصائصه.

ركّز القرآن الكريم على مكانة العقل، حيث وردت فيه آيات كثيرة تكشف عن الدور المحوريّ الذي أُسنِدَ إليه في سير الإنسان نحو الكمال، والوصول إلى السعادة الحقيقيّة، وإدراك الحقائق الإلهيّة العالية والسامية.

1. حقيقة العقل:

يُطلَق لفظ العقل على الإدراك؛ من حيث إنّ فيه عَقْد القلب بالتصديق، على ما جَبَل الله سبحانه الإنسان عليه من إدراك الحقّ والباطل في الأمور النظريّة، والخير والشرّ والمنافع والمضارّ في الأمور العمليّة. فقد خلقه الله سبحانه خِلْقَة يُدرِك نفسه بها في أوّل وجوده، ثمّ جهَّزه بحواسّ ظاهرة يُدرِك بها ظواهر الأشياء، وبأخرى باطنة يُدرِك بها معاني روحيّة؛ ترتبط بها نفسه مع الأشياء الخارجة عنها؛ كالإرادة، والحبّ، والبغض، والرجاء، والخوف، ونحو ذلك، ثمّ يتصرّف فيها بالترتيب والتفصيل والتخصيص والتعميم، فيقضي فيها في النظريّات والأمور الخارجة عن مرحلة العمل قضاءً نظريّاً، وفي العمليّات والأمور المربوطة بالعمل قضاءً عمليّاً؛ كلّ ذلك جرياً على المجرى الذي تشخّصه له فطرته الأصليّة؛ وهذا هو العقل. لكن ربّما تَسلّط بعض القوى على الإنسان بغلبته على سائر القوى؛ كالشهوة والغضب، فأبطل حكم الباقي أو ضعّفه، فخرج الإنسان بها عن صراط الاعتدال إلى أودية الإفراط والتفريط، فلم يعمل هذا العامل العقليّ فيه على سلامته. ومن هنا، فإنّ القرآن الكريم يعرِّف العقل بما ينتفع به الإنسان في دينه، ويركب به هداه إلى حقائق المعارف وصالح العمل: كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ

يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]؛ فبالبيان يتمّ العلم، والعلم مقدّمة للتعقّل ووسيلة إليه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[2]، فإذا لم يجرِ العقل على هذا المجرى وينتفع من البيان والعلم؛ فلا يسمّى عقلاً بمنطق القرآن: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[3]، ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[4]. ونكتة الترديد بين السمع والعقل في الآية من جهة أنّ وسيلة الإنسان إلى سعادة الحياة أحد أمرين: إمّا أن يستقلّ بالتعقّل، فيعقل الحقّ، فيتبعه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[5]، وإمّا أن يرجع إلى قول مَنْ يعقله وينصحه، فيتّبعه إنْ لم يستقلّ بالتعقّل؛ فالطريق إلى الرشد: السمع أو العقل: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[6]؛ لأنّهم عطّلوا استعداد استماع الحقّ أو استعداد عقل الحقّ في أنفسهم؛ بفعل جحودهم وكفرهم وعنادهم؛ فحالهم كحال الأنعام والبهائم في عدم الانفعال بالتذكرة: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ﴾، في أنّها لا تعقل ولا تسمع إلا اللفظ دون المعنى، بل هم أسوأ حالاً منها: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾؛ وذلك أنّ الأنعام لا تقتحم ما يضرّها، وهؤلاء يرجّحون ما يضرّهم على ما ينفعهم، والأنعام كذلك إنْ ضلّت عن سبيل الحقّ؛ فإنّها لم تجهَّز في خِلقتها بما يهديها إليه، وهؤلاء مجهَّزون؛ وقد ضلّوا[7].

(1) سورة البقرة، الآية 242.
(2) سورة العنكبوت، الآية 43.
(3) سورة البقرة، الآية 171.
(4) سورة الفرقان، الآية 44.
(5) سورة البقرة، الآية 164.
(6) سورة الملك، الآية 10.
(7) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج2، ص249-250؛ ج15، ص224. (بتصرّف)

2. دور العقل في تحقّق الإنسان بالإنابة والذِكْر والحكمة:

قال تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

الألباب: جمع لبّ؛ وهو العقل الزكيّ الخالص من الشوائب. وسبب تسميته بذلك؛ أنّه في الإنسان بمنزلة اللبّ من القشر. وعلى هذا المعنى استُعمِل في القرآن، وكأنّ لفظ العقل بمعناه المعروف اليوم من الأسماء المستحدثة بالغلبة. ولذلك لم يُستعمل في القرآن، وإنّما استُعمل منه الأفعال؛ مثل: «**يعقلون**». وقد مدح الله تعالى أولي الألباب مدحاً جميلاً في موارد من كلامه، وعرّفهم بأنّهم أهل الإيمان بالله والإنابة إليه واتّباع أحسن القول، ثمّ وصفهم بأنّهم على ذِكْر من ربّهم دائماً، فأعقب ذلك أنّهم أهل التذكّر، أي الانتقال إلى المعارف الحقّة بالدليل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2]، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3]. فهذا الذِكْر الدائم، وما يتبعه من التذلّل والخضوع؛ هو الإنابة الموجبة لتذكّرهم بآيات الله وانتقالهم إلى المعارف الحقّة: ﴿... وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[4]، ﴿... وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[5]، وصيرورتهم بذلك من أهل الحكمة والمعرفة: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[6].

والحكمة هي القضايا الحقّة المطابقة للواقع؛ من حيث اشتمالها بنحو ما على سعادة الإنسان؛ كالمعارف الحقّة الإلهيّة في المبدأ والمعاد، والمعارف التي تشرح حقائق العالم الطبيعيّ من جهة مساسها بسعادة الإنسان؛ كالحقائق الفطريّة التي هي أساس

(1) سورة آل عمران، الآية 190.
(2) سورة الزمر، الآيتان 17-18.
(3) سورة آل عمران، الآية 190.
(4) سورة غافر، الآية 13.
(5) سورة البقرة، الآية 269؛ سورة آل عمران، الآية 7.
(6) سورة البقرة، الآية 269.

التشريعات الدينيّة. وعليه، فاقتناص الحكمة يتوقّف على التذكّر، والتذكّر يتوقّف على العقل؛ فلا حكمة لمن لا عقل له[1].

3. تنمية العقل بالعلم والمعرفة:

أرشد القرآن الكريم إلى ضرورة تنمية العقل بالعلم والمعرفة الصحيحين والنافعين؛ لما لذلك من آثار وبركات عظيمة على تكامل الإنسان وتدرّجه في مدارج القرب من الله تعالى: ﴿... يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[2].

ولا ريب في أنّ لازم رفعه تعالى درجة عبد من عباده؛ مزيد قربه منه تعالى، وهذا قرينة عقليّة على أنّ المراد بهؤلاء الذين أوتوا العلم العلماء من المؤمنين، فتدلّ الآية على انقسام المؤمنين إلى طائفتين: مؤمن، ومؤمن عالم. والمؤمن العالم أفضل: ﴿... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[3]. ومع أنّ العلم وعدمه مطلقان، لكنّ المراد بهما، بحسب ما ينطبق على مورد الآية؛ العلم بالله وعدمه والشهادة بوحدانيّته من خلال ما يشاهدونه من آياته الآفاقيّة والأنفسيّة، وقد ملأت مشاعرهم ورسخت في عقولهم؛ فإنّ ذلك هو الذي يكمل به الإنسان وينتفع بحقيقة معنى الكلمة ويتضرّر بعدمه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[4]، وغيره من العلم؛ كالمال ينتفع به في الحياة الدنيا ويفنى بفنائها. وفي توصيف أهل العلم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾؛ أي ذوو العقول؛ لإفادة تعليل عدم تساوي الفريقين؛ بأنّ أحد الفريقين يتذكّر حقائق الأمور، دون الفريق الآخر؛ فلا يستويان، بل يترجّح الذين يعلمون على غيرهم: ﴿أَفَمَن

(1) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج2، ص395-396؛ ج3، ص29. (بتصّرف)
(2) سورة المجادلة، الآية 11.
(3) سورة الزمر، الآية 9.
(4) سورة آل عمران، الآية 18.

يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾[1]؛ لأنّ الحقّ يستقرّ في قلوب هؤلاء الذين استجابوا لربّهم، فتصير قلوبهم ألباباً وقلوباً حقيقيّة؛ لها آثارها وبركاتها؛ وهو التذكّر، والتبصّر. وقد جاء الاستفهام في الآية لإفادة الإنكار ونفي التساوي بين من استقرّ في قلبه العلم بالحقّ، ومن جهل الحقّ. وفي توصيف الجاهل بالحقّ بالأعمى إيماء إلى أنّ العالم به، أي بالحقّ، هو بصير: ﴿... قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾[2]؛ فالعلم بالحقّ بصيرة، والجهل به عمى. والتبصّر يفيد التذكّر؛ ولذا عدّه من خواصّ أولي العلم: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ الذي هو في مقام التعليل لما سبقه: ﴿ أَفَمَن يَعۡلَمُ ﴾؛ والمراد أنّهما لا يستويان؛ لأنّ لأولي العلم تذكّراً ليس لأولي العمى والجهل. وقد وضع في موضع أولي العلم أولو الألباب؛ فدلّ على دعوى أخرى تفيد فائدة التعليل؛ كأنّه قيل لا يستويان؛ لأنّ لأحد الفريقين تذكّراً ليس للآخر، وإنّما اختصّ التذكّر بهم؛ لأنّ لهم ألباباً وقلوباً، وليس ذلك لغيرهم: ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ...﴾[3]؛ ﴿... فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثًا ﴾[4]. وبذلك يتبيّن أنّ ما ذُكِرَ مِنْ رَفع الدرجات في قوله تعالى: ﴿... يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ مخصوص بالذين أوتوا العلم، ويبقى لسائر المؤمنين من الرفع؛ الرفع درجة واحدة، ويكون التقدير: يرفع الله الذين آمنوا منكم درجة، ويرفع الذين أوتوا العلم منكم درجات[5].

(1) سورة الرعد، الآية 19.
(2) سورة الأنعام، الآية 50.
(3) سورة النجم، الآيتان 29-30.
(4) سورة النساء، الآية 78.
(5) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج3، ص114-115؛ ج11، ص341-342؛ ج17، ص243؛ ج19، 188-189. (بتصرّف)

الأفكار الرئيسة:

1. يُطلَق لفظ العقل على الإدراك؛ من حيث إنّ فيه عَقْد القلب بالتصديق، على ما جَبَل الله سبحانه الإنسان عليه من إدراك الحقّ والباطل في الأمور النظريّة، والخير والشرّ والمنافع والمضارّ في الأمور العمليّة.
2. يعرِّف القرآن الكريم العقل بما ينتفع به الإنسان في دينه، ويركب به هداه إلى حقائق المعارف وصالح العمل؛ فإذا لم يجرِ العقل على هذا المجرى وينتفع من البيان والعلم؛ فلا يسمّى عقلاً بمنطق القرآن.
3. اقتناص الحكمة يتوقّف على التذكّر، والتذكّر يتوقّف على العقل؛ فلا حكمة لمن لا عقل له.
4. أرشد القرآن الكريم إلى ضرورة تنمية العقل بالعلم والمعرفة الصحيحين والنافعين؛ لما لذلك من آثار وبركات عظيمة على تكامل الإنسان وتدرّجه في مدارج القرب من الله تعالى.

فكّر وأجب:

1. ما هي حقيقة العقل في القرآن الكريم؟ وما هي خصائصه؟
2. ما هو دور العقل في تحقّق الإنسان بالذِكْر والإنابة والحكمة؟
3. بيّن كيف أرشد القرآن الكريم إلى تنمية العقل.

مطالعة:

فضل العقل ومكانته في السنّة الشريفة:

وردت في السنّة الشريفة روايات كثيرة تؤكّد فضل العقل وأهميّته في حياة الإنسان، ومسيره نحو السعادة الحقيقيّة، ومن هذه الروايات:

- ما رُوي عن رسول الله ﷺ: «قوام المرء عقله، ولا دين لمن لا عقل له»[1].
- ما رُوي عنه ﷺ - أيضاً -: «ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل، ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل، ويكون عقله أفضل من جميع عقول أمّته، وما يضمر النبيّ في نفسه أفضل من اجتهاد المجتهدين، وما أدّى العبد فرائض الله حتى عقل عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل، والعقلاء هم أولو الألباب، الذين قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾»[2].
- ما رُوي عن الإمام عليّ عليه السلام: «من قعد به العقل قام به الجهل»[3].
- ما رُوي عن الإمام الباقر عليه السلام: «لمّا خلق الله العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزّتي ما خلقت خلقاً أحسن منك، إيّاك آمر، وإيّاك أنهى، وإيّاك أثيب وإيّاك أعاقب»[4].

(1) المجلسي، بحار الأنوار، م.س، ج1، كتاب العقل والعلم والجهل، باب فضل العقل وذم الجهل، ح19، ص94.
(2) م.ن، ح12، ص91.
(3) م.ن، ج40، ص165.
(4) الحرّ العاملّي، محمد بن الحسن: وسائل الشيعة، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط2، قمّ المقدّسة، مطبعة مهر، 1414هـ.ق، ج1، باب 3 من أبواب مقدّمة العبادات، ح2، ص39-40.

الدرس الثالث عشر

البيّنة الثالثة عشرة
«عناية القرآن بحماية العقل وصيانته»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف أبرز المفاسد التي تعطّل العقل وتمنعه عن أداء دوره في هداية الإنسان.
2. يدرك أهمّيّة صيانة العقل وحمايته في سلامة السير التكامليّ للإنسان.
3. يوِّظف هذه المعرفة في تحصين النفس من الوقوع في هذه المفاسد.

شدّد القرآن الكريم على ضرورة إزالة كلّ الموانع التي تعترض طريق العقل عن التأثير في الوصول إلى تحقيق الأهداف الإلهيّة من الخَلْق، والعبور إلى الحياة الحقيقية الخالدة؛ وذلك من خلال تحريمه كلّ ما مِنْ شأنه أن يعطّل العقل ويزيله عن الإدراك والتفكّر؛ من طعام وشراب وأفعال، ومن المفاسد التي ذكرها في هذا الصدد:

1. مفسدة الخمر:

الخمر هو كلّ مائع معمول للسكر. والأصل في معناه الستر؛ وسُمّي به لأنّه يستر العقل ولا يدعه يميّز الحسن من القبح، والخير من الشرّ. وقد كانت العرب لا تعرف من أقسامه إلا الخمر المعمول من العنب والتمر والشعير، ثمّ زاد الناس في أقسامه تدريجاً، فصارت اليوم أنواعاً كثيرة ذات مراتب؛ بحسب درجات السكر؛ والجميع خمر.

أ. مكامن الفساد في الخمر:

إنّ لشرب الخمر مضرّاته الطبّيّة وآثاره السيّئة، في المعدة والأمعاء، والكبد والرئة، وسلسلة الأعصاب والشرايين، والقلب والحواسّ؛ كالباصرة والذائقة، وغيرها من أعضاء الجسم وخواصّه التي تتأثّر سلباً بفعل شرب الخمر؛ وهذا ما بيّنه علماء الطبّ قديماً وحديثاً، ولهم في ذلك إحصاءات عجيبة تكشف عن كثرة المبتلين بأنواع الأمراض المهلكة بفعل هذا الشراب الخبيث.

وأمّا مضرّاته الخُلُقيّة؛ من تشويه الخُلُق وتأديته الإنسان إلى الفحش، والإضرار، والجنايات، والقتل، وإفشاء السرّ، وهتك الحرمات، وإبطال جميع القوانين والنواميس الإنسانيّة التي بُنيت عليها أساس سعادة الحياة، وخاصّة ناموس العفّة في الأعراض

والنفوس والأموال، فلا عاصم من سكران لا يدري ما يقول ولا يشعر بما يفعل.

وأمّا مضرّته في الإدراك وسلبه العقل وتصرّفه غير المنتظم في أفكار الإنسان، وتغييره مجرى الإدراك حين السكر وبعد الصحو؛ فممّا لا ينكره منكر؛ وذلك أعظم ما فيه من الإثم والفساد، ومنه ينشأ جميع المفاسد الأخرى.

وقد وضعت الشريعة الإسلاميّة أساس أحكامها على التحفّظ على العقل السليم، ونهت عن الفعل المبطل لعمل العقل أشدّ النهي؛ ومن أشدّ الأفعال إبطالاً لحكومة العقل وسلامته هو شرب الخمر[1].

ب. تحريم الخمر:

وردت في الخمر آيات عدّة تبيّن مضارّه ومفاسده على الجسد والروح، وتحرّم شربه والتداول به. ولمّا لم يزل الناس بقريحتهم الحيوانيّة يميلون إلى لذائذ الشهوة، فتشيع بينهم الأعمال الشهوانيّة بنحو أسرع من شيوع الحقّ والحقيقة، وتنعقد بينهم العادات على تناولها ويشقّ عليهم تركها والجري على نواميس السعادة الإنسانيّة؛ لذا، شرع الله سبحانه تعالى فيهم ما شرع من الأحكام على سبيل التدريج، وكلّفهم بالرفق والإمهال. ومن جملة تلك العادات الشائعة السيّئة شرب الخمر، فقد أخذ الشارع الكريم في تحريمه بالتدريج؛ على ما يعطيه التدبّر في الآيات المتعلّقة بالخمر؛ وهي وفق ترتيب نزولها:

- قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

وهذه الآية مكّيّة حرّم الله تعالى فيها الإثم صريحاً، وفي الخمر إثمٌ، غير أنّه لم يبيّن ما هو الإثم، وأنّ في الخمر إثماً كبيراً. ولعلّ ذلك كان نوعاً من الإرفاق والتسهيل؛ لما في السكوت عن البيان من الإغماض؛ كما يشعر به - أيضاً - قوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾[3]، وهذه الآية مكّيّة - أيضاً -،

(1) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص191-193. (بتصّرف)

(2) سورة الأعراف، الآية 33.

(3) سورة النحل، الآية 67.

وكأنّ الناس لم يكونوا متنبّهين إلى ما فيه من الحرمة الكبيرة؛ حتى نزلت الآية 43 من سورة النساء.

- قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[1]. وهذه الآية مدنيّة؛ وهي تمنع الناس بعض المنع عن الشرب والسكر في أفضل الحالات وفي أفضل الأماكن؛ وهي الصلاة في المسجد. والاعتبار وسياق الآية الشريفة يأبيان أن تنزل بعد آية البقرة وآيتي المائدة؛ فإنّهما تدلّان على النهي المطلق - كما سيأتي بيان ذلك -، ولا معنى للنهي الخاصّ بعد ورود النهي المطلق، على أنّه ينافي التدريج المفهوم من هذه الآيات، فإنّ التدريج سلوك من الأسهل إلى الأشقّ، لا بالعكس.
- قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾[2]. وتشتمل هذه الآية على التحريم؛ لدلالتها القطعيّة على الإثم في الخمر بقوله تعالى: ﴿فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾، وقد تقدّم نزول آية سورة الأعراف المكّيّة الصريحة في تحريم الإثم؛ مطلق الإثم، وهذه الآية قيّدت الإثم بالكبر، ولا يبقى مع ذلك ريب لذي ريب في أنّ الخمر فرد تامّ ومصداق كامل للإثم لا ينبغي الشكّ في كونه من الإثم المحرّم.
- قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[3]. وهذه آخر ما نزل في تحريم الخمر تحريماً صريحاً؛ وفيه إشارة إلى أنّ المسلمين لم يكونوا منتهين بعد نزول آية سورة البقرة عن شرب الخمر، ولم ينتزعوا عنه بالكلّيّة؛ حتى نزلت هذه الآية[4].

(1) سورة النساء، الآية 43.
(2) سورة البقرة، الآية 219.
(3) سورة المائدة، الآيتان 90 - 91.
(4) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص193-195. (بتصّرف)

2. مفسدة اتّباع الهوى:

ذمّ القرآن الكريم اتّباع الهوى وحذّر من آثاره السلبيّة في سلوك الإنسان ومشروع تكامله، من خلال تعطيله للعقل عن أداء دوره في إمامة الجوارح، وتعديله بين قوى النفس، وضمان عدم طغيان بعضها على البعض الآخر، وترشيده لسلوك الإنسان في سيره نحو الكمال؛ بما يُخرِج متّبع الهوى عن جادّة الحقّ والصواب، ويهوي به في ظلمات الحرمان والخسران المبين. ومن الآيات التي وردت في هذا الصدد:

- قوله تعالى: ﴿... وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾[1].
- قوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ﴾[2].
- قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].
- قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[4].
- قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[5].
- قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[6].

3. مفسدة التقليد الأعمى:

حذّر القرآن الكريم من التقليد الأعمى بغير علم ولا دليل ولا بيّنة؛ لأنّه يؤدّي إلى تعطيل

(1) سورة ص، الآية 26.
(2) سورة النساء، الآية 135.
(3) سورة الأعراف، الآيتان 175-176.
(4) سورة الفرقان، الآية 43.
(5) سورة القصص، الآية 50.
(6) سورة الجاثية، الآية 23.

دور العقل في ترشيد سلوك الإنسان تجاه ما عليه أن يفعله أو لا يفعله من قضايا ومواقف يواجهها في حياته ويتوجّب عليه اتّخاذ قرار مسلكيّ فيها؛ بما يلازم الحقّ والصواب ويعاند الباطل والخطأ. ومن الآيات التي وردت في هذا الصدد:

- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[1].
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾[2].
- قوله تعالى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾[3].
- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[4].

4. مفسدة العصبيّة المفرطة:

إنّ العصبيّة المفرطة التي ينتهجها الإنسان في تعامله مع الوقائع والقضايا التي تعترضه في حياته، تؤدّي إلى حدوث آثار سلبيّة لا تُحمَد عقباها؛ لأنّ اتّخاذ أيّ قرار مسلكيّ يتعلّق بحياة الإنسان لا بدّ من أن يخضع للتدبّر والتفكّر من جميع جوانبه، وما يمكن أن يترتّب عليه من آثار. ووحده العقل هو القادر على أداء هذا الدور؛ بوصفه المعيار الحقيقيّ والواقعيّ المميّز بين الحقّ والباطل والصواب والخطأ. وأمّا العصبيّة المفرطة فهي معيار زائف موهوم، تسقط نفسها على الإنسان وتعصف بحياته، ولا تدع للعقل مجالاً ليحكم فيه.

(1) سورة لقمان، الآية 21.
(2) سورة البقرة، الآية 170.
(3) سورة الزخرف، الآيتان 22-23.
(4) سورة التوبة، الآية 23.

ومن هذه العصبيّات المفرطة، التعصّب للجنس، أو اللون، أو العرق، أو القبيلة، أو العائلة، أو غيرها من المعايير الزائفة التي لا تصلح في مقام التفاضل بين بني الإنسان، أو التعصّب للطائفة أو المذهب من دون وجه حقّ ولا دليل ولا برهان. وقد نهى القرآن الكريم عن هذه العصبيّات مطلقاً. بوصفها معطّلة للعقل عن أداء دوره في ترشيد سلوك الإنسان، وضمان سلامة سيره في طريق التكامل. ومن الآيات التي وردت في هذا الصدد:

- قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[1].
- قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ...﴾[2].
- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[3].
- قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[4].
- قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[5].
- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾[6].

(1) سورة الأعراف، الآية 12.
(2) سورة الفتح، الآية 26.
(3) سورة الحجرات، الآية 13.
(4) سورة آل عمران، الآية 75.
(5) سورة البقرة، الآية 113.
(6) سورة البقرة، الآيات 11-13.

الأفكار الرئيسة:

1. شدّد القرآن الكريم على ضرورة إزالة كلّ الموانع التي تعترض طريق العقل عن التأثير في الوصول إلى تحقيق الأهداف الإلهيّة من الخَلْق، والعبور إلى الحياة الحقيقيّة الخالدة؛ وذلك من خلال تحريمه كلّ ما مِنْ شأنه أن يعطّل العقل ويزيله عن الإدراك والتفكّر؛ من طعام، وشراب، وأفعال.
2. وردت في الخمر آيات عدّة تبيّن مضارّه ومفاسده على الجسد والروح، وتحرّم شربه والتداول به.
3. ذمّ القرآن الكريم اتّباع الهوى وحذّر من آثاره السلبيّة في سلوك الإنسان ومشروع تكامله؛ لأنّه يُخرِجه عن جادّة الحقّ والصواب، ويهوي به في ظلمات الحرمان والخسران المبين.
4. حذّر القرآن الكريم من التقليد الأعمى بغير علم ولا دليل ولا بيّنة؛ لأنّه يؤدّي إلى تعطيل دور العقل في ترشيد سلوك الإنسان.
5. نهى القرآن الكريم عن العصبيّة؛ بوصفها معطّلة للعقل عن أداء دوره في ترشيد سلوك الإنسان، وضمان سلامة سيره في طريق التكامل.

فكّر وأجب:

1. تكلّم عن حرمة الخمر ومفاسده، وفق ما بيّنه القرآن الكريم.
2. كيف بيّن القرآن الكريم مانعيّة اتّباع الهوى والتقليد الأعمى لعمل العقل؟
3. وضّح مانعيّة العصبيّة المفرطة للعقل عن أداء دوره؛ وفق ما بيّنه القرآن الكريم؟

مطالعة:

علّة مفسدة الخمر للعقل في السنّة الشريفة:

وردت في السنّة الشريفة روايات عدّة بيّنت مفاسد الخمر وآثاره السلبيّة، وعلّة تحريمه من قِبَل الشارع؛ منها:

- ما رُوي عن الإمام الرضا عليه السلام: «**حرّم الله عزّ وجلّ الخمر لما فيها من الفساد، ومن تغييرها عقول شاربيها، وحملها إيّاهم على إنكار الله عزّ وجلّ، والفرية عليه وعلى رسله، وسائر ما يكون منهم من الفساد والقتل والقذف والزنا وقلّة الاحتجاز عن شيء من المحارم. فبذلك قضينا على كلّ مسكر من الأشربة أنّه حرام محرّم؛ لأنّه يأتي من عاقبته ما يأتي من عاقبة الخمر، فليجتنّب من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويتولّانا وينتحل مودّتنا، كل شراب مسكر، فإنّه لا عصمة بيننا وبين شاربه**»[1].
- ما رواه المفضّل بن عمر، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام لِمَ حرّم الله الخمر؟ قال: «**حرّم الله الخمر لفعلها وفسادها؛ لأنّ مدمن الخمر تورثه الارتعاش، وتذهب بنوره، وتهدم مروّته، وتحمله على أن يجترئ على ارتكاب المحارم، وسفك الدماء، وركوب الزنا، ولا يُؤمَن إذا سكر أن يثب على حرمه، ولا يعقل ذلك ولا يزيد شاربها إلا كلّ شرّ**»[2].
- ما رواه أبو بكر الحضرميّ، عن أحدهما (عليهما): «**الغناء عشّ النفاق، والشرب مفتاح كلّ شرّ، ومدمن الخمر كعابد الوثن؛ مكذّب بكتاب الله، لو صدَّق كتاب الله لحرّم حرام الله**»[3].

(1) ابن بابويه، محمّد بن عليّ (الصدوق): علل الشرائع، تقديم: محمّد صادق بحر العلوم، لا.ط، النجف الأشرف، المكتبة الحيدريّة، 1385هـ.ق/ 1966م، ج2، باب علّة تحريم الخمر، ح1، ص 475 – 476.

(2) م.ن، ح2، ص 476.

(3) م.ن، ح3.

الدرس الرابع عشر

البيّنة الرابعة عشرة
«عناية القرآن بالقلب»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يعرف حقيقة القلب وخصائصه.

2 . يدرك أهمّيّة دور القلب في سير الإنسان نحو مقصده الأخرويّ.

3 . يشرح أفعال الله تعالى في القلوب.

1. حقيقة القلب:

إنّ المتأمّل في آيات القرآن الكريم التي تعرّضت لذِكْر القلب وشأنه وصفاته وأفعاله، يجد أنّ المراد به ليس الكتلة الصنوبريّة الموجودة في جسد الإنسان، بل المراد به هو حقيقة الإنسان؛ بمعنى النفس والروح؛ فإنّ التعقّل والتفكّر والحبّ والبغض والخوف والرجاء وأمثال ذلك، وإنْ أمكن أن ينسبها أحد إلى القلب؛ باعتقاد أنّه العضو المُدرِك في البدن، على ما قد يعتقده الفهم العامّيّ للناس؛ كما ينسب السمع إلى الأذن والإبصار إلى العين، والذوق إلى اللسان، لكنّ الكسب والاكتساب ممّا لا يُنسب إلا إلى الإنسان حصراً: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾[1]؛ ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ﴾[2]، ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾[3]. والظاهر أنّ الإنسان لمّا شاهد نفسه وسائر أصناف الحيوان وتأمّل فيها، ورأى أنّ الشعور والإدراك ربّما بطل أو غاب عن الحيوان؛ بإغماء أو صرع أو نحوهما، والحياة المدلول عليها بحركة القلب ونبضانه باقية؛ بخلاف القلب؛ قطع على أنّ مبدأ الحياة هو القلب؛ أي إنّ الروح التي يعتقدها في الحيوان أوّل تعلّقها بالقلب، وإنْ سرت منه إلى جميع أعضاء الحياة، وإنّ الآثار والخواصّ الروحيّة؛ كالإحساسات الوجدانيّة؛ مثل الشعور والإرادة والحبّ والبغض والرجاء والخوف، وأمثال ذلك، كلّها للقلب؛ بعناية أنّه أوّل متعلّق للروح، وهذا لا ينافي

(1) سورة البقرة، الآية 225.

(2) سورة البقرة، الآية 283.

(3) سورة ق، الآية 33.

كون كلّ عضو من الأعضاء مبدئاً لفعله الذي يختصّ به؛ كالدماغ للفكر، والعين للإبصار، والسمع للوعي، والرئة للتنفس، ونحو ذلك؛ فإنّها جميعاً بمنزلة الآلات التي يفعل بها الإنسان الأفعال المحتاجة إلى توسيط الآلة. وبذلك يظهر سبب إسنادهم الإدراك والشعور وما لا يخلو عن شوب إدراك إلى القلب؛ ومرادهم به الروح المتعلّقة بالبدن أو السارية فيه بواسطته، فينسبونها إليه كما ينسبونها إلى الروح، وكما ينسبونها إلى أنفسهم؛ يقال: أحببته، وأحبّته روحي، وأحبّته نفسي، وأحبّه قلبي. ثمّ استقرّ التجوّز في الاستعمال، فأطلق القلب وأريد به النفس مجازاً؛ وربّما تَعدّوا عنه إلى الصدر، فجعلوه لاشتماله على القلب مكاناً لأنحاء الإدراك والأفعال والصفات الروحيّة: ﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾[1]، ﴿أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ﴾[2]، ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾[3]؛ وهو كناية عن ضيق الصدر، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[4]، وليس من البعيد أن تكون هذه الإطلاقات في كتابه تعالى إشارة إلى تحقيق هذا النظر، وإنْ لم يتّضح كلّ الاتّضاح بعد، وقد رجّح الشيخ أبو عليّ بن سينا كون الإدراك للقلب؛ بمعنى أنّ دخالة الدماغ فيه دخالة الآلة، فللقلب الإدراك، وللدماغ الوساطة[5].

فالقلب هو تلك اللطيفة الربّانيّة الروحيّة التي أودعها الله تعالى في الإنسان وفطره عليها مشتملة على خصائص ثلاث؛ هي:

- **التعقُّل والإدراك للأشياء؛** من خلال التفكّر والتدبّر والنظر والتحليل والتركيب والتجزئة والاستنتاج...؛ وهذا هو الجانب المعرفيّ والإدراكيّ في القلْب؛ وهو نفسه المراد بالعقل؛ وهو مانع للإنسان ورادع له عن تعدّي الحدود: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ

(1) سورة الأنعام، الآية 125.
(2) سورة الحجر، الآية 97.
(3) سورة الأحزاب، الآية 10.
(4) سورة المائدة، الآية 7.
(5) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج2، ص223-225. (بتصّرف)

قَلْبٌ﴾[1]، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[2]، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[3].

- **الشعور والوجدان؛** من خلال الحبّ والبغض، والفرح والحزن، والأمل واليأس، والخوف والرجاء...؛ وهذا هو الجانب العاطفيّ والانفعاليّ في القلب؛ وهو الذي يدفع الإنسان نحو إرادة الأشياء أو إرادة تجنّبها: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾[4].
- **العزم والسلوك؛** من خلال التحرّك نحو الأشياء والسلوك إليها، أو الابتعاد عنها وتجنّبها. فبعد إدراك الأشياء بالتعقّل، وتولّد الإرادة بالشعور والوجدان؛ يصدر القلب الأوامر بالعزم على السلوك والتحرّك إلى الأشياء أو تجنّبها؛ وهذا هو الجانب السلوكيّ في القلب؛ وهو الذي يدفع الإنسان إلى سلوك منهج ما: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[5].

ولهذا القلب استعداد لنيل الفيوضات الإلهيّة وإدراك الحقائق الغيبيّة؛ إذا ما التزم الإنسان بتفعيله وفق ما أراده الله تعالى له من الإدراك والانفعال والسلوك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[6]؛ فيصبح بذلك قلباً إلهيّاً رحمانيّاً قابلًا للفيض الإلهيّ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[7]، سالكاً بالإنسان إلى الحياة الحقيقيّة: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[8].

(1) سورة ق، الآية 37.
(2) سورة الأعراف، الآية 179.
(3) سورة الحج، الآية 46.
(4) سورة الحجرات، الآية 7.
(5) سورة البقرة، الآية 225.
(6) سورة الأنفال، الآية 24.
(7) سورة الشعراء، الآيتان 193-194.
(8) سورة الشعراء، الآية 88-89.

2. خصائص القلب:

أورد القرآن الكريم جملة من الصفات والأحوال والشؤون والأفعال المختصّة بالقلب، يمكن إيرادها وفق التقسيم الآتي[1]:

أ. ما يتعلّق بالجانب المعرفيّ والإدراكيّ من القلب: وهي ما ذكره القرآن الكريم من خواصّ القلوب لجهة الإدراك والتعقّل؛ منها:

- التعقّل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾[2].
- التدبُّر: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾[3].
- التفقّه: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[4].
- الاهتداء: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[5].
- العلم: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[6].
- الظنّ: ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾[7].
- الزيغ: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾[8].
- العمى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[9].
- الإنكار: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[10].

---

(1) تبصرة: لا بدّ من الإشارة إلى أنّ بعض الآيات المندرجة في هذا التقسيم، قد يستفاد منها في أكثر من قسم منه؛ فمثلًا يمكن أن تكون بعض الآيات بصدد بيان خاصّيّة الانفعال العاطفيّ والوجدانيّ للقلب، وكذلك بيان خاصّيّة سلوك هذا القلب وما استقرّ عليه أمره.

(2) سورة الحج، الآية 46.

(3) سورة محمد، الآية 24.

(4) سورة الأعراف، الآية 179.

(5) سورة التغابن، الآية 11.

(6) سورة الروم، الآية 59.

(7) سورة الفتح، الآية 12.

(8) سورة التوبة، الآية 117.

(9) سورة الحجّ، الآية 46.

(10) سورة النحل، الآية 22.

ب.ما يتعلّق بالجانب الانفعاليّ والوجدانيّ من القلب: وهي ما ذكره القرآن الكريم من خواصّ القلوب لجهة الانفعال والوجدان؛ منها:

- الغِلْظة: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[1].
- الإنابة: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[2].
- التقلُّب: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾[3].
- الاشمئزاز: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾[4].
- الرأفة والرحمة: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾[5].
- الوَجْفُ (الانزعاج): ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾[6].
- الصَغْو (الميل والانحراف): ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[7].
- الحبّ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[8].
- الوَجَل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[9].
- التآلف: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾[10].
- الإباء: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[11].
- الغيظ: ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾[12].
- الريبة (الشكّ مع خوف): ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾[13].

(1) سورة آل عمران، الآية 159.
(2) سورة ق، الآية 33.
(3) سورة النور، الآية 37.
(4) سورة الزمر، الآية 45.
(5) سورة الحديد، الآية 27.
(6) سورة النازعات، الآية 8.
(7) سورة التحريم، الآية 4.
(8) سورة الحجرات، الآية 7.
(9) سورة الأنفال، الآية 2.
(10) سورة الأنفال، الآية 63.
(11) سورة التوبة، الآية 8.
(12) سورة التوبة، الآية 15.
(13) سورة التوبة، الآية 110.

- الإخبات: ﴿فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾[1].
- الرعب: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾[2].
- اللين: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[3].
- الحميّة: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾[4].
- الخشوع: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[5].
- التعمُّد: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[6].
- الغِلُّ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[7].
- الشرب: ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[8].
- الحسرة: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾[9].
- اللهو: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾[10].

ج. ما يتعلّق بالجانب السلوكيّ والعمليّ من القلب: وهي ما ذكره القرآن الكريم من خواصّ القلوب لجهة السلوك والعمل، وما استقرّ عليه القلب؛ منها:

- السلامة: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[11].
- الإثم: ﴿وَلَا تَكْتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾[12].
- الاطمئنان: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[13].

(1) سورة الحج، الآية 54.
(2) سورة الأحزاب، الآية 26.
(3) سورة الزمر، الآية 23.
(4) سورة الفتح، الآية 26.
(5) سورة الحديد، الآية 16.
(6) سورة الأحزاب، الآية 5.
(7) سورة الحشر، الآية 10.
(8) سورة البقرة، الآية 93.
(9) سورة آل عمران، الآية 156.
(10) سورة الأنبياء، الآية 3.
(11) سورة الشعراء، الآية 89.
(12) سورة البقرة، الآية 283.
(13) سورة النحل، الآية 106.

- المرض: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾[1].
- التقوى: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[2].
- السكينة: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ﴾[3].
- القسوة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾[4].
- الكسب: ﴿وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ﴾[5].
- الطُّهر: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ﴾[6].
- الإيمان: ﴿وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ﴾[7].
- الغلف والطبع (التغليف والختم): ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[8].
- النفاق: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾[9].

3. أفعال الله تعالى في القلوب:

بيّن القرآن الكريم جملة من أفعال الله تعالى بالقلوب؛ لجهة هدايتها أو إضلالها[10]،

(1) سورة البقرة، الآية 10.
(2) سورة الحج، الآية 32.
(3) سورة الفتح، الآية 4.
(4) سورة البقرة، الآية 74.
(5) سورة البقرة، الآية 225.
(6) سورة الأحزاب، الآية 53.
(7) سورة المائدة، الآية 41.
(8) سورة النساء، الآية 155.
(9) سورة التوبة، الآية 77.
(10) تبصرة: تجدر الإشارة إلى أنّ الإنسان هو الذي يهيّىء لنفسه استحقاق الهداية والضلال بإرادته واختياره؛ حيث تعلّقت إرادة الله تعالى بأنّ يكون الإنسان هو المختار لمصيره لجهة الهداية أو الضلال: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (سورة الكهف، الآية 29)، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (سورة الإنسان، الآية 3)، ولكنّ أمر الهداية والضلال وتحقّقهما في الإنسان يرجع إلى الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ (سورة الرعد، الآية 27)؛ لجهة إفاضة الهداية على من استحقّها بسعيه وعمله، وإلباس الضلال لمن حرم نفسه من الهداية بكسبه وإثمه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (سورة محمد، الآية 17)، ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ (سورة الصفّ، الآية 5). وهذا مقتضى التوحيد الأفعاليّ؛ وأنّه لا مؤثّر في الوجود إلا الله تعالى.

ويمكن إيرادها وفق التقسيم الآتي:

أ. أفعال الله تعالى في القلب الرحمانيّ: وهي ما ذكره القرآن الكريم من خواصّ القلوب الرحمانيّة؛ لجهة ما استقرّت عليه من الهداية والعناية الإلهيّة؛ منها:

- الإنزال (الفيض): ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[1].
- الربط (التثبيت): ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].
- التأليف (الجمع): ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[3].
- التمحيص (الامتحان): ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾[4].
- التزيين: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[5].
- التطهير: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾[6].
- الكتابة (الإيجاد): ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[7].
- الشرح: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[8].

ب. أفعال الله تعالى في القلب الشيطانيّ: وهي ما ذكره القرآن الكريم من خواصّ القلوب الشيطانيّة؛ لجهة ما استقرّت عليه من الضلال؛ منها:

- الطبع: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[9].

(1) سورة البقرة، الآية 97.
(2) سورة القصص، الآية 10.
(3) سورة آل عمران، الآية 103.
(4) سورة آل عمران، الآية 154.
(5) سورة الحجرات، الآية 7.
(6) سورة المائدة، الآية 41.
(7) سورة المجادلة، الآية 22.
(8) سورة الأنعام، الآية 125.
(9) سورة غافر، الآية 35.

- الختم: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ﴾[1].
- الإلقاء: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ﴾[2].
- السَّلْك (الإيراد): ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾[3].
- الإقفال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾[4].
- التقطُّع (التجزّؤ والتفرّق): ﴿إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾[5].
- الصرف: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾[6].
- الشدُّ (الضيق): ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾[7].
- القذف (إلقاء الرعب): ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾[8].
- الضيق: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[9].

(1) سورة الشورى، الآية 24.
(2) سورة آل عمران، الآية 151.
(3) سورة الشعراء، الآية 200.
(4) سورة محمد، الآية 24.
(5) سورة التوبة، الآية 110.
(6) سورة التوبة، الآية 127.
(7) سورة يونس، الآية 88.
(8) سورة الأحزاب، الآية 26.
(9) سورة الأنعام، الآية 125.

الأفكار الرئيسة:

1. المراد بالقلب في القرآن الكريم هو حقيقة الإنسان؛ بمعنى النفس والروح.
2. القلب هو تلك اللطيفة الربّانيّة الروحيّة التي أودعها الله تعالى في الإنسان وفطره عليها، مشتملة على خصائص ثلاث؛ هي: التعقُّل والإدراك للأشياء، والشعور والوجدان، والعزم والسلوك.
3. للقلب استعداد لنيل الفيوضات الإلهيّة وإدراك الحقائق الغيبيّة؛ إذا ما التزم الإنسان بتفعيله وفق ما أراده الله تعالى له من الإدراك والانفعال والسلوك.
4. أورد القرآن الكريم جملة من خصائص القلب الإدراكيّة والشعوريّة والسلوكيّة؛ منها: التعقّل، والتدبّر، والتفقّه، والحبّ، والوجل، والخشوع، والسلامة، والتقوى، والإيمان، ...
5. بيّن القرآن الكريم جملة من أفعال الله تعالى بالقلوب؛ لجهة هدايتها أو إضلالها؛ منها: التطهير، الربط، التأليف، الختم، الزيغ، الرعب، ...

فكّر وأجب:

1. بيّن المراد من القلب في القرآن الكريم.
2. تكلّم عن خصائص القلب في القرآن الكريم.
3. تكلّم عن خصائص أفعال الله تعالى بالقلوب.

مطالعة:

القلب في السنّة الشريفة:

وردت في السنّة الشريفة مجموعة من الروايات في حقيقة القلب وخصائصه؛ منها:

- ما رُوي عن رسول الله ﷺ: «**في الإنسان مضغة، إذا هي سلمت وصحّت سلم بها سائر الجسد، فإذا سقمت سقم بها سائر الجسد وفسد؛ وهي القلب**»[1].
- ما رُوي عنه ﷺ - أيضاً -: «**لولا أنّ الشياطين يحومون حول قلب ابن آدم؛ لنظر إلى الملكوت**»[2].
- ما رُوي عن الإمام عليّ عليه السلام: «**إنّ هذه القلوب أوعية، فخيرها أوعاها**»[3].
- ما رُوي عنه عليه السلام - أيضاً -: «**أفضل القلوب قلب حُشي بالفهم... أصل قوّة القلب التوكّل على الله. أصل صلاح القلب اشتغاله بذكر الله**»[4].
- ما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إنّ منزلة القلب من الجسد بمنزلة الإمام من الناس الواجب الطاعة عليهم، ألا ترى أنّ جميع جوارح الجسد شرط للقلب وتراجمة له، مؤدّية عنه الأذنان والعينان والأنف والفم واليدان والرجلان والفرج. فإنّ القلب إذا همّ بالنظر فتح الرجل عينيه، وإذا همّ بالاستماع حرّك أذنيه وفتح مسامعه فسمع، وإذا همّ القلب بالشمّ استنشق بأنفه، فأدّى تلك الرايحة إلى القلب، وإذا همّ بالنطق تكلّم باللسان، وإذا همّ بالبطش عملت اليدان، وإذا همّ بالحركة سعت الرجلان، وإذا همّ بالشهوة تحرّك الذكر، فهذه كلّها مؤدّية عن القلب بالتحريك، وكذلك ينبغي للإمام أن يطاع للأمر منه**»[5].

---

(1) ابن بابويه، محمّد بن عليّ (الصدوق): الخصال، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاريّ، قمّ المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، 1403هـ.ق/ 1362هـ.ش، ح109، ص31.

(2) الإحسائيّ، محمّد بن عليّ (ابن أبي جمهور): عوالي اللئالي، تحقيق: مجتبى العراقيّ، ط1، قمّ المقدّسة، مطبعة سيّد الشهداء، 1405هـ.ق/ 1985م، ج4، ص113.

(3) الشريف الرضّي، نهج البلاغة، م.س، ج4، الرسالة147، ص35.

(4) الليثيّ الواسطيّ، عليّ بن محمّد: عيون الحكم والمواعظ، تحقيق: حسين الحسينيّ البيرجندي، ط1، قمّ المقدّسة، دار الحديث، 1376هـ.ش، ص120.

(5) الصدوق، علل الشرائع، م.س، ج1، باب96، ح8، ص109.

- ما رُوي عنه عليه السلام - أيضاً - في معنى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، قال: **«القلب السليم الذي يلقى ربّه وليس فيه أحد سواه. وكلّ قلب فيه شرك أو شكّ؛ فهو ساقط»**[1].

(1) الكلينيّ، الكافي، م.س، ج2، كتاب الإيمان والكفر، باب الإخلاص، ح5، ص16.

الدرس الخامس عشر

البيّنة الخامسة عشرة «طرق معرفة الله في القرآن»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف الطرق التي تعين الإنسان على معرفة الله تعالى في القرآن.
2. يدرك أهمية معرفة الله من خلال الآيات الأنفسية.
3. يشرح أهمّيّة معرفة هذه الطرق في هداية الإنسان نحو مقصده الأخرويّ.

بعد أن زوّد الله تعالى الإنسان في خِلْقَته بالفطرة والعقل والقلب، وجعل لكلّ منها خصائص إدراكيّة تهديه إلى معرفة ربّه جلّ وعلا، دعاه إلى معرفته وهداه إليه؛ باستثارة مكنونات فطرته وعقله وقلبه: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[1]، ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾[2]، حيث أرشد القرآن الكريم العقل إلى ضرورة التفكّر والتدبّر العقليّ في آيات الخَلْق؛ بوصفها آثاراً ومظاهر وجوديّة تحكي عن جمال الخالق وجلاله، ودعا إلى إعمال الفطرة في تلمّس الآيات الأنفسيّة الكامنة في نفس الإنسان؛ بوصفها فقراً محضاً واحتياجاً صرفاً، لشهود الحقّ وحده بعين القلب: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[3].

1. معرفة الله من خلال الآيات الآفاقيّة:

دعا القرآن الكريم إلى التفكّر العقليّ في الآيات الآفاقيّة المتجلّيّة في الخلق، وما يمكن أن يُستكشف منها من عِبَر ومواعظ وعلوم ومعارف، يمكن من خلالها أن يدرك الإنسان شيئاً من مظاهر جمال الله وجلاله وبهائه وحسن صنعه. فبالتفكّر العقليّ السليم يستطيع الإنسان أن يُدرِك عظمة الله تعالى، ووحدانيّته وصفاته وأفعاله، ويمتثل التكاليف الإلهيّة الصادرة من الشارع الحكيم، التي تهدف إلى إيصاله نحو الحياة الحقيقيّة الخالدة. ومن الآيات التي حثّت على اتّباع هذا الطريق في معرفة الله تعالى، قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ ... حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ﴾، ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾[4]؛ ففي الآية إشارة

(1) سورة طه، الآية 50.
(2) سورة الأعلى، الآيتان 2-3.
(3) سورة فصّلت، الآية 53.
(4) سورة الذاريات، الآية 20.

إلى ما تتضمّنه الأرض من عجائب الآيات الدالّة على وحدة التدبير القائمة بوحدانيّة مدبّره؛ من برّ، وبحر، وجبال، وتلال، وعيون، وأنهار، ومعادن، ومنافعها المتّصلة بعضها ببعضها الآخر، الملائم بعضها لبعضها الآخر؛ بحيث ينتفع بها ما عليها من النبات والحيوان؛ في نظام واحد مستمرّ من غير اتّفاق وصدفة، لائح عليها آثار القدرة والعلم والحكمة، دالّ على أنّ خلقها وتدبير أمرها ينتهيان إلى خالق مدبّر قادر عليم حكيم. فأيّ جانب قُصِدَ من جوانبها، وأيّ وجهة وُلِّيَت من جهات التدبير العامّ الجاري فيها؛ كانت آية بيّنة، وبرهاناً ساطعاً على وحدانيّة ربّها لا شريك له، ينجلي فيه الحقّ لأهل اليقين؛ ففيها آيات للموقنين[1].

كما حثّ القرآن الكريم على التفكّر والنظر في آيات الله تعالى ومخلوقاته البديعة، التي تزهو بجمال صانعها وإبداعه، لتعرف النفس عظمة باريها وجماله، وعظيم قدرته وفعاله، ونعمه التي أسبغها على الخلق أجمعين: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[2]، ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[3]،[4]...

وأكّد القرآن الكريم ضرورة الاستفادة من أحوال الماضين؛ من أفراد وأمم ومجتمعات، واستلهام الدروس والعبر ممّا جرى عليهم: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[5]، ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[6]، ...

(1) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج18، ص373. (بتصّرف)

(2) سورة الغاشية، الآيات 17-20.

(3) سورة الرعد، الآية 4.

(4) وغيرها آيات كثيرة تدعو إلى ضرورة التفكّر والتدبّر في الآيات الآفاقيّة؛ بوصفها مظاهر لجمال الله تعالى وجلاله. انظر: البقرة: 44، 73، 171، 242، 269؛ آل عمران: 7، 190-191؛ المائدة: 58، 103؛ الأنفال: 22؛ الرعد: 19؛ إبراهيم: 52؛ الحجر: 75. طه: 128؛ الحج: 46؛ الروم: 24؛ ص: 43؛ الزمر: 9؛ الزمر: 18؛ الجاثية: 5، 13.

(5) سورة آل عمران، الآية137.

(6) سورة يوسف، الآية111.

2. معرفة الله من خلال الآيات الأنفسيّة:

حثّ القرآن الكريم الإنسان على استثارة مكنونات فطرته والتفكّر في حقيقة نفسه وخصائصها؛ تمهيداً لإدراك نقصه واحتياجه وفقره، ومن ثمّ إدراك وحدانيّة الله تعالى وصفاته وأفعاله. ومن الآيات التي حثّت على اتّباع هذا الطريق في معرفته تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا ... وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1]، ﴿... ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[2]؛ أي وفي أنفسكم آيات ظاهرة لمن أبصر إليها وركّز النظر فيها؛ أفلا تبصرون؟! والآيات التي في النفوس، منها ما هي في تركّب الأبدان؛ من أعضائها، وأعضاء أعضائها؛ حتى ينتهي إلى دقائق الأشياء، وما لها من عجائب الأفعال والآثار المتّحدة؛ في عين تكثّرها، المدبَّرة جميعاً لمدبِّر واحد، وما يعرض لها من مختلف الأحوال؛ كالجنينيّة، والطفوليّة، والرهاق، والشباب، والشيب. ومنها ما هي من حيث تعلّق النفوس؛ أعني الأرواح بها؛ كالحواسّ؛ من البصر، والسمع، والذوق، والشمّ، واللمس؛ التي هي الطرق الأوّليّة لاطّلاع النفوس على الخارج؛ لتميِّز بذلك الخير من الشرّ، والنافع من الضارّ؛ ولتسعى إلى ما فيه كمالها، وتهرب ممّا لا يلائمها. وفي كلّ منها نظام وسيع جارٍ فيه، منفصل بذاته عن غيره؛ كالبصر لا خبر عنده عمّا يعمله السمع بنظامه الجاري فيه، وهكذا. وكلّها مع هذا الانفصال والتقطّع مؤتلفة تعمل تحت تدبير مدبِّر واحد؛ هو النفس المدبِّرة؛ والله من ورائهم محيط. ومن هذا القبيل سائر القوى المنبعثة عن النفوس في الأبدان؛ كالقوّة الغضبيّة، والقوّة الشهويّة، وما لها من اللّواحق والفروع؛ فإنّها على ما للواحد منها بالنسبة إلى غيره من البينونة وانفصال النظام الجاري فيه عن غيره، واقعة تحت تدبير مدبِّر واحد، تتعاضد جميع شعبها وتأتلف لخدمته. ونظام التدبير الذي لكلّ من هذه المدبّرات؛ إنّما وُجِدَ له، حينما وُجِد وأوّل ما ظهر، من غير فصل؛ فليس ممّا عملت فيه خبرته وأوجده هو لنفسه عن فكر ورويّة أو بغيره، فنظام تدبيره، كنفسه، من صانع صنعه وألزمه نظامه بتدبيره. ومنها: الآيات الروحانيّة الواقعة في عالم النفوس الظاهرة لمن رجع إليها وراقب

(1) سورة فصّلت، الآية 53.
(2) سورة الذاريات، الآيتان 20-21.

الله سبحانه فيها؛ من آيات الله التي لا يسعها وصف الواصفين، وينفتح بها باب اليقين، وتدرّج المتطلّع عليها في زمرة الموقنين، فيرى ملكوت السماوات والأرض؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾[1].

فمعرفة الآيات بما هي آيات مُوصِلة إلى معرفة الله سبحانه وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ ككونه تعالى حيّاً لا يعرض له موت، وقادراً لا يشوبه عجز، وعالماً لا يخالطه جهل، وأنّه تعالى هو الخالق لكلّ شيء، والمالك لكلّ شيء، والربّ القائم على كلّ نفس بما كسبت، خلق الخَلْق لا لحاجة منه إليهم، بل لينعم عليهم بما استحقّوه، ثمّ يجمعهم ليوم الجمع لا ريب فيه؛ ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى. وهذه وأمثالها معارف حقّة إذا تناولها الإنسان وأتقنها مثّلت له حقيقة حياته، وأنّها حياة مؤبّدة ذات سعادة دائمة، أو شقاوة لازمة، وليست بتلك المتهوّسة المنقطعة اللاهية اللاغية. وهذا موقف علميّ يهدي الإنسان إلى تكاليف ووظائف بالنسبة إلى ربّه، وبالنسبة إلى أبناء نوعه في الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وهي التي نسمّيها بالدين. فإنّ السنّة التي يلتزمها الإنسان في حياته، ولا يخلو عنها حتى البدويّ والهمجيّ؛ إنّما يضعها ويلتزمها أو يأخذها ويلتزمها لنفسه؛ من حيث إنّه يقدِّر لنفسه نوعاً من الحياة؛ أي نوع كان، ثمّ يعمل بما استحسنه من السنّة لإسعاد تلك الحياة، وهذا من الوضوح بمكان. فالحياة التي يقدّرها الإنسان لنفسه تمثّل له الحوائج المناسبة لها، فيهتدي بها إلى الأعمال التي تضمن - عادة - رفع تلك الحوائج، فيطبّق الإنسان عمله عليها؛ وهو السنّة أو الدين.

ومن هنا، كان النظر في الآيات الأنفسيّة والآفاقيّة ومعرفة الله سبحانه بها، يهدي الإنسان إلى التمسّك بالدين الحقّ والشريعة الإلهيّة؛ من جهة تمثيل المعرفة المذكورة الحياة الإنسانيّة المؤبّدة له عند ذلك، وتعلّقها بالتوحيد والمعاد والنبوّة. وهذه هداية إلى الإيمان والتقوى، يشترك فيها الطريقان معاً: أي طريقا النظر إلى الآفاق والأنفس.

ولكنّ السير الأنفسيّ الفطريّ أنفع في المعرفة من السير الآفاقيّ الحسّي العقليّ؛ فعن

(1) سورة الأنعام، الآية 75.

الإمام عليّ عليه السلام: «**المعرفة بالنفس أنفع المعرفتين**»[1]. ولعلّ ذلك لكون المعرفة النفسانيّة لا تنفكّ عادة عن إصلاح أوصافها وأعمالها بخلاف المعرفة الآفاقيّة؛ لأنّ النظر إلى آيات النفس أنفع، لا يخلو من العثور على ذات النفس وقواها وأدواتها الروحيّة والبدنيّة، وما يعرض لها من الاعتدال في أمرها أو طغيانها أو خمودها، والملكات الفاضلة أو الرذيلة، والأحوال الحسنة أو السيّئة التي تقارنها. واشتغال الإنسان بمعرفة هذه الأمور والإذعان بما يلزمها مِن أمن أو خطر وسعادة أو شقاوة، لا ينفكّ عن أن يعرِّفه الداء والدواء من موقف قريب، فيشتغل بإصلاح الفاسد منها، والالتزام بصحيحها، بخلاف النظر في الآيات الآفاقيّة؛ فإنّه وإنْ دعا إلى إصلاح النفس وتطهيرها من سفاسف الأخلاق ورذائلها، وتحليتها بالفضائل الروحيّة، لكنّه ينادي لذلك من مكان بعيد؛ وهو ظاهر.

كما أنّ النظر في الآيات الآفاقيّة والمعرفة الحاصلة من ذلك، نظر فكريّ وعلم حصوليّ، بخلاف النظر في النفس وقواها وأطوار وجودها والمعرفة المتجلّية منها؛ فإنّه نظر شهوديّ وعلم حضوريّ. والتصديق الفكريّ يحتاج في تحقّقه إلى نظم الأقيسة واستعمال البرهان؛ وهو باقٍ ما دام الإنسان متوجّهاً إلى مقدّماته، غير ذاهلٍ عنها، ولا مشتغلٍ بغيرها؛ ولذلك يزول العلم بزوال الإشراف على دليله، وتكثر فيه الشبهات، ويثور فيه الاختلاف. وهذا بخلاف العلم النفسانيّ بالنفس وقواها وأطوار وجودها؛ فإنّه من العيان[2].

3. معرفة الله من خلال الشهود القلبيّ:

زوّد الله تعالى الإنسان بما يمكّنه من معرفته تعالى معرفة شهوديّة من دون أيّ واسطة في شهوده؛ وليست هذه المعرفة متاحة إلا للقلب، بعد السير الأنفسيّ من مشاهدة نقص النفس إلى الحضور في الله تعالى والذهول عن غيره تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[3].

(1) الآمدي التميميّ، عبد الواحد: غرر الحكم ودرر الكلم، ترتيب وتدقيق: عبد الحسن دهيني، ط1، بيروت، دار الهادي، 1413هـ.ق/ 1992م، ح1964، ص63.

(2) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج6، ص170-171؛ ج18، ص373-374. (بتصّرف)

(3) سورة فصّلت، الآية 53.

فإذا اشتغل الإنسان بالنظر إلى آيات نفسه، وشاهد فقرها إلى ربّها، وحاجتها في جميع أطوار وجودها؛ وجد أمراً عجيباً؛ وجد نفسه متعلّقة بالعظمة والكبرياء، متّصلة في وجودها، وحياتها، وعلمها، وقدرتها، وسمعها، وبصرها، وإرادتها، وحبّها، وسائر صفاتها وأفعالها؛ بما لا يتناهى بهاءً، وسناءً، وجمالاً، وجلالاً، وكمالاً؛ من الوجود والحياة، والعلم والقدرة، وغيرها من كلّ كمال.

فالنفس الإنسانيّة لا شأن لها ولا شغل لها إلّا في نفسها، ولا مخرج لها من نفسها، إلا بالسير الاضطراريّ في مسير نفسها، والانقطاع عن كلّ شيء كانت تظنّ أنّها مجتمعة معه، مختلطة به؛ إلا ربّها المحيط بباطنها وظاهرها وكلّ شيء دونها، لتجد أنّها دائماً في خلاء، مع ربّها، وإن كانت في ملأ مِن الناس. وعند ذلك، تنصرف عن كلّ شيء وتتوجّه إلى ربّها، وتنسى كلّ شيء وتَذْكُر ربّها؛ فلا يحجبه عنها حجاب، ولا تستتر عنه بستر؛ وهو حقّ المعرفة الذي قُدِّر لإنسان. وهذه المعرفة، الأحرى بها أن تُسمّى بمعرفة الله بالله، وأمّا المعرفة الفكريّة التي يفيدها النظر في الآيات الآفاقيّة؛ سواء حصلت من قياس أو حدس أو غير ذلك؛ فإنّما هي معرفة بصورة ذهنيّة عن صورة ذهنيّة، وجلّ الإله عن أن يحيط به ذهن، أو تساوي ذاته صورة مُختَلَقة اختلقها خَلْق مِن خَلقه.. ولا يحيطون به علماً: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[1]؛ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[2].

ومن هنا، فإذا اشتغل الإنسان بآية نفسه، وخلا بها عن غيرها؛ انقطع إلى ربّه من كلّ شيء، وأعقب ذلك معرفه ربّه معرفة بلا توسيط وسط، وعلماً بلا تسبيب سبب؛ إذ الانقطاع يرفع كلّ حجاب مضروب. وعند ذلك يذهل الإنسان بمشاهدة ساحة العظمة والكبرياء عن نفسه، وينكشف له عند ذلك من حقيقة نفسه أنّها الفقيرة إلى الله سبحانه، المملوكة له ملكاً لا تستقلّ بشيء دونه.

(1) سورة طه، الآية 110.

(2) سورة الصافّات، الآيتان 159-160.

إنّ المعرفة الآفاقيّة بعين الحسّ، والعقل والمعرفة النفسيّة بعين الفطرة، طريقان مؤدّيان إلى معرفة الله تعالى؛ وإنْ كان الطريق الثاني أنفع من الأوّل - كما تقدّم بيانه -، ولكنّهما طريقان غايتهما إيصال الإنسان إلى معرفة الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾؛ فإذا تبيّن للإنسان الحقّ لا يحتاج بعد ذلك في معرفته تعالى إلى سلوك طريق الآفاق أو طريق الأنفس؛ بل إلى شهوده تعالى بعين القلب، شهوداً أحديّاً يستدلّ منه على الأشياء بالحقّ تعالى، بعد أن كان يتوصَّل إلى الحقّ تعالى بالآثار: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

(1) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج6، ص170-175. (بتصّرف)

الأفكار الرئيسة:

1. أرشد القرآن الكريم العقل إلى التفكّر والتأمّل في الآيات الآفاقيّة المتجلّية في الخلق، وما يمكن أن يستكشف منها من عِبَر ومواعظ وعلوم ومعارف، تمّكنه من إدراك مظاهر جمال الله وجلاله، وبهائه وحسن صنعه.
2. حثّ القرآن الكريم الإنسان على استثارة مكنونات فطرته والتفكّر في حقيقة نفسه وخصائصها؛ تمهيداً لإدراك نقصه واحتياجه وفقره، ومن ثمّ إدراك وحدانيّة الله تعالى وصفاته وأفعاله.
3. معرفة الآيات بما هي آيات مُوصِلة إلى معرفة الله سبحانه وأسمائه وصفاته وأفعاله؛ إذا تناولها الإنسان وأتقنها، مثّلت له حقيقة حياته، وأنّها حياة مؤبّدة؛ ذات سعادة دائمة أو شقاوة لازمة. وهذا موقف علميّ يهدي الإنسان إلى تكاليف ووظائف بالنسبة إلى ربّه، وبالنسبة إلى أبناء نوعه في الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وهي التي نسمّيها بالدين.
4. زوّد الله تعالى الإنسان بما يمكّنه من معرفته تعالى معرفة شهوديّة، من دون أيّ واسطة في شهوده؛ وليست هذه المعرفة متاحة إلا للقلب، بعد السير الأنفسيّ من مشاهدة نقص النفس إلى الحضور في الله تعالى، والذهول عن غيره تعالى.
5. المعرفة الأنفسيّة أنفع للإنسان من المعرفة الآفاقيّة. والمعرفة الشهوديّة غاية المعرفتين: الآفاقيّة والأنفسيّة.

فكّر وأجب:

1. ما المراد بالمعرفة الآفاقيّة، وما هي خصائصها وآثارها؟
2. ما المراد بالمعرفة الأنفسيّة، وما هي خصائصها وآثارها؟
3. ما المراد بالمعرفة الشهوديّة، وما هي خصائصها وآثارها؟

مطالعة:

معرفة الله تعالى في السنّة الشريفة:

وردت في السنّة الشريفة مجموعة من الروايات التي تبيّن طرق معرفة الله تعالى وخصائصها وآثارها؛ منها:

- ما رُوي عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «**من عرف نفسه فقد عرف ربّه**»[1].
- ما رُوي من أنّه سُئِلَ أمير المؤمنين عليه السلام: «**بِمَ عرفت ربّك؟ قال: بما عرّفني نفسه، قيل: وكيف عرّفك نفسه، قال: لا يشبهه صورة، ولا يحسّ بالحواسّ، ولا يقاس بالناس، قريب في بعده، بعيد في قربه، فوق كلّ شيء ولا يقال شيء فوقه، أمام كلّ شيء ولا يقال له أمام، داخل في الأشياء لا كشيء داخل في شيء، وخارج من الأشياء لا كشيء خارج من شيء، سبحان من هو هكذا ولا هكذا غيره، ولكلّ شيء مبتدأ**»[2].
- ما روي عن الإمام الحسين عليه السلام: «**كيف يُستدلّ عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المُظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟! عميت عين لا تراك، ولا تزال عليها رقيباً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبّك نصيباً**»[3].
- ما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله عزّ وجلّ ما مدّوا أعينهم إلى ما متّع الله به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها، وكانت دنياهم أقلّ عندهم ممّا يطؤونه بأرجلهم، ولنعموا بمعرفة الله عزّ وجلّ وتلذّذوا بها تلذّذ من لم يزل في روضات الجنان مع أولياء الله. إنّ معرفة الله عزّ وجلّ أنس من كلّ وحشة، وصاحب من كلّ وحدة، ونور من كلّ ظلمة، وقوّة من كلّ ضعف، وشفاء من كلّ سقم**»[4].

---

(1) الإحسائي، عوالي اللئالي، م.س، ص102.
(2) الكلينيّ، الكافي، م.س، ج1، كتاب التوحيد، باب أنّه لا يُرف إلا به، ح2، ص85-86.
(3) المجلسّي، بحار الأنوار، م.س، ج64، ص142.
(4) الكلينيّ، الكافي، م.س، ج8، ح347، ص247.

- ما رواه الفتح بن يزيد، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام، قال: سألته عن أدنى المعرفة، فقال: «**الإقرار بأنّه لا إله غيره، ولا شبه له ولا نظير، وأنّه قديم مثبت موجود غير فقيد، وأنّه ليس كمثله شيء**»[1].

(1) الكلينيّ، الكافي، م.س، ج1، كتاب التوحيد، باب أدنى المعرفة، ح1، ص86.

الدرس السادس عشر

البيّنة السادسة عشرة «معرفة التوحيد في القرآن»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يفهم مفهوم التوحيد ومراتبه.

2 . يدرك معيار التحقّق بالتوحيد اعتقاداً وسلوكاً.

3 . يدرك أهمّيّة المعرفة التوحيديّة في هداية الإنسان نحو مقصده الأخرويّ.

1. مفهوم التوحيد:

إنّ مفهوم الوحدة هو من المفاهيم البديهيّة التي لا تحتاج في تصوّرها إلى معرِّف يدلّ عليها. والشيء ربّما يتّصف بالوحدة من حيث وصف من أوصافه؛ فيدلّ به على أنّ الصفة التي فيه لا تقبل الشركة ولا تعرض لها الكثرة. فإنّ صفة الرجوليّة التي في زيد مثلاً - وهو رجل واحد - ليست منقسمة بينه وبين غيره، بخلاف ما في زيد وعمرو مثلاً - وهما رجلان - فإنّها منقسمة بين اثنين كثيرة بهما، فزيد من جهة هذه الصفة - وهي الرجولية - واحد لا يقبل الكثرة، وإنْ كان من جهة هذه الصفة وغيرها من الصفات، كعلمه، وقدرته، وحياته، ونحوها، ليس بواحد، بل كثير حقيقة، والله سبحانه واحد، من جهة أنّ الصفة لا يشاركه فيها غيره، كالألوهية، فهو واحد في الألوهيّة، لا يشاركه فيها غيره تعالى، وكذلك في العلم والقدرة والحياة، فله علم لا كعلم غيره، وقدرة وحياة لا كقدرة غيره وحياته. وواحد من جهة أنّ الصفات التي له لا تتكثّر ولا تتعدّد إلا مفهوماً فقط. فعلمه وقدرته وحياته جميعها شيء واحد هو ذاته، ليس شيء منها غير الآخر، بل هو تعالى يعلم بقدرته، ويقدِّر بحياته، وحيّ بعلمه، لا كمثل غيره في تعدّد الصفات عيناً ومفهوماً.

ولا يرتاب الباحث المتعمّق في المعارف الكلّيّة في أنّ مسألة التوحيد من أبعدها غوراً، وأصعبها تصوّراً وإدراكاً، وأعضلها حلاً؛ لارتفاع كعبها عن المسائل العامّة العامّيّة التي تتناولها الأفهام، والقضايا المتداولة التي تألفها النفوس، وتعرفها القلوب. وما هذا شأنه تختلف العقول في إدراكه والتصديق به؛ للتنوّع الفكريّ الذي فُطِرَ عليه الإنسان؛ من اختلاف أفراده من جهة البنية الجسميّة؛ وأداء ذلك إلى اختلاف أعضاء الإدراك في أعمالها،

ثمّ تأثير ذلك الفهم والتعقّل من حيث الحِدَّة والبلادة، والجودة والرداءة، والاستقامة والانحراف. فهذا كلّه ممّا لا شكّ فيه. وقد قرّر القرآن هذا الاختلاف في موارد من آياته الكريمة؛ كقوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[1]، ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٢٩ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾[2]، ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثًا﴾[3]، ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾[4]. ومن أظهر مصاديق هذا الاختلاف الفهميّ اختلاف أفهام الناس في تلقّي معنى توحّده تعالى؛ لما في أفهامهم من الاختلاف العظيم والاضطراب الوسيع في تقرير مسألة وجوده تعالى، على ما بينهم من الاتّفاق على ما تعطيه الفطرة الإنسانيّة بإلهامها الخفيّ وإشارتها الدقيقة. فقد بلغ فهم آحاد من الإنسان في ذلك أنْ جعل الأوثان المتّخذة، والأصنام المصنوعة من الخشب والحجارة شركاء لله، وقرناء له، تُعبد كما يُعبد، وتُسأل كما يُسأل، ويُخضع لها كما يُخضع له، ولم يلبث هذا الإنسان دون أن غلَّب هذه الأصنام عليه تعالى بزعمه، وأقبل عليها وتركه، وأمّرها على حوائجه وعزله. فهذا الإنسان قصارى ما يراه من الوجود له تعالى هو مثل ما يراه لآلهته التي خلقها بيده، أو خلقها إنسان مثله بيده. ولذلك كانوا يثبتون له تعالى من صفة الوحدة؛ مثل ما يصفون به كلّ واحد من أصنامهم، وهي الوحدة العدديّة التي تتألّف منها الأعداد: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾[5]. ولكنّ هذا التعجّب الصادر منهم في مسألة وحدانيّته تعالى، لا يستلزم نفيهم لجميع مراتب التوحيد؛ لأنّهم يسلّمون بأنّ الله تعالى هو خالقهم الأوحد: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾[6]، وأنّه غايتهم من اتّخاذ الأرباب

(1) سورة الزمر، الآية 9.
(2) سورة النجم، الآيتان 29 - 30.
(3) سورة النساء، الآية 78.
(4) سورة المائدة، الآية 75.
(5) سورة ص، الآيتان 4 - 5.
(6) سورة الزخرف، الآية 87.

المتفرّقين: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾[1]؛ وعليه، فمشكلتهم هي في عدم فهمهم لوحدانيّته تعالى في الربوبيّة؛ نظراً لقياسهم التدبيرات الربوبيّة على ما يعهدونه في ما عندهم من قدرات محدودة على التدبير؛ فيرون أنّ هذه التدبيرات لا يمكن أن تستند إلى مدبّر واحد، مع ما يرونه من كثرة التدبيرات وتشعّبها[2].

2. مراتب التوحيد:

إنّ المتأمّل في القرآن الكريم يجده يتحدّث عن وحدانيّته تعالى تارة بلحاظ ذاته، وتارة بلحاظ صفاته، وتارة بلحاظ أفعاله. وعليه، يمكن بيان مراتب توحيده تعالى وفق الآتي:

أ. التوحيد الذاتيّ (في مرتبة الذات): وهو تنزيه الذات الإلهيّة عن الشريك (واحد لا شريك له): ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ...﴾[3]، وعن التركيب (أحديّ الذات): ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[4]؛ فهو تعالى واحد الأحديّة والواحديّة. ومشكلة أهل الكتاب هي في هذه المرتبة من التوحيد: ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ﴾[5]، ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[6].

ب. التوحيد الصفاتيّ: وهو الاعتقاد بوجود صفات للذات الإلهيّة المقدّسة؛ مثل: الحياة، والعلم، والقدرة؛ وأنّها عين ذاته تعالى، وليست زائدة أو عارضة على ذاته تعالى، وأنّه تعالى منزّه عن النقص؛ فلا يوجد كمال وجوديّ إلا وهو أصله ومفيضه، ومبدؤه ومنتهاه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ...﴾[7].

---

(1) سورة الزمر، الآية 3.
(2) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص393-394؛ ج6، ص86-87. (بتصّرف)
(3) سورة البقرة، الآية 163.
(4) سورة الإخلاص، الآية 1.
(5) سورة المائدة، الآية 73.
(6) سورة التوبة، الآيتان 30-31.
(7) سورة الأعراف، الآية 180.

ج. التوحيد الأفعاليّ: الاعتقاد بأنّه لا مؤثّر في الوجود إلّا الله تعالى؛ لارتباط الموجودات بالله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾[1]، وفقرها في ذاتها، واحتياجها له تعالى؛ في إفاضة أصل وجودها: ﴿... وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾[2]، وكذلك استمرار وجودها: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٩ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾[3]. وهذا التوحيد الأفعاليّ ينشعب إلى مرتبتين، هما:

- التوحيد في الخالقيّة: وهو الاعتقاد بأنّ موجودات عالم الوجود كلّها فقيرة ومحتاجة في ذاتها، ووجودها رهن الفيض والتجلّي الإلهيّين، فالكلّ مخلوقاته، ولا خالق سواه: ﴿... قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾[4].

- التوحيد في الربوبيّة: وهو الاعتقاد بحقيقة أنّ تدبير عالم الوجود بيد الله وحده، والخلق كلّهم تحت ربوبيّته وتدبيره: ﴿... رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[5]. وهذا التوحيد الربوبيّ ينشعب - أيضاً - إلى مرتبتين:

* **التوحيد في الربوبيّة التكوينيّة:** وهو الإيمان بحقيقة أنّ تكوين العالم وتدبيره وإدارته بيد الله تعالى، بحيث لا يخرج عن ربوبيّته أيّ شيء؛ لأنّها كلّها خاضعة له وتحت تدبيره وإشرافه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾[6]. ومشكلة المشركين هي في هذه المرتبة من التوحيد.

* **التوحيد في الربوبيّة التشريعيّة:** وهو الإيمان بحقيقة أنّ مقام التشريع والتقنين منحصر بالله تعالى وحده، فلا طاعة لأوامر أيّ آمر؛ إلا الله ومَنْ أمر تعالى بطاعته؛ لكون

(1) سورة البقرة، الآية 255.
(2) سورة مريم، الآية 9.
(3) سورة إبراهيم، الآيتان 19-20.
(4) سورة الرعد، الآية 16.
(5) سورة طه، الآية 50.
(6) سورة الرعد، الآية 2.

طاعته في طول طاعته تعالى: ﴿... إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ...﴾[1]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾[2]. ومشكلة إبليس هي في هذه المرتبة من التوحيد: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[3]، ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[4].

3. نفي الشرك وعقيدة التثليث (نفي الوحدة العدديّة):

فَهِمَ بعض الناس الدعوة القرآنيّة إلى التوحيد دعوة إلى القول بالوحدة العدديّة التي تقابل الكثرة العدديّة؛ فأجابهم القرآن مصحّحاً لهم وجهة الاعتقاد بالتوحيد: ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[5]، ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾[6]، ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ﴾[7]، وغيرها من الآيات الداعية إلى رفض التفرّق في العبادة للإله، حيث كانت كلّ أمّة أو طائفة أو قبيلة تتّخذ إلهاً تختصّ به، ولا تخضع لآلهة الآخرين. والقرآن ينفي في عالي تعاليمه الوحدة العدديّة عن الإله جلّ ذكره، فإنّ هذه الوحدة لا تتمّ إلا بتميّز هذا الواحد من ذلك الواحد بالمحدوديّة التي تقهره، والمقدّريّة التي تغلبه... وإذا كان الله سبحانه قاهراً غير مقهور، وغالباً لا يغلبه شيء البتّة؛ كما يعطيه التعليم القرآنيّ، لم تتصوّر في حقّه وحدة عدديّة ولا كثرة عدديّة: ﴿وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ﴾[8]، ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ

(1) سورة الأنعام، الآية 57؛ سورة يوسف، الآيتان 40، 67.
(2) سورة النساء، الآية 59.
(3) سورة البقرة، الآية 34.
(4) سورة الأعراف، الآية 12.
(5) سورة البقرة، الآية 163.
(6) سورة غافر، الآية 65.
(7) سورة العنكبوت، الآية 46.
(8) سورة الرعد، الآية 16.

وَءَابَآؤُكُم﴾[1]، ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[2]، ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[3]...؛ ولمّا كان تعالى لا يقهره شيء في شيء البتّة من ذاته ولا صفته ولا فعله، وهو القاهر فوق كلّ شيء، فليس بمحدود في شيء يرجع إليه، فهو موجود لا يشوبه عدم، وحقّ لا يعرض له بطلان، وهو الحيّ لا يخالطه موت، والعليم لا يدبّ إليه جهل، والقادر لا يغلبه عجز، والمالك والملك من غير أن يُملك منه شيء، والعزيز الذي لا ذلّ له، وهكذا. فله تعالى من كلّ كمال محضه... فهو تعالى واحد؛ بمعنى أنّه من الوجود بحيث لا يُحدّ بحدّ حتى يمكن فرض ثان له فيما وراء ذلك الحدّ؛ وهذا معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[4]؛ فإن لفظ «**أحد**» إنّما يُستعمل استعمالًا يدفع إمكان فرض العدد في قباله، يقال: «**ما جاءني أحد**»، وينفى به أن يكون قد جاء الواحد، وكذا الاثنان والأكثر... فاستعمال لفظ «**أحد**» في قوله: ﴿هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في الإثبات من غير نفي ولا تقييد بإضافة أو وصف؛ يفيد أنّ هُويّته تعالى بحيث يدفع فرض من يماثله في هويّته بوجه؛ سواء كان واحداً أو كثيراً؛ فهو محال بحسب الفرض الصحيح، مع قطع النظر عن حاله بحسب الخارج. ولذلك وصفه تعالى أولاً بأنّه صمد، وهو المصمت الذي لا جوف له، ولا مكان خالياً فيه، وثانياً بأنّه لم يلد، وثالثاً بأنّه لم يولد، ورابعاً بأنّه لم يكن له كفواً أحد؛ وكلّ هذه الأوصاف ممّا يستلزم نوعاً من المحدوديّة والانعزال. وهذا هو السرّ في عدم وقوع توصيفات غيره تعالى عليه حقّ الوقوع والاتّصاف: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[5]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾[6]؛ فإن المعاني الكماليّة التي نصفه تعالى بها أوصاف محدودة، وجلّت ساحته

(1) سورة يوسف، الآيتان 39 - 40.
(2) سورة ص، الآية 65.
(3) سورة الزمر، الآية 4.
(4) سورة الإخلاص، الآيات 1-4.
(5) سورة الصافات، الآيتان 159 - 160.
(6) سورة طه، الآية 110.

سبحانه عن الحدّ والقيد. وهذا المعنى من الوحدة هو الذي يُدفَع به تثليث النصارى؛ فإنّهم موحّدون في عين التثليث، لكنّ الذي يذعنون به من الوحدة وحدة عدديّة لا تنفي الكثرة من جهة أخرى، فهم يقولون: إنّ الأقانيم: (الأب والابن والروح) = (الذات والعلم والحياة) ثلاثة؛ وهي واحدة كالإنسان الحيّ العالم، فهو شيء واحد؛ لأنّه إنسان وحيّ وعالم؛ وهو ثلاثة؛ لأنّه إنسان وحياة وعلم. لكنّ التعليم القرآنيّ ينفي ذلك؛ لأنّه يثبت من الوحدة ما لا يستقيم معه فرض أيّ كثرة وتمايز، لا في الذات ولا في الصفات، وكلّ ما فُرض من شيء في هذا الباب كان عين الآخر لعدم الحدّ، فذاته تعالى عين صفاته، وكلّ صفة مفروضة له عين الأخرى، تعالى الله عمّا يشركون، وسبحانه عمّا يصفون. ولذلك ترى أنّ الآيات التي تنعته تعالى بالقهّاريّة تبدأ أولاً بنعت الوحدة، ثمّ تصفه بالقهّاريّة؛ لتدلّ على أنّ وحدته لا تدع لفارض مجال أن يفرض له ثانياً مماثلاً بوجه، فضلاً عن أن يظهر في الوجود، وينال الواقعيّة والثبوت: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾[1]، فوصفه بوحدة قاهرة لكلّ شريك مفروض، لا تبقي لغيره تعالى من كلّ معبود مفروض إلا الاسم فقط[2].

4. التوحيد العمليّ:

بيّن القرآن الكريم أنّ بعضاً من المؤمنين بوحدانيّة الله اعتقاداً يسلكون مسلكاً عمليّاً كمسلك المشركين به؛ ذلك أنّهم لا ينتفعون من هذا الاعتقاد ولا يحضر في سيرهم وسلوكم العمليّ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[3]، ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[4].

لذا دعا القرآن الكريم الإنسان إلى التوحيد العمليّ، محذراً إيّاه من الوقوع في فخّ الشرك

(1) سورة يوسف، الآيتان 39 - 40.
(2) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص394؛ ج6، ص86-92. (بتصّرف)
(3) سورة يوسف، الآية 106.
(4) سورة يوسف، الآية 103.

العمليّ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ... ﴾[1]؛ فالتوحيد العمليّ الذي يرتضيه الله تعالى؛ هو إتيان الأعمال الحسنة طلباً لمرضاة الله وابتغاءً لثواب الآخرة، دون اتّباع الهوى والشرك به: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾[2]؛ فذكر أنّ البخيل بماله والمنفق رئاء الناس؛ هم الذين يشركون بالله ولا يعبدونه وحده: ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ﴾[3]؛ وظهر بذلك أنّ شركهم هو عدم إيمانهم باليوم الآخر: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾[4]؛ فبيّن أنّ الضلال باتّباع الهوى، وكلّ شرك ضلال؛ إنّما هو بنسيان يوم الحساب: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾[5]؛ فاتّباع الهوى عبادة له وشرك به تعالى. فتبيّن بذلك كلّه أنّ التوحيد العمليّ: هو أن يعمل الإنسان ابتغاء مرضاة الله تعالى ومثوبته؛ وهو على ذِكْر من يوم الحساب الذي فيه ظهور المثوبات والعقوبات. وأنّ الشرك في العمل: أن ينسى اليوم الآخر، ولو آمن به لم ينسه، وأن يعمل عمله لا لطلب مثوبة، بل لما يزيّنه له هواه من التعلّق بالمال أو حمد الناس ونحو ذلك؛ فقد أشخص هذا الإنسان هواه تجاه ربّه وأشرك به. فالمراد بعبادة الله والإخلاص له فيها أن يكون طلباً لمرضاته وابتغاءً لمثوبته، لا لاتّباع الهوى[6].

(1) سورة النساء، الآية 36.
(2) سورة النساء، الآيتان 36-37.
(3) سورة النساء، الآية 39.
(4) سورة ص، الآية 26.
(5) سورة الجاثية، الآية 23.
(6) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج4، ص353-354. (بتصّرف)

الأفكار الرئيسة:

1. إنّ مفهوم الوحدة هو من المفاهيم البديهيّة التي لا تحتاج في تصوّرها إلى معرِّف يدلّ عليها.
2. مسألة التوحيد من أبعد المسائل الاعتقاديّة غوراً، وأصعبها تصوّراً وإدراكاً، وأعضلها حلاً؛ لارتفاع كعبها عن المسائل العامّة العامّيّة التي تتناولها الأفهام.
3. إنّ المتأمّل في القرآن الكريم يجده يتحدّث عن وحدانيّته تعالى تارة بلحاظ ذاته، وتارة بلحاظ صفاته، وتارة بلحاظ أفعاله. وفعله تعالى إمّا خلق أو تدبير أو تكوينيّ أو تشريعيّ.
4. فَهِمَ بعض الناس الدعوة القرآنيّة إلى التوحيد دعوة إلى القول بالوحدة العدديّة التي تقابل الكثرة العدديّة؛ فأجابهم القرآن مصحّحاً لهم وجهة الاعتقاد بالتوحيد بالوحدة الأحديّة التي تنفي كلّ شريك مفروض وتقهره.
5. التوحيد العمليّ هو أن يعمل الإنسان ابتغاء مرضاة الله تعالى ومثوبته؛ وهو على ذِكْر من يوم الحساب الذي فيه ظهور المثوبات والعقوبات.

فكّر وأجب:

1. بيّن حقيقة التوحيد ومراتبه؛ وفق ما ورد في القرآن الكريم
2. كيف نفى القرآن الكريم الشرك والتثليث؟
3. ما هي خصائص التوحيد العمليّ؟

مطالعة:

حقيقة معرفة وحدانيّته تعالى في السنّة الشريفة:

وردت في السنّة الشريفة روايات كثيرة تبيّن حقيقة معرفة وحدانيّته تعالى؛ منها:

- ما رُوي عن الإمام عليّ عليه السلام: «**الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن. الذي ليس لصفته حدّ محدود ولا نعت موجود، ولا وقت معدود، ولا أجل ممدود. فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتد بالصخور ميدان أرضه. أوّل الدين معرفته. وكمال معرفته التصديق به. وكمال التصديق به توحيده. وكمال توحيده الإخلاص له. وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة**»[1].
- ما رُوي عنه عليه السلام - أيضاً -: «**ما وحّده من كيّفه، ولا حقيقته أصاب من مثّله، ولا إيّاه عني من شبّهه، ولا صمّده من أشار إليه وتوهّمه. كلّ معروف بنفسه مصنوع. وكلّ قائم في سواه معلول. فاعل لا باضطراب آلة. مقدّر لا بجول فكرة. غنيّ لا باستفادة. لا تصحبه الأوقات، ولا ترفده الأدوات. سبق الأوقات كونه، والعدم وجوده، والابتداء أزله. بتشعيره المشاعر عُرف أنْ لا مشعر له، وبمضادّته بين الأمور عُرف أنْ لا ضدّ له، وبمقارنته بين الأشياء عُرف أنْ لا قرين له...**»[2].
- ما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**من زعم أنّه يعرف الله بتوهّم القلوب؛ فهو مشرك. ومن زعم أنّه يعرف الله بالاسم دون المعنى؛ فقد أقرّ بالطعن؛ لأنّ الاسم محدث. ومن زعم أنّه يعبد الاسم والمعنى؛ فقد جعل مع الله شريكاً. ومن زعم أنّه يعبد المعنى بالصفة لا بالإدراك؛ فقد أحال على غائب. ومن زعم أنّه يعبد الصفة والموصوف؛ فقد أبطل التوحيد؛ لأنّ الصفة غير الموصوف. ومن زعم أنّه يضيف الموصوف إلى الصفة؛ فقد صغّر الكبير، و ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾. قيل: له:**

(1) الشريف الرضّي، نهج البلاغة، م.س، ج1، الخطبة1، ص14-15.
(2) م.ن، ج2، الخطبة186، ص119-120.

فكيف سبيل التوحيد؟ قال: باب البحث ممكن، وطلب المخرج موجود؛ إنّ معرفة عين الشاهد قبل صفته، ومعرفة صفة الغايب قبل عينه. قيل: وكيف تعرف عين الشاهد قبل صفته؟ قال: تعرفه وتعلم علمه، وتعرف نفسك به، ولا تعرف نفسك بنفسك من نفسك، وتعلم أنّ ما فيه له وبه؛ كما قالوا ليوسف «إنّك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخي»؛ فعرفوه به، ولم يعرفوه بغيره، ولا أثبتوه من أنفسهم بتوهّم القلوب»[1].

(1) المجلسي، بحار الأنوار، م.س، ج65، ص276.

الدرس السابع عشر

البيّنة السابعة عشرة
«هداية القرآن للعقل إلى معرفة التوحيد»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف نماذج من الأدلّة العقليّة التي أوردها القرآن الكريم على التوحيد.
2. يدرك أهمّيّة ارتكاز الاعتقاد بالتوحيد على العقل.
3. يوظّف معرفة التوحيد وخصائصه في تعزيز الارتباط الوجدانيّ باللّه تعالى.

أرشد القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى أحكام عقليّة قطعيّة يحكم بها العقل في نفسه، إذا ما انتهج مقدّمات يقينيّة في الوصول إلى حكمه القطعيّ، ولا سيّما في مجال الاعتقاد؛ لأنّ العقيدة لا بدّ من أن تُبتنى على أسس عقليّة يقينيّة، وأساس هذه العقيدة هو أصل التوحيد الذي يعدّه القرآن الكريم محوراً لغايته السامية؛ وهي الهداية إلى الله تعالى. فالتوحيد يُرشد الإنسان إلى معرفة ذاته تعالى وصفاته وأفعاله، ويحدّد له سلوكه العمليّ الذي يلزمه أن يسلكه بإزاء هذه المعرفة الحقّة.

وعليه، فقد أولى القرآن الكريم اهتماماً كبيراً بتوجيه العقل وإرشاده إلى التوحيد، ومن الآيات الواردة في هذا الصدد ما يأتي:

1. الأنموذج الأوّل:

قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1].

تنطوي هذه الآية على دليل عقليّ يتألّف من مقدّمات ترشد بمجموعها العقل إلى الحكم باستحالة وجود شريك مع الله - تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً -، وقد صاغت الآية هذا الدليل وفق التالي:

أ. قوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ أي افتراض وجود أكثر من إله مع الله -تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً -.

ب. لو فُرِضَ للعالم آلهة فوق الواحد؛ لكانوا مختلفين ذاتاً، متباينين حقيقة.

(1) سورة الأنبياء، الآية 22.

ج. قوله تعالى: ﴿لَفَسَدَتَا﴾؛ لأنّ تباين حقائقهم يقضي بتباين تدبيرهم؛ فتختلف التدبيرات وتفسد السماء والأرض.

د. لكنّ النظام الجاري نظام واحد متلائم الأجزاء في غاياتها.

هـ. النتيجة: فليس للعالم آلهة فوق الواحد؛ وهو المطلوب[1].

2. الأنموذج الثاني:

قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2].

تشتمل هذه الآية على دليلين عقليين مستقلّين يتضمّنان مقدّمات يذعن لها العقل بحكم استحالة وجود أكثر من إله في الوجود. وهذان الدليلان هما:

أ. الدليل الأوّل: قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾، وبيانه التالي:

- ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ﴾. افتراض وجود أكثر من إله للوجود.
- لا يُتصوّر فرض تعدّد الآلهة إلا ببينونتها بوجه من الوجوه؛ بحيث لا تتّحد في معنى ألوهيّتها وربوبيّتها.
- معنى ربوبيّة الإله في شطر من الكون نوع من أنواعه تفويض التدبير فيه إليه؛ بحيث يستقلّ في أمره، من غير أن يحتاج فيه إلى شيء غير نفسه؛ حتى إلى مَنْ فوّض إليه الأمر.
- إنّ المتباينين لا يترشّح منهما إلا أمران متباينان.
- قوله تعالى: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾. لازم التباين أن يستقلّ كلّ من الآلهة بما يرجع إليه من نوع التدبير، وتنقطع رابطة الاتّحاد والاتّصال بين أنواع التدابير الجارية في العالم؛ كالنظام الجاري في العالم الانسانيّ عن الأنظمة الجارية في

(1) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج14، ص266-267. (بتصّرف)

(2) سورة المؤمنون، الآية 91.

أنواع الحيوان والنبات، والبرّ والبحر، والسهل والجبل، والأرض والسماء، وغيرها، وكلّ منها عن كلّ منها، وفيه فساد السماوات والأرض وما فيهنّ.

- لكنّ النظام الكونيّ ملتئم الأجزاء، متّصل التدبير.
- النتيجة: ليس للعالم آلهة فوق الواحد؛ وهو المطلوب.

ب. الدليل الثاني: قوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا... وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾. وبيانه التالي:

- ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ﴾. افتراض وجود أكثر من إله للوجود.
- إنّ التدابير الجارية في الكون مختلفة، منها: التدابير العرضيّة؛ كالتدبيرين الجاريين في البرّ والبحر، والتدبيرين الجاريين في الماء والنار، ومنها: التدابير الطوليّة التي تنقسم إلى تدبير عامّ كلّيّ حاكم، وتدبير خاصّ جزئيّ محكوم؛ كتدبير العالم الأرضيّ وتدبير النبات الذي فيه، وكتدبير العالم السماويّ، وتدبير كوكب من الكواكب التي في السماء، وكتدبير العالم المادّي برمّته، وتدبير نوع من الأنواع المادّيّة.
- بعض التدبير؛ وهو التدبير العامّ الكلّيّ يعلو بعضاً؛ بمعنى أنّه لو انقطع عنه ما دونه بطل ما دونه؛ لتقوّمه بما فوقه، كما أنّه لو لم يكن هناك عالم أرضيّ أو التدبير الذي يجري فيه بالعموم، لم يكن عالم إنسانيّ ولا التدبير الذي يجري فيه بالخصوص.
- قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾. لازم ذلك أن يكون الإله الذي يرجع إليه نوع عالٍ من التدبير عالياً بالنسبة إلى الإله الذي فُوِّض إليه من التدبير ما هو دونه وأخصّ منه وأخسّ.
- استعلاء الإله على الإله محال؛ لأنّ الاستعلاء المذكور يستلزم عدم استقلال المستعلى عليه في تدبيره وتأثيره؛ إذ لا يجمع توقّف التدبير على الغير والحاجة إليه الاستقلال؛ فيكون السافل منها مستمدّاً في تأثيره محتاجاً فيه إلى العالي؛ فيكون سبباً من الأسباب التي يتوسّل بها إلى تدبير ما دونه، لا إلهاً مستقلاً بالتأثير دونه.
- النتيجة: ما فُرِضَ إلهاً هو غير إله، بل سبب يدبّر به الأمر؛ وهذا خلف[1].

(1) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج15، ص62-63. (بتصّرف)

3. الأنموذج الثالث:

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

تكشف هذه الآيات الكريمات عن استدلالات عقليّة قائمة على أساس براهين الحصر العقليّ والترديد الاستفهاميّ الاستنكاريّ؛ لجهة أصل خلق الإنسان والكون أو تدبير أمور المخلوقات...؛ بحيث يذعن معها العقل بالحكم بوحدانيّته تعالى، وما يترتّب عليها من آثار الهداية، ومنها التصديق بما جاء به رسل الله عليهم السلام من تعاليم الدين؛ بما ينقطع معها عذر كلّ إنسان لا يتّبع هذه التعاليم الإلهيّة:

أ. قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾؛ أي أخُلِقَ هؤلاء المكذّبون من غير شيء خُلِقَ منه غيرهم من البشر، فصحّ بحقّ غيرهم إرسال الرسول، والدعوة إلى الحقّ، والتلبّس بعبوديّته تعالى، وأمّا هم فلا يتعلّق بهم تكليف، ولا يتوجّه إليهم أمر ولا نهي، ولا تستتبع أعمالهم ثواباً ولا عقاباً؛ لكونهم مخلوقين من غير ما خُلِقَ منه غيرهم؟!

ب. قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾؛ أي هم الخالقون لأنفسهم، فليسوا مخلوقين لله سبحانه حتى يكون ربّاً لهم ومدبّراً لأمرهم بالأمر والنهي.

ج. قوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾؛ أي: أخلقوا العالم حتى يكونوا أرباباً آلهةً، فيجلّوا أنفسهم عن أن يُستعبَدوا ويكلَّفوا بتكليف العبوديّة؟ بل هم قوم لا يوقنون.

د. قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾؛ أي: أعندهم خزائن ربّك حتى يَرزِقوا النبوّة مَنْ شاؤوا، ويمسكوها عمّن شاؤوا؛ فيمنعوك النبوّة والرسالة؟ أم

(1) سورة الطور، الآيات 35-43.

هم الغالبون القاهرون على الله سبحانه؛ حتى يسلبوك ما رزقك الله من النبوّة والرسالة؟

هـ. قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: أعندهم سلَّم يصعدون فيه إلى السماء، فيستمعون بالصعود فيه الوحي، ويأخذون ما يُوحَى إليهم ويردّون غيره؟! فليأتِ مستمعهم؛ أي المدّعي للاستماع منهم، بحجّة ظاهرة.

و. قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾؛ تسفيه لعقولهم، إذ نسبوا إليه تعالى ما أنفوا منه.

ز. قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾؛ أي: أتسألهم أجراً على تبليغ رسالتك، فهم يتحرّجون عن تحمّل الغُرْم الذي ينوبهم بتأدية الأجر؟!

ح. قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾؛ أي: أعندهم اللوح المحفوظ يكتبون منه ويخبرون به الناس؛ فما أخبروا به عنك من الغيب الذي لا ريب فيه؟! أو: أعندهم علم الغيب فهم يثبتون ما علموه شرعاً للناس عليهم أن يطيعوهم في ما أثبتوا؟!

ط. قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾؛ ظاهر السياق أنّ المراد بكيدهم هو مكرهم بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، بما رموه به من الكهانة والجنون والشعر والتقوّل، ليعرض عنه الناس ويبتعدوا عنه؛ فتبطل بذلك دعوته، وينطفئ نوره. وهذا في الحقيقة كيد منهم ومكر بأنفسهم، إذ يحرمونها السعادة الخالدة والركوب على صراط الحقّ بذلك، بل كيد من الله بقطع التوفيق عنهم، والطبع على قلوبهم.

ي. قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ فلو كان لهم إله غير الله هو الخالق لهم والمدبّر لأمرهم؛ لاستغنوا بذلك عن الله سبحانه واستجابة دعوة رسوله، ولنصرهم إلههم ودفع عنهم عذاب الله الذي أوعد به المكذّبين، وأنذرهم به رسوله[1].

(1) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج19، ص20-22. (بتصّرف)

4. الأنموذج الرابع:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ١٠٢ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[1].

تنطوي هاتان الآيتان على برهان عقليّ على وحدانيّته تعالى عن طريق برهان المستلزمات؛ وبيانه في الآتي:

أ. قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ﴾؛ نتيجة متّخذة من البيان الوارد في الآيات السابقة[2]، والمعنى: إذا كان الأمر على ما ذُكِرَ، فالله الذي وصفناه هو ربّكم لا غير.

ب. قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾؛ كالتصريح بالتوحيد الضمنيّ الذي تشتمل عليه الجملة السابقة، وهو مع ذلك يفيد معنى التعليل؛ أي هو الربّ ليس دونه ربّ؛ لأنّه الله الذي ليس دونه إله، وكيف يكون غيره ربّاً وليس بإله؟!

ج. قوله تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ تعليل لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾؛ أي: إنّما انحصرت الألوهيّة فيه؛ لأنّه خالق كلّ شيء من غير استثناء، فلا خالق غيره لشيء من الأشياء؛ حتى يشاركه في الألوهيّة، وكلّ شي مخلوق له خاضع له بالعبوديّة، فلا يعادله فيها.

د. قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾؛ متفرّع كالنتيجة على قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ﴾؛ أي: إذا كان الله سبحانه هو ربّكم لا غير؛ فاعبدوه.

هـ. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾؛ أي: هو القائم على كلّ شيء، المدبّر لأمره، الناظم نظام وجوده وحياته. وإذا كان كذلك؛ كان من الواجب أن يُتّقى، فلا يُتّخذ

---

(1) سورة الأنعام، الآيتان 102-103.

(2) انظر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٩٥ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٩٦ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٩٧ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ٩٨ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتَۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ (سورة الأنعام، الآيات 95-101).

له شريك بغير علم؛ فالجملة كالتأكيد لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُۚ﴾؛ أي لا تستنكفوا عن عبادته؛ لأنّه وكيل عليكم، غير غافل عن نظام أعمالكم.

و. قوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾؛ دفع للدخل الذي يوهمه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾؛ بحسب ما تتلقّاه أفهام المشركين الساذجة والخطاب معهم؛ وهو أنّه إذا صار وكيلاً عليهم؛ كان أمراً جسمانيّاً؛ كسائر الجسمانيّات التي تتصدّى الأعمال الجسمانيّة؛ فدفعه بأنّه تعالى لا تدركه الأبصار؛ لتعاليه عن الجسميّة ولوازمها.

ز. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾؛ دفع لما يسبق إلى أذهان هؤلاء المشركين الذين اعتادوا التفكّر المادّيّ، وأخلدوا إلى الحسّ والمحسوس؛ وهو أنّه تعالى إذا ارتفع عن تعلّق الأبصار به؛ خرج عن حيطة الحسّ والمحسوس، وبطل نوع الاتّصال الوجوديّ الذي هو مناط الشعور والعلم، وانقطع عن مخلوقاته؛ فلا يعلم بشيء؛ كما لا يعلم به شيء، ولا يُبصر شيئاً كما لا يبصره شيء؛ فأجاب تعالى عن ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾.

ح. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾؛ تعليل للدعوى السابقة. واللطيف هو الرقيق النافذ في الشيء، والخبير من له الخبرة. فإذا كان تعالى محيطاً بكلّ شيء بحقيقة معنى الإحاطة؛ كان شاهداً على كلّ شيء، لا يفقده ظاهر شيء من الأشياء ولا باطنه، وهو مع ذلك ذو علم وخبرة؛ كان عالماً بظواهر الأشياء وبواطنها من غير أن يشغله شيء عن شيء، أو يحتجب عنه شيء بشيء؛ فهو تعالى يُدرِك البصر والمبصَر معاً، والبصر لا يُدرِك إلا المبصَر. وقد نسب إدراكه إلى نفس الأبصار دون أولي الأبصار؛ لأنّ الإدراك الموجود فيه تعالى ليس من قبيل إدراكاتنا الحسّيّة حتّى يتعلّق بظواهر الأشياء؛ من أعراضها؛ كالبصر - مثلاً - الذي يتعلّق بالأضواء والألوان ويُدرَك به القرب والبعد، والعِظَم والصِغَر، والحركة والسكون؛ بنحو، بل الأغراض وموضوعاتها بظواهرها وبواطنها حاضرة عنده، مكشوفة له، غير محجوبة عنه ولا غائبة؛ فهو تعالى يجد الأبصار بحقائقها وما عندها، وليست تناله[1].

(1) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج7، 291-292. (بتصّرف)

الأفكار الرئيسة:

1. أرشد القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى أحكام عقليّة قطعيّة يحكم بها العقل في نفسه، إذا ما انتهج مقدّمات يقينيّة في الوصول إلى حكمه القطعيّ، ولا سيّما في مجال الاعتقاد؛ لأنّ العقيدة لا بدّ من أن تُبتنى على أسس عقليّة يقينيّة، وأساس هذه العقيدة هو أصل التوحيد.
2. انطوت بعض الآيات القرآنيّة على استدلالات عقليّة قائمة على أساس برهان الخلف؛ افتراض شريك للباري، والوصول من خلال هذا الافتراض إلى مخالفة حكم عقليّ بديهيّ وضروريّ (التناقض = الألوهيّة تقتضي الاستقلال/ وعلوّ بعضها على بعض ينفي الاستقلال)، أو حكم وجدانيّ قطعيّ (فساد السماوات والأرض وما فيهما)؛ وبالتالي يكون المفروض غير صحيح (وجود شريك للباري)؛ وخلافه صحيح (نفي الشريك).
3. تضمّنت بعض الآيات القرآنيّة استدلالات عقليّة قائمة على أساس استثارة حكم العقل القطعيّ والوجدان؛ من خلال طريقة برهان الحصر العقليّ والترديد الاستفهاميّ الاستنكاريّ؛ لجهة أصل خلق الإنسان والكون أو تدبير أمور المخلوقات...
4. أرشد القرآن الكريم العقل إلى مجموعة من المستلزمات، إذا ما التفت إليها حكم بوحدانيّته تعالى (الخلق، الألوهيّة، الربوبيّة).

فكّر وأجب:

1. بيّن ما ذكره القرآن الكريم من دليل عقليّ على التوحيد، معتمداً فيه طريقة برهان الخلف.
2. وضّح ما ذكره القرآن الكريم من دليل عقليّ على التوحيد، معتمداً فيه طريقة برهان الحصر العقليّ والترديد الاستفهاميّ الانكاريّ.
3. بيّن ما ذكره القرآن الكريم من دليل عقليّ على التوحيد، معتمداً فيه طريقة برهان المستلزمات.

مطالعة:

محاججة الإمام الصادق عليه السلام لأحد الزنادقة:

ما رواه هشام بن الحكم، في حديث الزنديق الذي أتى أبا عبد الله عليه السلام، وكان من قول أبي عبد الله عليه السلام: لا يخلو قولك: إنّهما اثنان من أن يكونا قديمين قويّين، أو يكونا ضعيفين، أو يكون أحدهما قويّاً والآخر ضعيفاً، فإنْ كانا قويّين فَلِمَ لا يدفع كل واحد منهما صاحبه ويتفرّد بالتدبير؟ وإنْ زعمت أنّ أحدهما قويّ والآخر ضعيف؛ ثبت أنّه واحد؛ كما نقول؛ للعجز الظاهر في الثاني، فإن قلت: إنّهما اثنان، لم يخلُ من أن يكونا متّفقين من كلّ جهة، أو مفترّقين من كلّ جهة؛ فلمّا رأينا الخلق منتظماً، والفلك جارياً، والتدبير واحداً، والليل والنهار والشمس والقمر؛ دلّ صحّة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر على أنّ المدبّر واحد. ثمّ يلزمك إن ادّعيت اثنين فرجة ما بينهما؛ حتّى يكونا اثنين، فصارت الفرجة ثالثاً بينهما قديماً معهما، فيلزمك ثلاثة. فإن ادّعيت ثلاثة؛ لزمك ما قلت في الاثنين؛ حتّى تكون بينهم فرجة، فيكونوا خمسة. ثمّ يتناهى في العدد إلى ما لا نهاية له في الكثرة. قال هشام: فكان من سؤال الزنديق أنْ قال: فما الدليل عليه؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: وجود الأفاعيل دلّت على أنّ صانعاً صنعها، ألا ترى أنّك إذا نظرت إلى بناء مشيّد مبنيّ علمت أنّ له بانياً، وإن كنت لم ترَ الباني ولم تشاهده. قال: فما هو؟ قال: شيء بخلاف الأشياء، ارجع بقولي إلى إثبات معنى، وأنّه شيء بحقيقة الشيئيّة، غير أنّه لا جسم ولا صورة، ولا يُحسّ، ولا يُجسّ، ولا يُدرك بالحواسّ الخمس، لا تدركه الأوهام ولا تنقصه الدهور ولا تغيّره الأزمان[1].

(1) الكلينيّ، الكافي، م.س، ج1، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث، ح5، ص80-81.

الدرس الثامن عشر

البيّنة الثامنة عشرة «معرفة الألوهيّة في القرآن»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يدرك مفهوم الألوهيّة وخصائصها الذاتيّة والأسمائيّة والصفاتيّة والأفعاليّة.
2. يفهم أهمّيّة هذه المعرفة في هداية الإنسان نحو مقصده الكماليّ.
3. يوّظف معرفة الألوهيّة وخصائصها في تعزيز الارتباط الوجدانيّ باللّه تعالى.

1. مفهوم الألوهيّة:

لفظ الجلالة «**الله**» أصله الإله، حُذِفَت الهمزة لكثرة الاستعمال. وإله من أله الرجل يأله؛ بمعنى عبد، أو من أله الرجل أو وله الرجل؛ أي تحيّر. لذا، سُمّي إلهاً؛ لأنّه معبود، أو لأنّه ممّا تحيّرت في ذاته العقول. والظاهر أنّه علم بالغلبة، وقد كان مستعملاً دائراً في الألسن قبل نزول القرآن، يعرفه العرب في الجاهليّة؛ كما يشعر به قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[1]، ﴿فَقَالُواْ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾[2]. وممّا يدلّ على كونه علماً أنّه يُوصف بجميع الأسماء الحسنى وسائر أفعاله المأخوذة من تلك الأسماء من غير عكس، فيقال: الله الرحمن الرحيم، ويقال: رحم الله، وعلم الله، ورزق الله، ولا يقع لفظ الجلالة صفة لشيء منها، ولا يؤخذ منه ما يوصف به شيء منها. ولمّا كان وجوده سبحانه، وهو إله كلّ شيء يهدي إلى اتّصافه بجميع الصفات الكماليّة؛ كان جميعها مدلولاً عليه به بالالتزام، وصحّ ما قيل إنّ لفظ الجلالة اسم للذات الواجب الوجود، المستجمع لجميع صفات الكمال؛ وإلا فهو علم بالغلبة، لم تعمل فيه عناية غير ما يدلّ عليه مادّة إله[3].

2. حقيقة الألوهيّة:

الله اسم علم بالغلبة يُراد به الذات الإلهيّة المقدّسة التي هي حقيقة لا سبيل للبطلان إليها، ووجود لا يتطرّق العدم والفناء إليه. والوجود الذي هذا شأنه؛ لا يمكن أن يفرض له

(1) سورة الزخرف، الآية 87.

(2) سورة الأنعام، الآية 136.

(3) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص18. (بتصّرف)

حدّ محدود، ولا أمد ممدود؛ لأنّ كلّ محدود فهو معدوم وراء حدّه، والممدود باطل بعد أمده؛ فهو تعالى ذات غير محدود، ووجود غير متناه بحدّ.

ولا يكمل التوحيد حتى يُعطى الإله الواحد حقّه من الألوهيّة المنحصرة، فلا يُقتصر على مجرّد تسميته إلهاً واحداً، بل أن يُنسب إليه كلّ ما له نصيب من الوجود والكمال؛ كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، والإعطاء، والمنع، وأن يُخصّ الخضوع والعبادة به، فلا يُتذلّل لغيره بوجه من الوجوه، بل لا يُرجى إلا رحمته، ولا يُخاف إلا سخطه، ولا يُطمع إلا فيما عنده، ولا يُعكف إلا على بابه، وأن يُخلص له علماً وعملاً.

فالألوهيّة المطلقة تجمع كلّ كمال من غير أن تُحدّ بحدّ أو تُقيّد بقيد؛ فلها القدرة المطلقة: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾[1]؛ فقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ يفيد معنى التعليل؛ أي هو الربّ ليس دونه ربّ؛ لأنه الله الذي ليس دونه إله، وكيف يكون غيره ربّاً وليس بإله؟! وقوله تعالى: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ تعليل لقوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾؛ أي إنّما انحصرت الألوهيّة فيه لأنّه خالق كلّ شيء من غير استثناء؛ فلا خالق غيره لشيء من الأشياء حتى يشاركه في الألوهيّة، وكلّ شيء مخلوق له خاضع له بالعبوديّة، فلا يعادله فيها. وقوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾ متفرّع كالنتيجة على قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ﴾؛ أي: إذا كان الله سبحانه هو ربّكم لا غير؛ فاعبدوه، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾؛ أي هو القائم على كلّ شيء المدبّر لأمره، الناظم نظام وجوده وحياته. وإذا كان كذلك، كان من الواجب أن يُتّقى، فلا يُتّخذ له شريك بغير علم؛ فالجملة كالتأكيد لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُوهُۚ﴾؛ أي لا تستنكفوا عن عبادته؛ لأنّه وكيل عليكم، غير غافل عن نظام أعمالكم[2].

3. نفي الشريك في الألوهيّة:

نفى القرآن الكريم وجود شريك لله تعالى في الألوهيّة في كثير من آياته؛ منها قوله:

(1) سورة الأنعام، الآية 102.

(2) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج6، ص93؛ ج7، ص71، 291-292؛ ج11، ص175-176. (بتصّرف)

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[1]، الذي يفيد بجملته اختصاص الألوهيّة بالله عزّ اسمه، ووحدته فيها وحدة تليق بساحة قدسه تبارك وتعالى. وذلك أنّ لفظ الواحد بحسب المتفاهم عند هؤلاء المخاطبين، لا يدلّ على أزيد من مفهوم الوحدة العامّة التي تقبل الانطباق على أنواع مختلفة، لا يليق بالله سبحانه إلا بعضها. فهناك وحدة عدديّة، ووحدة نوعيّة، ووحدة جنسيّة، وغير ذلك، فيذهب وهم كلّ من المخاطبين إلى ما يعتقده ويراه من المعنى. ولو كان قيل: «**والله إله واحد**»، لم يكن فيه توحيد؛ لأنّ أرباب الشرك يرون أنّه تعالى إله واحد، كما أنّ كلّ واحد من آلهتهم إله واحد. ولو كان قيل: «**وإلهكم واحد**»، لم يكن فيه نصّ على التوحيد؛ لإمكان أن يذهب الوهم إلى أنّه واحد في النوع؛ وهو الألوهيّة، نظير ما يقال في تعداد أنواع الحيوان: الفرس واحد، والبغل واحد، مع كون كلّ منهما متعدّداً في العدد، لكن لمّا قيل: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾؛ فأثبت معنى ﴿إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ - وهو في مقابل إلهين اثنين، وآلهة كثيرة - على قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ﴾؛ كان نصّاً في التوحيد بقصر أصل الألوهيّة على واحد من الآلهة التي اعتقدوا بها. وقوله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، جيء به لتأكيد نصوصيّة الجملة السابقة في التوحيد ونفي كلّ توهم أو تأويل يمكن أن يتعلّق بها، والنفي فيه نفي الجنس، والمراد بالإله ما يصدق عليه الإله حقيقة وواقعاً، وحينئذ يصحّ أن يكون الخبر المحذوف هو (موجود) أو (كائن)، أو نحوهما؛ والتقدير: لا إله بالحقيقة والحقّ موجود، وحيث كان لفظة الجلالة مرفوعاً لا منصوباً؛ فلفظ إلّا ليس للاستثناء، بل وصف بمعنى غير، والمعنى: لا إله غير الله موجود. لذا، فقوله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، مسوق لنفي غير الله من الآلهة الموهومة المتخيّلة، لا لنفي غير الله وإثبات وجود الله سبحانه، كما توهّمه كثيرون، ويشهد بذلك أنّ المقام إنّما يحتاج إلى النفي وحسب، ليكون تثبيتاً لوحدته في الألوهيّة، لا الإثبات والنفي معاً، على أنّ القرآن الشريف يعدّ أصل وجوده تبارك وتعالى بديهياً لا يُتوَقّف في التصديق العقليّ به، وإنّما يعني عنايته بإثبات الصفات، كالوحدة، والفاطريّة، والعلم، والقدرة، وغير ذلك.

(1) سورة البقرة، الآية 163.

وربّما يستشكل تقدير الخبر لفظ الموجود أو ما بمعناه أنّه يثبت نفي وجود إله غير الله لا نفي إمكانه، فيجاب عنه بأنّه لا معنى لفرض موجود ممكن مساوي الوجود والعدم ينتهي إليه وجود جميع الموجودات بالفعل وجميع شؤونها، وربّما يجاب عنه بتقدير حقّ، والمعنى: لا معبود حقّ إلا هو.

وتجدر الإشارة إلى أنّ القرآن الكريم استعمل لفظ «**من دون الله**» كثيراً بمعنى الإشراك مع الله تعالى في الألوهيّة، دون الاستقلال؛ أي أن يتّخذ الإنسان غير الله شريكاً له سبحانه في ألوهيّته، لا أن يتّخذ غير الله إلهاً وينفي ألوهيّته سبحانه؛ فإنّ ذلك من لغو القول الذي لا يرجع إلى محصّل، لأنّ الذي يثبته حينئذٍ يكون هو الإله سبحانه، وما ينفيه هو غيره تعالى، فيعود النزاع إلى بعض الأوصاف التي أثبتها. فمثلاً لو قال قائل: «**إن الإله هو المسيح**»، ونفى إله المسيح؛ عاد مفاد كلامه إلى إثبات الإله تعالى وتوصيفه بصفات المسيح البشريّة. ولو قال قائل: «**إنّ الأصنام أو أرباب الأصنام آلهة**»، ونفى ألوهيّة الله تعالى وتقدّس؛ فإنّه يقول بأنّ للعالم إلهاً؛ بحيث يثبت الله سبحانه، لكنّه ينعته بنعت الكثرة والتعدّد ويجعل لله شركاء، أو يقول كما يقول النصارى: «**إنّ الله ثالث ثلاثة؛ أي واحد هو ثلاثة، وثلاثة هو واحد**». ومن قال: «**إنّ مبدأ العالم هو الدهر أو الطبيعة**»، ونفى أن يكون للعالم إله تعالى عن ذلك؛ فقد أثبت للعالم صانعاً؛ وهو الله عزّ اسمه، لكنّه نعته بنعوت القصور والنقص والإمكان. ومن نفى أن يكون لهذا النظام العجيب مبدأ أصلاً ونفى العلّيّة والتأثير على الرغم من صريح ما تقضي به فطرته؛ فقد أثبت عالماً موجوداً ثابتاً لا يقبل النفي والانعدام من رأس؛ أي هو واجب الثبوت وحافظ ثبوته ووجوده إمّا نفسه لا لطروء الزوال والتغيّر إلى أجزائه، وإمّا غيره، فهو الله تبارك وتعالى، وله نعوت كماله. فتبيّن بذلك أنّ الله سبحانه لا يقبل النفي أصلاً إلا بظاهر من القول، من غير أن يكون له معنى معقول. والملاك في ذلك كلّه أنّ الإنسان إنّما يثبت الإله تعالى من جهة الحاجة العامّة في العالم إلى من يقيم أود وجوده ويدبّر أمر نظامه، ثمّ يثبت خصوصيّات وجوده، فما أثبته من شيء لسدّ هذه الخلّة ورفع تلك الحاجة؛ فهو الله

سبحانه، ثمّ إذا أثبت إلهاً غيره أو أثبت كثرة؛ فإمّا أن يكون قد أخطأ في تشخيص صفاته والحدّ في أسمائه، أو يثبت له شريكاً أو شركاء تعالى عن ذلك، وأمّا نفيه وإثبات غيره فلا معنى له[1].

4. صفات الله تعالى:

لا يمكن أن يُفرَض لله صفة خارجة عن ذاته مباينة لنفسه؛ كما هي الحال في صفاته؛ لتأدية هذه المغايرة إلى كونه تعالى محدوداً غير موجود في ظرف وجود هذه الصفة، وفاقداً لا يجد الصفة في ذاته؛ بما يستلزم النقص؛ وهو مستحيل بحقّه تعالى. ولا يمكن أيضاً فرض المغايرة والبينونة بين صفاته الذاتيّة؛ كالحياة والعلم والقدرة؛ لأنّ ذلك يؤدّي إلى وجود حدود في داخل الذات، لا يوجد ما في داخل حدّ في خارجه؛ فيتغاير الذات والصفات ويتكثّر جميعاً ويُحدّ؛ بما يستلزم الاحتياج إلى الصفات وحدودها؛ والاحتياج مستحيل بحقّه تعالى. وهذا كلّه ممّا اعترفت به الوثنيّة على ما تشهد به معارفهم. فممّا لا يتطرّق إليه الشكّ عند المثبتين لوجود الإله سبحانه، لو تفطّنوا أن الله سبحانه موجود في نفسه ثابت بذاته، لا موجود بهذا النعت غيره، وأنّ ما له من صفات الكمال فهو عينه غير زائد عليه، ولا بعض صفات كماله صفات زائدة على بعض؛ فهو علم وقدرة وحياة بعينه. فهو تعالى أحديّ الذات والصفات؛ أي إنّه واحد في وجوده بذاته، ليس قباله شيء إلا موجود به، لا مستقلّ بالوجود. وواحد في صفاته؛ أي ليس هناك صفة له حقيقيّة؛ إلا أن تكون عين الذات؛ فهو الذي يقهر كلّ شيء، ولا يقهره شيء.

والسمع والبصر والعلم وإنْ كانت معدودة من صفاته تعالى الذاتيّة التي هي عين الذات المتعاليّة، من غير أن يتفرّع من أمر غيرها، لكن من العلم، وكذا السمع والبصر، ما هو صفة فعليّة خارجة عن الذات؛ وهي التي يتوقّف ثبوتها على تحقّق متعلّق غير الذات المقدّسة؛ كالخلق والرزق والإحياء والإماتة المتوقّفة على وجود مخلوق ومرزوق وحيّ وميّت. والأشياء لمّا كانت بنفسها وأعيانها مملوكة محاطة له تعالى؛ فهي إنْ كانت

(1) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، 394-395؛ ج6، ص241-243. (بتصّرف)

أصواتاً، سمع ومسموعة له تعالى، وإنْ كانت أنواراً، بصر ومبصرة له تعالى، والجميع، كائنة ما كانت، علم ومعلومة له تعالى؛ وهذا النوع من العلم من صفاته الفعليّة التي تتحقّق عند تحقّق الفعل منه تعالى، لا قبل ذلك، ولا يلزم من ثبوتها بعد ما لم تكن؛ تغيّر في ذاته تعالى وتقدّس؛ لأنها لا تعدو مقام الفعل، ولا تدخل في عالم الذات[1].

5. فعل الله تعالى:

يوجد فرق بين فعلنا وفعله تعالى، فإنّا نتّبع في أفعالنا القوانين والأصول الكلّيّة المأخوذة من الكون الخارجيّ والوجود العينيّ؛ وهي الحاكمة علينا في إرادتنا وأفعالنا. فإذا أكلنا لجوع أو شربنا لعطش؛ فإنّما نريد بذلك الشبع والريّ؛ ما حصّلنا من الكون الخارجيّ، من أنّ الأكل يفيد الشبع، والشرب يفيد الريّ؛ وهو الجواب لو سُئِلنا عن الفعل. وبالجملة فإنّ أفعالنا تابعة للقواعد الكلّيّة والضوابط العامّة المنتزعة من الوجود العينيّ المتفرّعة منه. وأمّا فعله تعالى فهو نفس الوجود العينيّ، والأصول العقليّة الكلّيّة مأخوذة منه، متأخّرة عنه، محكومة له، فلا تكون حاكمة فيه متقدّمة عليه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[2]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾[3]، ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾[4]؛ فلا سؤال عن فعله تعالى بـ «لِمَ»؛ بمعنى السؤال عن السبب الخارجيّ؛ إذ لا سبب دونه يعينه في فعله، ولا بمعنى السؤال عن الأصل الكلّيّ العقليّ الذي يصحّح فعله؛ إذ الأصول العقليّة منتزعة من فعله متأخّرة عنه[5].

6. الأسماء الحسنى:

صرّح القرآن الكريم في كثير من آياته بأنّ لله تعالى الأسماء الحسنى؛ ومنها قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾[6]، ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ

(1) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج7، ص29-30؛ ج11، ص175-176. (بتصّرف)
(2) سورة الأنبياء، الآية 23.
(3) سورة الحجّ، الآية 18.
(4) سورة آل عمران، الآية 60.
(5) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج19، ص86-87. (بتصّرف)
(6) سورة الإسراء، الآية 110.

لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾[1]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[2]، فالله سبحانه لا إله إلا هو ولا معبود سواه؛ لأنّه له الأسماء الحسنى. ومعنى كونها له تعالى أنّه تعالى يملكها لذاته، والذي يوجد منها في غيره؛ فهو بتمليك منه تعالى على حسب ما يريد؛ كما يدلّ عليه قوله تعالى المسوق سوق الحصر فيه تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[3]، ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾[4]، ﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[5]، ﴿أَنَّ ٱلۡقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[6]، ﴿فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[7]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾[8]... ولا محذور في تعميم ملكه بالنسبة إلى جميع أسمائه وصفاته، حتّى ما كان منها عين ذاته؛ كالحيّ، والعليم، والقدير، وكالحياة، والعلم، والقدرة؛ فإنّ الشيء ربّما ينسب إلى نفسه بالملك؛ كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي﴾[9].

وتوصيف الأسماء بالحسنى - وهي مؤنّث أحسن - يدلّ على أنّ المراد بها الأسماء التي فيها معنى وصفيّ، دون ما لا دلالة لها إلا على الذات المتعالية وحسب؛ لو كان بين أسمائه تعالى ما هو كذلك. ولا كلّ معنى وصفيّ، بل المعنى الوصفيّ الذي فيه شيء من الحسن، ولا كلّ معنى وصفيّ حسن، بل ما كان أحسن بالنسبة إلى غيره إذا اعتبرا مع الذات المتعالية؛ فالشجاع والعفيف من الأسماء الحسنة، لكنّهما لا يليقان بساحة قدسه؛ لإنبائهما عن خصوصيّة جسمانيّة لا يمكن سلبها إيّاهما، ولو أمكن لم يكن مانع عن إطلاقهما عليه؛ كالجواد والعدل والرحيم. فكون اسم ما من أسمائه تعالى أحسن الأسماء، أن يدلّ على معنى كماليّ غير مخالط لنقص أو عدم، مخالطة لا يمكن معها تحرير المعنى من ذلك النقص والعدم وتصفيته؛ وذلك في كلّ ما يستلزم حاجة أو عدماً وفقداً[10].

(1) سورة الحشر، الآية 24.
(2) سورة طه، الآية 8.
(3) سورة غافر، الآية 65.
(4) سورة الروم، الآية 54.
(5) سورة غافر، الآية 56.
(6) سورة البقرة، الآية 165.
(7) سورة النساء، الآية 139.
(8) سورة البقرة، الآية 255.
(9) سورة المائدة، الآية 25.
(10) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج8، ص342-344؛ ج14، ص123-125. (بتصّرف)

الأفكار الرئيسة:

1. الله اسم علم بالغلبة، يُراد به الذات الإلهيّة المقدّسة التي هي حقيقة لا سبيل للبطلان إليها، ووجود لا يتطرّق العدم والفناء إليه. فالألوهيّة المطلقة تجمع كلّ كمال من غير أن تُحدّ بحدّ أو تُقيّد بقيد؛ فلها القدرة المطلقة.
2. نفى القرآن الكريم وجود شريك لله تعالى في الألوهيّة في كثير من آياته؛ إذ يستفاد منها اختصاص الألوهيّة بالله عزّ اسمه، وكون وحدته فيها وحدة تليق بساحة قدسه تبارك وتعالى، وحدة ينتفي معها كلّ شريك مفروض.
3. الله تعالى أحديّ الذات والصفات؛ أي إنّه واحد في وجوده بذاته، ليس قباله شيء إلا موجوداً به، لا مستقلاً بالوجود، وواحد في صفاته؛ أي ليس هناك صفة له حقيقيّة؛ إلا أن تكون عين الذات.
4. فعله تعالى هو نفس الوجود العينيّ، فلا سؤال عن فعله تعالى بـ «لِمَ»؛ بمعنى السؤال عن السبب الخارجيّ، ولا بمعنى السؤال عن الأصل الكلّيّ العقليّ الذي يصحّح فعله.
5. الله تعالى له الأسماء الحسنى. ومعنى كونها له تعالى أنّه تعالى يملكها لذاته.

فكّر وأجب:

1. كيف بيّن القرآن الكريم حقيقة الألوهيّة، ونفى الشريك عنه تعالى؟
2. ما هي حقيقة صفاته تعالى؟
3. بيّن حقيقة فعله تعالى وأسمائه الحسنى.

مطالعة:

معرفة الألوهيّة في السنّة الشريفة:

ورد في السنّة الشريفة روايات كثيرة تبيّن حقيقة الألوهيّة وخصائصها؛ منها:

- ما رُوي عن الإمام عليّ عليه السلام: «**الله معناه المعبود الذي يأله فيه الخلق ويُؤله إليه، والله هو المستور عن درك الأبصار، المحجوب عن الأوهام والخطرات**»[1].
- ما رُوي عن الإمام الباقر عليه السلام: «**الله معناه المعبود الذي أله الخلق عن درك ماهيّته والإحاطة بكيفيّته**»[2].
- ما رواه عبد الرحمن بن أبي نجران، قال: كتبت إلى أبي جعفر عليه السلام، أو قلت له: جعلني الله فداك! نعبد الرحمن الرحيم الواحد الأحد الصمد؟ قال: فقال: «**إنّ من عبد الاسم دون المسمّى بالأسماء أشرك وكفر وجحد ولم يعبد شيئاً، بل اعبد الله الواحد الأحد الصمد المسمّى بهذه الأسماء، دون الأسماء. إنّ الأسماء صفات وصف بها نفسه**»[3].
- ما رواه هشام بن الحكم أنّه سأل أبا عبد الله عليه السلام عن أسماء الله واشتقاقها: الله ممَّ هو مشتقّ؟ قال: فقال لي: يا هشام! الله مشتقّ من إله؛ والإله يقتضي مألوها؛ والاسم غير المسمّى، فمن عبد الاسم دون المعنى؛ فقد كفر ولم يعبد شيئاً، ومن عبد الاسم والمعنى؛ فقد كفر وعبد اثنين، ومن عبد المعنى دون الاسم؛ فذاك التوحيد. أفهمت يا هشام؟ قال: فقلت: زدني. قال: إنّ لله تسعة وتسعين اسماً، فلو كان الاسم هو المسمّى؛ لكان كلّ اسم منها إلهاً، ولكنّ الله معنى يُدلّ عليه بهذه الأسماء؛ وكلّها غيره. يا هشام! الخبز اسم للمأكول، والماء اسم للمشروب، والثوب اسم للملبوس، والنار اسم للمحرق. أفهمت يا هشام فهماً تدفع به وتناضل به أعداءنا والمتّخذين مع الله عزّ وجلّ غيره؟ قلت: نعم، قال: فقال: نفعك الله به وثبّتك يا هشام. قال هشام: فوالله ما قهرني أحد في التوحيد حتى قمت مقامي هذا[4].

---

(1) ابن بابويه، محمّد بن عليّ (الصدوق): التوحيد، تصحيح وتعليق: هاشم الحسينيّ الطهرانيّ، لا.ط، قمّ المقدّسة، مؤسّسة النشر الإسلاميّ التابعة لجماعة المدرّسين، لا.ت، ص89.

(2) م.ن، ص89.

(3) الكلينيّ، الكافي، م.س، ج1، كتاب التوحيد، باب المعبود، ح3، ص87-88.

(4) م.ن، ح2، ص87.

الدرس التاسع عشر

البيّنة التاسعة عشرة
«معرفة المعاد في القرآن»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يفهم حقيقة المعاد وأسمائه وأوصافه، والعوامل الباعثة على إنكاره.
2. يدرك أهمّيّة هذه المعرفة في هداية الإنسان نحو مقصده الكماليّ.
3. يوظّف معرفة المعاد وخصائصه في تعزيز الارتباط الوجدانيّ باللّه تعالى.

1. حقيقة المعاد:

اعتنى القرآن الكريم كثيراً ببيان أصل المعاد؛ بوصفه أصلاً من أصول الدين، وأرشد الإنسان إليه صريحاً وتلويحاً في ما يزيد على ثلث آياته؛ فالإنسان فيض من الله تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾[1]، ﴿وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا﴾[2]، وأنّه راجع إليه تعالى بالمعاد: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾[3]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[4]، ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[5]. فحقيقة المعاد هي رجوع الإنسان إلى الفطرة والخِلْقة التي أوجده الله تعالى عليها: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[6]، ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾[7]. وهذا المعاد في موطن النفس الإنسانيّة هو رجوع الروح في النشأة الأخرويّة إلى بدن الإنسان نفسه الذي كان عليه في نشأته الدنيويّة، بعد أن فارقته بالموت: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾[8]. وآيات

(1) سورة الإنسان، الآية 1.
(2) سورة مريم، الآية 9.
(3) سورة العلق، الآية 8.
(4) سورة الإنشقاق، الآية 6.
(5) سورة يونس، الآية 34.
(6) سورة الروم، الآية 30.
(7) سورة الأعراف، الآية 29.
(8) سورة المؤمنون، الآيات 12-16. وانظر: سورة عبس، الآيات 17-23.

شهادة جوارح الإنسان عليه يوم القيامة خير شاهد على أنّ المُعَاد هو الإنسان بروحه وبدنه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

2. المعاد في الشرائع السماويّة السابقة:

لم تنحصر دعوة الإنسان إلى الاعتقاد بالمعاد وترتيب الأثر عليه في السلوك والعمل بالقرآن الكريم، بل إنّ الكتب السماويّة السابقة تضمّنت هذه الدعوة الحقّة - أيضاً -، وهو ما صرّح به القرآن الكريم في حكايته سيرة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، ودعواتهم لأقوامهم وأممهم. ومن هذه الموارد:

أ. دعوة آدم عليه السلام: لقد أمر الله تعالى نبيّه آدم بالهبوط إلى الأرض وانتظار الهداية الإلهيّة ودعوة الناس إلى اتّباعها، حتّى يحين يأتي يوم رجوعهم بالمعاد إلى الله تعالى، ليوفّيهم جزاء ما عملوا في حياتهم الدنيا: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[2].

ب. دعوة نوح عليه السلام: أرسل الله تعالى نبيّه نوحاً عليه السلام لإنذار قومه، محذّراً المعرضين منهم عن الهداية الإلهيّة من عذاب أليم هم ملاقوه حتماً في نشأة أخرى بعد حياتهم الدنيويّة: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾[3].

ج. دعوة إبراهيم عليه السلام: صدح النبيّ إبراهيم عليه السلام بالدعوة إلى الله تعالى؛ مبشّراً ومنذراً بوجود حياة أخرويّة يصير الناس إليها بعد حياتهم الدنيويّة؛ بحيث يجازي الله تعالى فيها الناس بما عملوا: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ... وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ... وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾[4].

د. دعوة موسى عليه السلام: قام النبيّ موسى عليه السلام بأداء مهمّته الإلهيّة في هداية الناس؛ محذّراً إيّاهم من نشأة أخرويّة هم غافلون عنها، يصيرون إليها حتماً بعد حياتهم الدنيويّة؛

(1) سورة النور، الآية 24.

(2) سورة الأعراف، الآيتان 24-25. وانظر: سورة البقرة، الآيات 36-39.

(3) سورة نوح، الآيات 1، 17-18.

(4) سورة الشعراء، الآيات 69-70، 81-82، 87. وانظر: سورة البقرة، الآية 126؛ سورة إبراهيم، الآيات 35-41؛ سورة العنكبوت، الآيتين 16-17.

بحيث يحاسبون فيها على ما قدّموا في حياتهم الدنيويّة: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ... وَيَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ۝٣٩ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ... لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[1].

هـ. دعوة عيسى عليه السلام: أخبر القرآن الكريم عن دعوة النبيّ عيسى عليه السلام قومه إلى عبادة الله الواحد الأحد، وتحذيره إيّاهم من الوقوع في فخّ الشرك؛ لأنّه يلقي بالإنسان في نار جهنّم ويحرمه من دخول الجنّة يوم المعاد: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾[2].

3. أسماء المعاد وأوصافه:

اعتنى القرآن الكريم ببيان أصل المعاد؛ وذكره بأسماء عدّة؛ في كلّ منها دلالة خاصّة على رجوع الخلق إلى ربّهم بالمعاد، وما يستتبع هذا الرجوع من مواقف ومآلات. ومن هذه التسميات:

- يوم القيامة: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[3].
- يوم الدين: أي الحساب والجزاء: ﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۝١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾[4].
- اليوم الآخر: ﴿... مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾[5].
- يوم الحسرة: لأنّه لا يمكن للإنسان حينها تدارك ما فاته: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ﴾[6].
- يوم الوقت المعلوم: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾[7].

(1) سورة غافر، الآيات 27، 32، 39-40، 43. وانظر: سورة يونس، الآية 88؛ سورة القصص، الآية 37.
(2) سورة المائدة، الآية 72.
(3) سورة القيامة، الآية 1.
(4) سورة الانفطار، الآيتان 14-15.
(5) سورة البقرة، الآية 177.
(6) سورة مريم، الآية 39.
(7) سورة الحجر، الآيتان 37-38.

- يوم الفصل: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].
- يوم الحساب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾[2].
- يوم التلاق: أي لقاء الله تعالى بالرجوع إليه بالمعاد، أو تلاقي الخلائق: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[3].
- يوم الآزفة: أي يوم قريب الوقوع: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[4].
- يوم التناد: أي اليوم الذي يتنادى فيه المجرمون في ما بينهم بالعويل والثبور، أو ينادي المجرمون فيه المؤمنين: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ۝٣٢ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾[5].
- يوم الوعيد: أي يوم تحقّق الوعيد الإلهيّ للمجرمين: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾[6].
- يوم الخلود: أي الثبات والدوام في الجنّة أو في النار: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾[7].
- يوم الخروج: أي الخروج للحساب: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾[8].
- يوم الجمع: أي الذي يُجمع فيه الخلق للحساب: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾[9].
- يوم التغابُن: أي يوم انكشاف غبن معاملة المجرمين؛ في بيعهم الآخرة وشرائهم الدنيا: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾[10].
- اليوم الموعود: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾[11].

(1) سورة الدخان، الآية 40.
(2) سورة ص، الآية 26.
(3) سورة غافر، الآية 15.
(4) سورة النجم، الآيتان 57-58.
(5) سورة غافر، الآيتان 32-33.
(6) سورة ق، الآية 20.
(7) سورة ق، الآية 34.
(8) سورة ق، الآية 42.
(9) سورة الشورى، الآية 7.
(10) سورة التغابن، الآية 9.
(11) سورة البروج، الآية 2.

- يوم البعث: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾[1].
- الساعة: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[2].
- الحاقّة: أي اليوم الذي يتحقّق فيه الوعد والوعيد الإلهيّان: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾[3].
- القارعة: لأنّها تقرع القلوب بالفزع، أو تقرع الكافرين بالعذاب: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾[4].
- الطامّة الكبرى: أي العالية والغالبة: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا سَعَىٰ﴾[5].
- الصاخّة: أي الصيحة الشديدة التي تُصمّ الأسماع من شدّتها: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾[6].
- الغاشية: لأنّها تغشى الناس وتحيط بهم: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾[7].
- الواقعة: أي متحقّقة الوقوع: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾[8].

وغيرها من الأسماء؛ كالميعاد، والآخرة، ...

ومن أوصاف المعاد التي ذكرها القرآن الكريم:

- يوم عظيم: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[9].
- يوم كبير: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾[10].
- يوم محيط: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا

(1) سورة الحجّ، الآية 5.
(2) سورة الحجر، الآية 85.
(3) سورة الحاقّة، الآيات 1-3.
(4) سورة القارعة، الآيات 1-3.
(5) سورة النازعات، الآيتان 34-35.
(6) سورة عبس، الآية 33.
(7) سورة الغاشية، الآية 1.
(8) سورة الواقعة، الآيتان 1-2.
(9) سورة الأنعام، الآية 15.
(10) سورة هود، الآية 3.

تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ مُّحِيطٖ﴾[1].

- يوم عقيم: لأنّه لا يليه يوم يمكن للإنسان أن يعوّض فيه ما فاته: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٖ﴾[2].
- يوم أليم: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾[3].
- يوم مشهود: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّمَنۡ خَافَ عَذَابَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾[4].
- يوم عسير: ﴿فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ﴾[5].
- يوم عبوس قمطرير: أي شديد صعب على المجرمين: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾[6].

وغيرها من الأوصاف؛ كيوم مجموع له الناس، ويوم لا ينفع مال ولا بنون، ...

4. العوامل الباعثة على إنكار المعاد:

كشف القرآن الكريم عن العوامل الباعثة على إنكار المعاد من قِبَل الإنسان، في سياق تعرّضه لبيان مسألة المعاد. ومن هذه العوامل:

أ. التحلّل من الالتزامات الدينيّة:

إنّ الاعتقاد بالمعاد والسلوك والعمل وفق هذا الاعتقاد، سوف يؤدّي إلى امتناع الإنسان عن بعض الأعمال والأفعال المحظورة في منطق الدين؛ بما يراه الإنسان مقيّداً لهواه: ﴿وَلَقَدۡ أَتَوۡاْ عَلَى ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِۖ أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ نُشُورٗا ... إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ

(1) سورة هود، الآية 84.
(2) سورة الحج، الآية 55.
(3) سورة هود، الآية 26.
(4) سورة هود، الآية 103.
(5) سورة المدثّر، الآية 9.
(6) سورة الإنسان، الآية 10.

ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا﴾[1].

ب. الحرص على استمرار الهيمنة والتسلّط:

إنّ الإنسان المتسلّط والمستكبر يرى في التزامه بالاعتقاد بالمعاد ومقتضياته تهديداً لتسلّطه على رقاب الناس، وزوالاً لسيادته عليهم؛ لذا فهو يتحلّل من الاعتقاد بالمعاد وينكره ويتمادى في إنكاره من هذا المنطلق. وهذا ما واجهه الأنبياء والرسل عليهم السلام في دعواتهم الإلهيّة للناس؛ إذ إنّ المتصدّين الأوائل لدعواتهم هم أكابر القوم والزعماء: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ﴾[2].

ج. التكذيب بالحقّ:

إنّ استمرار الإنسان على نهج التكذيب بالحقّ، سوف يؤدّي به في النهاية إلى الحرمان من نور الحقّ، والطبع على قلبه بما كسبت يداه من الإثم والتكذيب؛ فلا يعود يرى الحقّ أبداً؛ لذا فهو ينكر المعاد: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ... بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾[3].

(1) سورة الفرقان، الآيات 40، 42-43. وانظر: سورة القيامة، الآيات 3-6.

(2) سورة المؤمنون، الآيات 33-38. وانظر: سورة الأعراف، الآيات 59-60، 66، 75-76، 88، 90، 109، 127.

(3) سورة المؤمنون، الآيات 82-83، 90. وانظر: سورة الصافّات، الآيات 13-18؛ سورة ق، الآيات 2-5.

الأفكار الرئيسة:

1. اعتنى القرآن الكريم كثيراً ببيان أصل المعاد؛ بوصفه أصلاً من أصول الدين، وأرشد الإنسان إليه صريحاً وتلويحاً في ما يزيد على ثلث آياته.
2. المعاد في موطن النفس الإنسانيّة هو رجوع الروح في النشأة الأخرويّة إلى بدن الإنسان نفسه الذي كان عليه في نشأته الدنيويّة، بعد أن فارقته بالموت. وهذا المعاد بروح الإنسان وبدنه.
3. لم تنحصر دعوة الإنسان إلى الاعتقاد بالمعاد وترتيب الأثر عليه في السلوك والعمل بالقرآن الكريم وحسب، بل إنّ الكتب السماويّة السابقة تضمّنت هذه الدعوة الحقّة.
4. اعتنى القرآن الكريم ببيان أصل المعاد؛ وذكره بأسماء عدّة؛ في كلّ منها دلالة خاصّة على رجوع الخلق إلى ربّهم بالمعاد، وما يستتبع هذا الرجوع من مواقف ومآلات. ومن هذه التسميات: يوم المعاد، يوم الفصل، يوم الدين، اليوم الآخر، الساعة، ... كما اعتنى ببيان أوصاف المعاد؛ فذكر جملة من أوصافه؛ منها: يوم عظيم، يوم كبير، يوم محيط، ...
5. كشف القرآن الكريم عن العوامل الباعثة على إنكار المعاد من قِبَل الإنسان، في سياق تعرّضه لبيان مسألة المعاد. ومن هذه العوامل: التحلّل من الالتزامات الدينيّة، والحرص على استمرار الهيمنة والتسلّط، والتكذيب بالحقّ.

فكّر وأجب:

1. بيّن حقيقة المراد من المعاد في القرآن الكريم.
2. هل الاعتقاد بالمعاد أصل اعتقاديّ خاصّ برسالة القرآن؟ بيّن ذلك من خلال القرآن نفسه.
3. ما هي أبرز البواعث على إنكار المعاد؟

مطالعة:

المجازاة وتجسّم الأعمال في الآخرة[1]:

وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تدلّ على أنّ الجزاء يوم الحساب بالأعمال نفسها، ومن هذه الآيات:

- قوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2].
- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾[3].
- قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُۖ﴾[4].
- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًاۗ﴾[5].
- قوله تعالى: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾[6].
- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًاۖ﴾[7].

وغيرها من الآيات... ولو لم يكن في كتاب الله تعالى إلّا قوله: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[8]؛ لكان فيه كفاية؛ إذ الغفلة لا تكون إلا عن معلوم حاضر، وكشف الغطاء لا يستقيم إلا عن مغطّى موجود، فلو لم يكن ما يشاهده الإنسان يوم القيامة موجوداً حاضراً من قَبل؛ لما صحّ أن يُقال للإنسان إنّ هذه أمور كانت مغفولة منك، مستورة عنك؛ فهي اليوم مكشوف عنها الغطاء، مزالة منها الغفلة.

---

(1) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص92-93. (بتصّرف)
(2) سورة التحريم، الآية 7.
(3) سورة البقرة، الآية 281.
(4) سورة البقرة، الآية 24.
(5) سورة آل عمران، الآية 30.
(6) سورة البقرة، الآية 174.
(7) سورة النساء، الآية 10.
(8) سورة ق، الآية 22.

وخلاصة القول: إنّ كلامه تعالى في الآيات المتقدّمة يفيد أمرين:

- **أحدهما:** المجازاة بالثواب والعقاب؛ أي إنّ ما سيستقبل الإنسان من خير أو شر؛ كجنّة أو نار؛ إنّما هو جزاء لما عمله في الدنيا.
- **ثانيهما:** تجسّم الأعمال؛ أي إنّ الأعمال تهيّئ «بنفسها»، أو باستلزامها وتأثيرها؛ أموراً مطلوبة أو غير مطلوبة؛ أي خيراً أو شرّاً؛ وهي التي سيطّلع عليها الإنسان يوم يُكشف عن ساق.

الدرس العشرون

البيّنة العشرون
«هداية القرآن للعقل إلى معرفة المعاد»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف أبرز الأدلّة التي أوردها القرآن الكريم على المعاد.
2. يدرك دور العقل في بناء الاعتقاد بالمعاد.
3. يطّلع على أبرز الشبهات المثارة حول المعاد ويدحضها بالدليل.

1. أدلّة المعاد:

بيّن القرآن الكريم أدلّة عدّة على أصل المعاد، اعتمد في كلّ منها على مقدّمات يقينيّة يحكم العقل على أساسها بأنّ المعاد حقّ لا ريب فيه. ومن هذه الأدلّة:

أ. المعاد غاية الخِلْقة:

أرشد القرآن الكريم إلى أنّ المعاد حقّ لا ريب فيه، لأنّه غاية الخِلْقة. فالله تعالى حكيم في فعل الخلق؛ لأنّه خلق خلقه لغاية إيصالهم إلى ما أراد لهم من كمال؛ كلّ مخلوق بحسب الكمال اللائق به والمستعدّ له في أصل خِلْقته. وقد خلق الإنسان في الحياة الدنيا لغرض إيصاله إلى نشأة أخرويّة، هي الغاية من خلقه في النشأة الدنيويّة: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ١١٢ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ١١٣ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١٤ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ﴾[1].

ب. المعاد لازم لكونه تعالى الحقّ المطلق:

لأنّ الله تعالى هو الحقّ المطلق؛ لذا يتحقّق به كلّ شيء؛ ومنه المعاد؛ لأنّه السبب الأوحد في أصل وجود هذه المخلوقات والنظام الجاري فيها: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾[2].

---

(1) سورة المؤمنون، الآيات 112-115. وانظر سورة الأنبياء، الآيتين 16-17.

(2) سورة الحجّ، الآيتان 6-7.

ج. نظام الخَلْق يرشد إلى المعاد:

لو تأمّل الإنسان في نظام الخلق المشهود؛ لتبيّن له من دون أدنى شكّ ولا ريب، أنّ المعاد حقّ. فكّل ما في عالم الخِلْقة والنظام الجاري فيه يرشد الإنسان إلى وجود المعاد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[1].

د. المعاد مقتضى العدل الإلهيّ:

بيّن القرآن الكريم أنّ المعاد هو مقتضى العدل الإلهيّ؛ لأنّ النشأة الدنيويّة لا يتحقّق فيها العدل من حيث التفريق بالمصير للمطيع والعاصي. لذا، لا بدّ من وجود نشأة أخرويّة يتحقّق فيها عدله تعالى بالمجازاة بالثواب للمطيع والعقاب للعاصي: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾[2].

هـ. المعاد مقتضى تحقّق الوعد والوعيد:

إنّ القرآن الكريم صرّح بوعد المؤمنين بالنعيم المقيم الدائم، وبوعيد الكافرين بالعذاب الأليم المؤبّد. والحال أنّ الدنيا ليست ظرفاً لتحقّق هذا الوعد والوعيد، والله تعالى لا يخلف وعده ووعيده لمن استحقّهما عقلاً؛ لذا، فلا بدّ من نشأة أخرويّة لتحقّق ذلك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ۝١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾[3]، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلٗا﴾[4]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾[5].

---

(1) سورة الحج، الآيتان 5-6. وانظر سورة فاطر، الآية 9؛ سورة الأعراف، الآية 57.

(2) سورة ص، الآية 28. وانظر سورة القلم، الآيتين 35-36؛ سورة الجاثية، الآية 21؛ سورة يونس، الآية 4.

(3) سورة البقرة، الآيتان 161-162.

(4) سورة النساء، الآية 57.

(5) سورة آل عمران، الآية 9.

و. المعاد مقتضى الرحمة الإلهيّة:

بيّن القرآن الكريم أنّ المعاد مقتضى الرحمة الإلهيّة بالخلق؛ من خلال إيصال كلّ مخلوق إلى كماله المستعدّ له في أصل خِلْقته، ولكنّ نيل هذا الكمال في الموجودات المُختارة المُستَكملة؛ كالإنسان والجنّ، رهن بإيمانها وعملها في الحياة الدنيويّة، التي هي نشأة امتحان واختبار وخروج لاستعداداتها الكماليّة إلى حيّز الفعليّة: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]، ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

ز. المعاد خاتمة المسير التكامليّ للإنسان:

صرّح القرآن الكريم بأنّ الإنسان مخلوق متحوّل من نشأة إلى نشأة، حتى يصل إلى الكمال اللائق به في أصل خلقته، وليس له ذلك إلا في نشأة أخرويّة ملائمة لحقيقته الكماليّة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾[3].

ح. المعاد مقتضى الربوبيّة:

إنّ مقتضى عبوديّة العبد هو الطاعة وعدم المخالفة لربّه، ومقتضى ربوبيّة الربّ هو المجازاة والمحاسبة للعبد، ولمّا كانت النشأة الدنيويّة ليست ظرفاً للمجازاة والمحاسبة؛ فلا بدّ من نشأة أخرويّة لتحقّق لوازم الربوبيّة من المجازاة والمحاسبة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾[4].

---

(1) سورة الأنعام، الآية 12.

(2) سورة الروم، الآية 50.

(3) سورة المؤمنون، الآيات 12-16. وانظر: سورة العنكبوت، الآية 64؛ وفي سورة الأعلى، الآيتان 16-17.

(4) سورة الانشقاق، الآيات 6-12. وانظر: سورة الرعد، الآية 5.

2. شبهات حول المعاد:

عرض القرآن الكريم مجموعة من الشبهات التي أوردها الكافرون على مسألة المعاد، وأجابهم عنها بدحض مقولتهم بالدليل؛ ومن هذه الشبهات:

أ. **الشبهة الأولى:** عدم وجود دليل على المعاد؛ فغاية ما يمكن الوصول إليه في مسألة المعاد هو الظنّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾[1].

جواب الشبهة: إنّ الأدلّة والشواهد على المعاد كثيرة جدّاً، تتّضح بمجرّد أن يلتفت إليها الإنسان بأدنى تأمّل في نفسه وفي ما يحيط به؛ وقد تقدّم ذِكْر بعضها. على أنّ العقل البشريّ يكتفي بمجرّد الظنّ في الإيمان بمسائل كهذه حسّاسة وخطيرة؛ كالمعاد.

ب. **الشبهة الثانية:** القول بالمعاد من أساطير الأوّلين التي تردّد ذِكْرها سابقاً ونُقلت إلينا عبر العصور: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2].

جواب الشبهة: إنّ مجرّد تناقل أمر من الأمور عبر التاريخ لا يعني أنّه أصبح أسطورة وخرافة لا واقع لها، بل لأنّ الدين عند الله واحد لجهة الدعوة إلى أصول الاعتقاد والقيم والأخلاق؛ كانت دعوة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام إلى الاعتقاد بالمعاد واحدة عبر التاريخ البشريّ، يتناقلها الإنسان من عصر إلى عصر. وللتحقّق من صدق هذه المسألة، لا بدّ من النظر في الأدلّة والشواهد عليها، لا أن يُصار إلى تكذيبها من دون دليل: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[3].

ج. **الشبهة الثالثة:** القول بالمعاد ضرب من السحر، أو فيه افتراء على الله؛ بهدف تسلّط القائل به على الناس، أو هو ضرب من الجنون الذي ألمّ بالقائل به: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم

(1) سورة الجاثية، الآية 32.
(2) سورة المؤمنون، الآيتان 82-83.
(3) سورة المؤمنون، الآية 90.

مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾[1]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ۝٧ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ﴾[2].

جواب الشبهة: إنّ القول بالمعاد له أدلّته وشواهده الكثيرة التي يدركها الإنسان بأدنى التفات وتأمّل في نفسه وفي ما يحيط به. وعدم التفاته إلى ذلك إمّا بفعل إنكاره وجحوده مع علمه واستيقانه، وإمّا بفعل ضلاله الذي اكتسبه بيديه، وحال بينه وبين رؤية الحقّ: ﴿قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ﴾[3]، ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ۝٨ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾[4].

د. **الشبهة الرابعة:** التشكيك في القدرة على إعادة الأموات بالمعاد: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[5]، ﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ﴾[6]، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾[7].

جواب الشبهة: إنّ معرفة الإنسان بصفاته تعالى والتفاته إلى عظيم قدرته تعالى؛ بالتأمّل في خلق نفسه وما يحيط به والنظام الجاري فيهما؛ يقود الإنسان إلى الإذعان بقدرته تعالى على الإحياء بالمعاد: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ

(1) سورة هود، الآية 7.
(2) سورة سبأ، الآيتان 7-8.
(3) سورة المؤمنون، الآيتان 88-89.
(4) سورة سبأ، الآيتان 8-9.
(5) سورة الجاثية، الآية 25.
(6) سورة ق، الآية 44.
(7) سورة يس، الآية 78.

يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾[1]، ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾[2]، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحِۦ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَ لَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[3].

هـ. **الشبهة الخامسة:** بالموت يتحلّل الإنسان إلى أجزاء مختلطة بالتراب؛ ومعه تصير إعادة الأجزاء الرميمة غير ممكنة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ﴾[4]، ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًاۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾[5].

جواب الشبهة: إنّ منشأ هذه الشبهة هو الجهل بصفاته تعالى الذاتيّة والفعليّة؛ ومنها القدرة على الخلق والإحياء، وعلمه تعالى المطلق بالأشياء: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْۖ وَعِندَنَا كِتَـٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾[6]، ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[7].

و. **الشبهة السادسة:** موت الإنسان هو فناء لذاته وبطلان لشخصيّته؛ ومعه تستحيل إعادته: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۚ﴾[8].

جواب الشبهة: إنّ الموت ليس فناءً لذات الإنسان وانعداماً لشخصيّته، بل انتقال وعبور لنفسه من النشأة الدنيويّة إلى النشأة الأخرويّة، مع حفظ نفسه في جميع

(1) سورة الزمر، الآية 67.
(2) سورة الإسراء، الآية 51.
(3) سورة يس، الآيات 78-83.
(4) سورة سبأ، الآية 3.
(5) سورة ق، الآية 3.
(6) سورة ق، الآية 4.
(7) سورة لقمان، الآية 28.
(8) سورة السجدة، الآية 10.

النشآت حتى يرجع إلى الله تعالى: ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ۞قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾[1]، ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

(1) سورة السجدة، الآيتان 10-11.
(2) سورة الزمر، الآية 42.

الأفكار الرئيسة:

1. أرشد القرآن الكريم إلى أنّ المعاد حقّ لا ريب فيه؛ لأنّه غاية الخِلْقة.
2. لأنّ الله تعالى هو الحقّ المطلق؛ يتحقّق به كلّ شيء؛ ومنه المعاد.
3. لو تأمّل الإنسان في نظام الخلق والتكوين، لتبيّن له من دون أدنى شكّ ولا ريب أنّ المعاد حقّ.
4. بيّن القرآن الكريم أنّ المعاد هو مقتضى العدل الإلهيّ؛ لأنّ النشأة الدنيويّة لا يتحقّق فيها العدل من حيث التفريق بالمصير للمطيع والعاصي؛ لذا، لا بدّ من وجود نشأة أخرويّة يتحقّق فيها عدله تعالى، بالمجازاة بالثواب للمطيع والعقاب للعاصي. وكذلك المعاد هو مقتضى تحقّق الوعد والوعيد، ومقتضى الرحمة الإلهيّة بالخلق، ومقتضى الربوبيّة.
5. المعاد خاتمة المسير التكامليّ للإنسان.
6. عرض القرآن الكريم مجموعة من الشبهات التي أوردها الكافرون على مسألة المعاد، وأجابهم عنها بدحض مقولتهم بالدليل.

فكّر وأجب:

1. اذكر دليلاً عقليّاً على المعاد؛ مبيّناً خصائصه.
2. كيف ردّ القرآن الكريم على شبهة إنكار المعاد لتحلّل أجزاء الإنسان بالموت واختلاطها بالتراب؟
3. كيف ردّ القرآن الكريم على شبهة إنكار المعاد لفقدان ذات الإنسان وبطلان شخصيّته بالموت؟

مطالعة:

مراتب النار الأخرويّة[1]:

إنّ للنار في الآخرة سبع دركات؛ لكلّ دركة منها خصائصها، وهي:

1. **الدركة الأولى: واسمها «جهنّم»**؛ وسُمّيت بذلك لأنّها تتجهّم في وجوه الخلق؛ وهي موضع العُصَاة من أهل التوحيد. وقيل: إنّه لا نار فيها، ولكن يصل حرّ نارها إليهم، فإذا خرج أهل التوحيد منها، جُعِلَت طبقاً على سائر الدرجات. وهذا خلاف ظاهر أكثر الآيات والروايات التي ورد فيها هذا اللفظ: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[2].
2. **الدركة الثانية «لظى»**؛ وهي التي تتلظّى، أي تتلهب، قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾[3]؛ أي تقلع جلدة الرأس.
3. **الدركة الثالثة: «سقر»**؛ وهي التي تسقر، أي تذيب ما أُلقِيَ فيها. قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾[4].
4. **الدركة الرابعة: «الحُطَمَة»**؛ وهي التي تحطّم ما فيها، أي تكسر. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أعلمتم أنّ مالكاً إذا غضب على النار حطّم بعضُها بعضاً لغضبه، وإذا زجرها توثّبت بين أبوابها جزعاً من زجرته»[5].
5. **الدركة الخامسة: «الجحيم»**؛ وهي النار العظيمة. تقول: أجحمت النار فجحمت. قال تعالى في حقّ النار التي أُلقِيَ فيها إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾[7]، ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَآثَرَ الْحَيَاةَ

(1) انظر: الطبرسّي، مجمع البيان في تفسير القرآن، م.س، ج6، ص118.
(2) سورة التوبة، الآية 35.
(3) سورة المعارج، الآيتان 15-16.
(4) سورة المدثّر، الآيات 26-29.
(5) الشريف الرضّي، نهج البلاغة، م.س، ج2، الخطبة183، ص113.
(6) سورة الصافّات، الآية 97.
(7) سورة التكوير، الآية 12.

ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾[1].

6. **الدركة السادسة: «السعير»**؛ وهي المسعورة؛ أي المُوقَدَة غاية الإيقاد. قال تعالى: ﴿مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرًا﴾[2]، ﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ﴾[3].

7. **الدركة السابعة: «الهاوية»**؛ وهي التي تهوي بأهلها، أي تهلكهم. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾[4].

(1) سورة النازعات، الآيات 37-39.
(2) سورة الإسراء، الآية 97.
(3) سورة التكوير، الآية 12.
(4) سورة القارعة، الآيات 8-11.

الدرس الحادي والعشرون

البيّنة الحادية والعشرون
«معرفة النبوّة في القرآن»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1. يعرف حقيقة النبوّة والرسالة وخصائصهما.
2. يفهم أهمية النبوة في هداية الإنسان نحو مقصده الكماليّ.
3. يطّلع على أبرز الشبهات المثارة حول النبوّة ودحضها بالدليل.

1. حقيقة النبوّة والرسالة:

النبوّة حالة إلهيّة غيبيّة يدرك بها الإنسان المعارف التي بها يرتفع الاختلاف والتناقض في الحياة الإنسانيّة. وهذا الإدراك والتلقّي من الغيب هو المسمّى في لسان القرآن بالوحي، والحالة التي يتّخذها الإنسان منه لنفسه تُسمّى بالنبوّة.

ومعنى النبيّ هو حامل النبأ. وأمّا معنى الرسول فهو حامل الرسالة. فالنبيّ هو الذي يبيّن للناس صلاح معاشهم ومعادهم من أصول الدين وفروعه على ما اقتضته عناية الله من هداية الناس إلى سعادتهم: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[1]، وأمّا الرسول فهو الحامل لرسالة خاصّة مشتملة على إتمام حجّة، تستتبع مخالفته هلاكاً أو عذاباً أو نحو ذلك: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[2]، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[3]؛ فللرسول شرف الطاعة بين الله سبحانه وبين خلقه، وللنبيّ شرف العلم بالله وبما عنده.[4]

2. ضرورة النبوّة والرسالة:

أرشد القرآن الكريم العقل إلى مقدّمات يقينيّة؛ يحكم إذا ما التفت إليها بضرورة

(1) سورة البقرة، الآية 213.

(2) سورة النساء، الآية 165.

(3) سورة الإسراء، الآية 15.

(4) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج2، ص131، 139-140، 147-148؛ ج14، ص391-392. (بتصّرف)

النبوّة والرسالة الإلهيّة؛ بوصفها واسطة لهداية الإنسان نحو مقصده الكماليّ؛ وهذه المقدّمات هي:

أ. انسياق الإنسان بفطرته نحو الاختلاف، بفعل الاجتماع البشريّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1].

ب. إنّ هذا الاختلاف القاطع لطريق سعادة النوع الإنسانيّ لا يرتفع ولن يرتفع بما يضعه العقل البشريّ من القوانين المقرّرة: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[2].

ج. إنّ من شأنه وأمره تعالى أن يهدي كلّ شيء إلى ما يتمّ به خلقه: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[3]، ومن تمام خِلْقة الإنسان أن يهتدي إلى كمال وجوده في الدنيا والآخرة: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[4]. فشأنه تعالى هو الإمداد بالعطاء لكلّ من يحتاج إلى إمداده في طريق حياته ووجوده، بحيث يعطيه ما يستحقّه. وعطاؤه غير محظور ولا ممنوع، إلا أن يمتنع ممتنع بسوء حظّ نفسه من قبل نفسه، لا من قبله تعالى.

د. رفع الاختلاف يكمن بإمداد إلهيّ؛ وهو الشعور النبويّ الذي يُوجده الله تعالى في بعض آحاد الناس لا غير؛ بغية إيضاح معالم طريق الوصول إلى مقصدهم الكماليّ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِۚ﴾[5].

هـ. إنّ سنخ هذا الشعور الباطنيّ الموجود في الأنبياء عليهم السلام، غير سنخ الشعور الفكريّ المشترك بين العقلاء من أفراد الإنسان: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[6].

(1) سورة يونس، الآية 19.
(2) سورة هود، الآية 118.
(3) سورة طه، الآية 50.
(4) سورة الإسراء، الآية 20.
(5) سورة البقرة، الآية 213.
(6) سورة الشورى، الآية 51.

و. إنّ هذا الشعور الباطنيّ لا يغلّط النبيّ عليه السلام في إدراكه الاعتقادات والقوانين المُصلِحة لحال النوع الإنسانيّ في سعادته الحقيقيّة: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا ٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾[1].

ز. إنّ النبيّ عليه السلام لا ينطق إلا بالحقّ المُوحَى إليه، وهو أمين في إيصاله للناس: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[2].

لذا، لا بدّ من أن يكون الصنع والإيجاد قد هيّأ للإنسان وصوله إلى كماله اللائق به، وهداه إليه بهداية تكوينيّة مصونة عن الغلط والخطأ[3].

3. خصائص النبوّة والرسالة:

بيّن القرآن الكريم جملة من الخصائص التي يتميّز بها مقام النبوّة والرسالة الإلهيّة، والتي يحكم بها العقل، وهي:

أ. النبوّة والرسالة جعل إلهيّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾[4]، ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحٗا وَإِبۡرَٰهِيمَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَۖ﴾[5].

ب. العصمة من المعصية: ﴿وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٦ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[6]، ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾[7]، والعصمة في تبليغ الرسالة: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ

(1) سورة الجنّ، الآيات 26-28.
(2) سورة النجم، الآيتان 3-4.
(3) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج2، ص130-157. (بتصّرف)
(4) سورة الأنعام، الآية 89.
(5) سورة الحديد، الآية 26.
(6) سورة الأنعام، الآيات 86-88.
(7) سورة ص، الآيتان 46-47.

يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾[1]، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[2]، والعصمة في تطبيق الشريعة والشؤون الفرديّة والاجتماعيّة؛ بمقتضى وثوق الناس بهم وإتمام الحجّة عليهم: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾[3].

ج. التنزّه عن المنفّرات في الخِلْقَة والخُلُق والنسب وغيرها؛ وهو مقتضى وثوق الناس بهم وانجذابهم إلى دعوتهم الإلهيّة، وإتمام الحجّة على الناس: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾[4]، وقد بيّن القرآن نماذج من علوّ مكارم أنبيائه ورسله عليهم السلام وسجاياهم: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًاۚ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾[5]، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾[6]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[7].

د. العلم بالمعارف والأحكام الإلهيّة: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا﴾[8]، ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾[9].

هـ. الكفاءة في القيادة: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ﴾[10]، ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾[11].

(1) سورة الجن، الآيات 26-28.
(2) سورة النجم، الآيتان 3-4.
(3) سورة النساء، الآية 165.
(4) سورة النساء، الآية 165.
(5) سورة يوسف، الآية 31.
(6) سورة القلم، الآية 4.
(7) سورة آل عمران، الآيتان 33-34.
(8) سورة النساء، الآية 54.
(9) سورة النساء، الآية 113.
(10) سورة البقرة، الآية 251.
(11) سورة الحجرات، الآية 7.

4. شبهات حول النبوّة والرسالة:

ذكر القرآن الكريم جملة من الشبهات التي أثارها منكرو النبوّة والرسالة الإلهيّة، وبيّن بطلانها بحكم العقل. ومن هذه الشبهات:

أ. **الشبهة الأولى:** اختيار فرد من آحاد البشر وبعثه بالنبوّة والرسالة إليهم هو ترجيح بلا مرجّح وخسران مبين: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ۝٣٣ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[1].

جواب الشبهة: إنّ المماثلة في الجسم والصورة، لا تعني المماثلة في المعرفة والكمال الروحيّ والمعنويّ اللذين بهما استحقاق البعث بالنبوّة والرسالة والاتّصال بالغيب: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾[2].

ب. **الشبهة الثانية:** الاتّصال بالغيب مختصّ بالملائكة، ولا يتناسب مع الحياة البشريّة؛ إذ لو كان متحقّقاً في آحاد البشر؛ لتحقّق في غيره؛ لاشتراكهم في الخصائص البشريّة. لذا، فادّعاؤه من قِبَل آحاد البشر ضرب من الجنون والسحر: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٤ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[3]، ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾[4]، ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾[5].

جواب الشبهة: أجاب القرآن الكريم عن هذه الشبهة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[6]؛

(1) سورة المؤمنون، الآيتان 33-34.
(2) سورة إبراهيم، الآية 11.
(3) سورة المؤمنون، الآيتان 24-25.
(4) سورة الفرقان، الآيتان 7-8.
(5) سورة الأنعام، الآية 8.
(6) سورة الأنعام، الآيتان 8-9.

فإنّ الحكمة الإلهيّة اقتضت إرسال الرسول من سنخ البشر؛ لجهة حفظ الاختيار الإنسانيّ في الدعوة الدينيّة الإلهيّة؛ إذ لو أُنزل الملك على صورته السماويّة، وبدّل الغيب شهادة؛ كان من الإلجاء الذي لا تستقيم معه الدعوة الاختياريّة. ولو أُنزل عليهم ملك بالرسالة لم ينفعهم ذلك في رفع حيرتهم؛ لأنّ الله جاعل الملك عندئذ رجلاً يماثل الرسول البشريّ، وهم لابسون على أنفسهم معه، متشكّكون في أمرهم؛ فهم لا ينتفعون بذلك شيئاً[1].

ج. **الشبهة الثالثة:** لا يوجد دليل على صدق دعوى الاتّصال بالغيب من قبل آحاد البشر، بل يوجد دليل على عدمه؛ وهو عدم إدراك أغلب البشر لذلك الاتّصال: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ... أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾[2].

جواب الشبهة: إنّ الاتّصال بالغيب لا يدركه على حقيقته إلا آحاد المتّصلين من البشر. ولذلك يحتاج الناس في تصديق الأنبياء والرسل عليهم السلام في دعواهم الاتّصال بالغيب إلى دليل: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[3]؛ وهو ما أجراه الله تعالى على أيديهم عليهم السلام من معاجز قهرت العقول وبهرتها، وجعلتها تذعن بصدق دعواهم وحقّانيّة تعاليمهم السماويّة: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[4]، ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾[5]، ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾[6].

(1) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج7، ص23. (بتصّرف)
(2) سورة ص، الآيتان 4، 8.
(3) سورة الشعراء، الآية 154.
(4) سورة الأعراف، الآيتان 104-105.
(5) سورة آل عمران، الآية 49.
(6) سورة البقرة، الآيتان 23-24.

د. **الشبهة الرابعة:** إذا كانت النبوّة اتّصالاً بالغيب؛ بهدف هداية الناس إلى كمالهم؛ فلماذا حُرمت البشريّة من النبوّة والرسالة بعد النبيّ محمّد ﷺ.

جواب الشبهة: إنّ انقطاع النبوّة التشريعيّة (أي الرسالة)؛ إنّما هو بفعل نزول أكمل الرسالات الإلهيّة وأتمّها إلى الناس: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[1]، ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[2]؛ فلا حاجة للناس بعد إلى النبوّة التشريعيّة.

وأمّا النبوّة التبليغيّة، بمعنى إيضاح تعاليم الدين للناس وتطبيقاته الحقّة، فهي وإن انقطعت وأُوصد بابها؛ إلا أنّ الله تعالى فتح باب الإمامة التي تتولّى مهمّة إراءة طريق الهداية والإيصال إليه: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾[3]، ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾[4]. فالإمامة ليست مطلق الهداية، بل هي الهداية التي تقع بأمر الله؛ وهذا الأمر هو الذي بُيّنت حقيقته في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢ فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[5]، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾[6]. فالأئمّة عليهم السلام يهدون الناس بمصاحبة أمر إلهيّ ملكوتيّ هو الوجه الآخر للخلق، يواجهون به الله سبحانه، طاهر مطهّر من قيود الزمان والمكان، خال من التغيّر والتبدّل، وهو المراد بكلمة «**كن**»، الذي ليس إلا وجود الشيء العينيّ؛ فالإمامة بحسب الباطن نحو ولاية للناس في أعمالهم، وهدايتها إيصالها إيّاهم إلى المطلوب بأمر الله دون مجرّد إراءة الطريق الذي هو شأن النبيّ والرسول عليهما السلام، وكلّ مؤمن يهدي إلى الله سبحانه بالنصح والموعظة الحسنة. فكلّ ما يتعلّق به أمر الهداية - وهو القلوب

(1) سورة المائدة، الآية 3.
(2) سورة آل عمران، الآية 85.
(3) سورة الأنبياء، الآية 73.
(4) سورة السجدة، الآية 24.
(5) سورة يس، الآيتان 82-83.
(6) سورة القمر، الآيتان 49-50.

والأعمال - فللإمام عليه السلام باطنه وحقيقته، ووجهه الأمريّ حاضر عنده غير غائب عنه. ومن المعلوم أنّ القلوب والأعمال كسائر الأشياء في كونها ذات وجهين، فالإمام عليه السلام يحضر عنده ويلحق به أعمال العباد؛ خيرها وشرها، وهو المهيمن على السبيلين جميعاً: سبيل السعادة وسبيل الشقاوة: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ﴾[1]. وهو الذي يسوق الناس إلى الله سبحانه يوم تُبلى السرائر، كما أنّه يسوقهم إليه في ظاهر هذه الحياة الدنيا وباطنها. والإمام عليه السلام لا يخلو منه زمان من الأزمنة، وعصر من الأعصار. ومقام الإمامة على شرافته وعظمته، لا يقوم إلا بمن كان سعيد الذات بنفسه، إذ الذي ربّما تلبّس ذاته بالظلم والشقاء، فإنّما سعادته بهداية من غيره: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ﴾[2]. فالإمام عليه السلام معصوم من الضلال والمعصية، وإلا كان غير مهتدٍ بنفسه، وأفعاله خيرات يهتدي إليها لا بهداية من غيره، بل باهتداء من نفسه بتأييد إلهيّ، وتسديد ربّانيّ[3].

(1) سورة الإسراء، الآية 71.

(2) سورة يونس، الآية 35.

(3) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص272-274. (بتصّرف)

الأفكار الرئيسة:

1. النبوّة حالة إلهيّة غيبيّة يدرك بها الإنسان المعارف التي بها يرتفع الاختلاف والتناقض في الحياة الإنسانيّة. وهذا الإدراك والتلقّي من الغيب هو المسمّى في لسان القرآن بالوحي، والحالة التي يتّخذها الإنسان منه لنفسه تُسمّى بالنبوّة. ومعنى النبيّ هو حامل النبأ. وأمّا معنى الرسول فهو حامل الرسالة.
2. أرشد القرآن الكريم العقل إلى مقدّمات يقينيّة؛ يحكم إذا ما التفت إليها، بضرورة النبوّة والرسالة الإلهيّة؛ بوصفها واسطة لهداية الإنسان نحو مقصده الكماليّ.
3. من خصائص مقام النبوّة والرسالة: أنّه جعل إلهيّ، العصمة، التنزّه عن المنفّرات، العلم بالمعارف والأحكام الإلهيّة، الكفاءة في القيادة.
4. ذكر القرآن الكريم جملة من الشبهات التي أثارها منكرو النبوّة والرسالة الإلهيّة، وبيّن بطلانها بحكم العقل.
5. الإمامة تتولّى مهمّة إراءة طريق الهداية والإيصال إليه. فالإمامة بحسب الباطن نحو ولاية للناس في أعمالهم، وهدايتها إيصالها إيّاهم إلى المطلوب بأمر الله، دون مجرّد إراءة الطريق الذي هو شأن النبيّ والرسول عليهما السلام.

فكّر وأجب:

1. ما هي حقيقة النبوّة والرسالة؟ وما الفرق بين النبيّ عليه السلام والرسول عليه السلام؟
2. ما الدليل على ضرورة النبوّة والرسالة؟
3. ما هي خصائص مقام النبوّة والرسالة والإمامة؟

مطالعة:

فلسفة النبوّة والرسالة في السنّة الشريفة:

وردت في السنّة الشريفة مجموعة من الروايات التي تبيّن فلسفة النبوّة وإرسال الرسل الإلهيّين؛ منها:

- ما رُوي عن الإمام عليّ عليه السلام: «**واصطفى سبحانه من ولده (أي ولْد آدم عليه السلام)، أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم، لمّا بدّل أكثر خلقه عهد الله إليهم، فجهلوا حقّه، واتّخذوا الأنداد معه، واجتالتهم الشياطين عن معرفته، واقتطعتهم عن عبادته، فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءه؛ ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكّروهم منسيّ نعمته، ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول، ويروهم الآيات المقدّرة، من سقف فوقهم مرفوع، ومهاد تحتهم موضوع، ومعايش تحييهم، وآجال تفنيهم، وأوصاب تهرمهم، وأحداث تتابع عليهم. ولم يُخْلِ سبحانه خلقه من نبيّ مرسل، أو كتاب منزل، أو حجّة لازمة، أو محجّة قائمة؛ رسل لا تقصّر بهم قلّة عددهم، ولا كثرة المكذّبين لهم؛ من سابق سُمّي له من بعده، أو غابر عرفه من قبله. على ذلك نسلت القرون، ومضت الدهور، وسلفت الآباء، وخلفت الأبناء، إلى أن بعث الله سبحانه محمّداً رسول الله صلّى الله عليه وآله، لإنجاز عدته، وتمام نبوّته؛ مأخوذاً على النبيّين ميثاقه، مشهورة سماته، كريماً ميلاده. وأهل الأرض يومئذ ملل متفرّقة، وأهواء منتشرة، وطوائف متشتّتة؛ بين مشبّه لله بخلقه، أو ملحد في اسمه، أو مشير إلى غيره؛ فهداهم به من الضلالة، وأنقذهم بمكانه من الجهالة**»[1].

- ما رواه هشام بن الحكم، عن أبي عبد الله عليه السلام، أنّه قال للزنديق الذي سأله: من أين أثبتَّ الأنبياء والرسل؟ قال: «**إنّه لمّا أثبتنا أنّ لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنّا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً؛ لم يجز أن يشاهده**

(1) الشريف الرضّي، نهج البلاغة، م.س، ج1، الخطبة1، ص23-25.

خلقه، ولا يلامسوه، فيباشرهم ويباشروه، ويحاجّهم ويحاجّوه؛ ثبت أنّ له سفراء في خلقه، يعبّرون عنه إلى خلقه وعباده، ويدلّونهم على مصالحهم ومنافعهم، وما به بقاؤهم، وفي تركه فناؤهم. فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه، وثبت عند ذلك أنّ له معبّرين، وهم الأنبياء عليهم السلام وصفوته من خلقه، حكماء مؤدّبين بالحكمة، مبعوثين بها، غير مشاركين للناس - على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب - في شيء من أحوالهم، مؤيّدين من عند الحكيم العليم بالحكمة، ثمّ ثبت ذلك في كلّ دهر وزمان؛ ممّا أتت به الرسل والأنبياء من الدلائل والبراهين، لكيلا تخلو أرض الله من حجّة يكون معه علم يدلّ على صدق مقالته، وجواز عدالته»[1].

(1) الكلينيّ، الكافي، م.س، ج1، كتاب الحجّة، باب الاضطرار إلى الحجّة، ح1، ص168.

الدرس الثاني والعشرون

البيّنة الثانية والعشرون «معرفة العبوديّة في القرآن»

أهداف الدرس

على المتعلّم مع نهاية هذا الدرس أن:

1 . يعرف حقيقة العبوديّة وحقّها.

2 . يدرك أهمّيّة التحقّق بالعبوديّة في وصول الإنسان إلى مقصده الكماليّ

3 . يشرح دواعي العبودية والغاية منها.

1. حقيقة العبوديّة:

العبادة هي نصب العبد نفسه في مقام المملوكيّة لربّه. والعبوديّة إنّما تستقيم بين العبيد ومواليهم في ما يملكه الموالي منهم، وأمّا ما لا يتعلّق به الملك من شؤون وجود العبد؛ ككونه ابن فلان أو ذا طول في قامته، فلا يتعلّق به عبادة ولا عبوديّة. لكنّ الله سبحانه في ملكه لعباده على خلاف هذا النعت؛ فلا ملكه يشوبه ملك ممّن سواه، ولا العبد يتبعّض في نسبته إليه تعالى، فيكون شيء منه مملوكاً وشيء آخر غير مملوك، ولا تصرّف من التصرّفات فيه جائز وتصرّف آخر غير جائز؛ كما نراه في ما بيننا من أمر العبيد؛ إذ إنّ شيئاً منهم مملوك؛ وهو أفعالهم الاختياريّة، وشيئاً آخر غير مملوك؛ وهو أوصافهم الاضطراريّة. وبعض التصرّفات فيهم جائز؛ كالاستفادة من فعلهم، وبعضها غير جائز؛ كقتلهم من غير جرم مثلاً. والله تعالى مالك مطلقاً من غير شرط ولا قيد، وغيره مملوك مطلقاً من غير شرط ولا قيد؛ فهناك حصر من جهتين: الربّ مقصور في المالكيّة، والعبد مقصور في العبوديّة، وهذه هي التي يدلّ عليها قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[1]؛ حيث قُدِّمَ المفعول وأُطلقت العبادة. ثم إنّ الملك حيث كان متقوّم الوجود بمالكه، فلا يكون حاجباً عن مالكه ولا يُحجَب عنه: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾[2]. وما سواه تعالى ليس له إلا المملوكيّة وحسب؛ وهذه حقيقته، فشيء منه في الحقيقة لا يُحجَب عنه تعالى، ولا النظر إليه يجامع الغفلة عنه تعالى، فله تعالى الحضور المطلق[3].

---

(1) سورة الفاتحة، الآية 5.

(2) سورة فصّلت، الآيتان 53-54.

(3) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص24. (بتصّرف)

2. العبادة نزوع فطريّ:

إذا قضى الإنسان أنّ للعالم إلهاً خلقه بعلمه وقدرته؛ لم يكن له بدّ من أن يخضع له خضوع عبادة؛ اتّباعاً للناموس الكونيّ؛ وهو خضوع الضعيف للقويّ، ومطاوعة العاجز للقادر، وتسليم الصغير الحقير للعظيم الكبير. فإنّه ناموس عامّ جارٍ في الكون، حاكم في جميع أجزاء الوجود، وبه تؤثّر الأسباب في مسبّباتها، وتتأثّر المسبّبات عن أسبابها. وإذا ظهر الناموس المذكور لذوات الشعور والإرادة من الحيوان؛ كان مبدأً للخضوع والمطاوعة من الضعيف للقويّ؛ كما نشاهده من حال الحيوانات العجم، إذا شعر الضعيف منها بقوّة القويّ، آيساً من الظهور عليه والقدرة على مقاومته. وظهوره في العالم الإنسانيّ أوسع وأبين من سائر الحيوان؛ لما في هذا النوع من عمق الإدراك وخصيصة الفكر؛ فهو متفنّن في إجرائه في غالب مقاصده وأعماله؛ جلباً للنفع أو دفعاً للضرر؛ كخضوع الرعيّة للسلطان، والفقير للغنيّ، والمرؤوس للرئيس، والمأمور للآمر، والخادم للمخدوم، والمتعلّم للعالم، والمحبّ للمحبوب، والمحتاج للمستغني، والعبد للسيّد، والمربوب للربّ. وجميع هذه الخضوعات من نوع واحد؛ وهو تذلّل وهوان نفسانيّ، قبال عزّة وقهر مشهودين. والعمل البدنيّ الذي يُظهر هذا التذلّل والهوان. هو العبادة؛ أيّاً ما كانت؟ وممّن؟ ولمن تحقّقت؟ ولا فرق في ذلك بين الخضوع للربّ تعالى وبينه إذا تحقّق من العبد بالنسبة إلى مولاه، أو من الرعيّة بالنسبة إلى السلطان، أو من المحتاج بالنسبة إلى المستغني، أو غير ذلك؛ فكلّها عبادة. ولا سبيل إلى ردع الإنسان عن هذا الخضوع، لاستناده إلى قضاء فطريّ ليس للإنسان أن يتجافى عنه؛ إلا أن يتبيّن له أنّ الذي كان يظنّه قويّاً ويستضعف نفسه دونه، ليس على ما كان يظنّه، بل هما سواء مثلاً. ومن هنا، نرى أنّ القرآن الكريم لم ينهَ عن اتّخاذ آلهة دون الله وعبادتهم؛ إلا بعدما بيّن للناس أنّهم مخلوقون مربوبون أمثالهم، وأنّ العزّة والقوّة لله جميعاً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡ﴾[1]، ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ

(1) سورة الأعراف، الآية 194.

إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوكُمْ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾[1]، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[2]؛ فقد ختم الآية بحديث التسليم لله تعالى، بعد ما دعاهم إلى ترك عبادة غير الله تعالى من الآلهة، ورفض الخضوع للمخلوقين المماثلين لهم، وقال تعالى: ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[3]، ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾[4]، ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ﴾[5]، إلى غير ذلك من الآيات. فليس عند غيره تعالى ما يدعو إلى الخضوع له؛ فلا يسوغ الخضوع لأحد من دونه؛ إلا أن يؤول إلى الخضوع لله، ويرجع تعزيره أو تعظيمه وولايته إلى ناحيته: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ... فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[6]، ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟... وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾[7]، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[8]، ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾[9]؛ فلا خضوع في الإسلام لأحد دون الله؛ إلا ما يرجع إليه تعالى ويُقصَد به[10].

3. دواعي العبادة:

إنّ العبادة تكون لأحد ثلاث خصال: إمّا رجاءً لما عند المعبود من الخير، فيعبد طمعاً في الخير الذي عنده، ليناله بذلك. وإمّا خوفاً ممّا في الإعراض عنه وعدم الاعتناء بأمره من

(1) سورة الأعراف، الآيتان 197 - 198.
(2) سورة آل عمران، الآية 64.
(3) سورة البقرة، الآية 165.
(4) سورة النساء، الآية 139.
(5) سورة السجدة، الآية 4.
(6) سورة الأعراف، الآية 157.
(7) سورة المائدة، الآية 55.
(8) سورة التوبة، الآية 71.
(9) سورة الحج، الآية 32.
(10) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج10، ص274-275. (بتصّرف)

الشرّ، وإمّا لأنّه أهل للعبادة والخضوع. والله سبحانه هو المالك لكلّ خير، لا يملك غيره شيئاً من الخير؛ إلا ما ملّكه هو إيّاه؛ وهو المالك مع ذلك لما ملّكه، والقادر على ما عليه أقدره. وهو المنعم المفضل، المحيي الشافي، الرازق، الغفور الرحيم، الغنيّ العزيز، وله كلّ اسم فيه معنى الخير؛ فهو سبحانه المستحقّ للعبادة؛ رجاءً لما عنده من الخير دون غيره. والله سبحانه هو العزيز القاهر الذي لا يقوم لقهره شيء، وهو المنتقم ذو البطش، شديد العقاب، لا شرّ لأحد عند أحد إلا بإذنه، فهو المستحقّ لأن يُعبد خوفاً من غضبه؛ لو لم يُخضع لعظمته وكبريائه. والله سبحانه هو الأهل للعبادة وحده؛ لأنّ أهليّة الشيء لأن يُخضَع له لنفسه ليس إلا لكمال؛ فالكمال وحده هو الذي يخضَع عنده النقص الملازم للخضوع؛ وهو إمّا جمال تنجذب إليه النفس انجذاباً، وإمّا جلال يخرّ عنده اللبّ، ويذهل دونه القلب؛ وله سبحانه كلّ الجمال، وما من جمال إلا وهو آية لجماله، وله سبحانه كلّ الجلال، وكلّ ما دونه آيته. فالله سبحانه لا إله إلا هو، ولا معبود سواه؛ لأنّه له الأسماء الحسنى[1].

4. حقّ العبوديّة:

لمّا كان الله تعالى مالكاً مطلقاً من غير شرط ولا قيد (الربّ مقصور في المالكيّة)، وغيره مملوكاً له تعالى مطلقاً من غير شرط ولا قيد (العبد مقصور في العبوديّة)؛ فحقّ عبادته تعالى أن يكون عن حضور من الجانبين. أمّا من جانب الربّ عزّ وجلّ، فأن يُعبد عبادة معبود حاضر؛ وهو الموجب للالتفات المأخوذ في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾[2] عن الغيبة إلى الحضور؛ فبعد أن كان الكلام عن الله تعالى بأسلوب الغيبة في الآيات السابقة على هذه الآية: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[3]، عدل إلى الكلام عن الله تعالى بأسلوب الحضور: ﴿إِيَّاكَ﴾؛ لمناسبة ذلك لمقام العبادة الحقّة، وأنّها عن حضور للمعبود في عبادة العبد. وأمّا من جانب العبد، فأن

(1) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص37-38؛ ج14، ص123-124. (بتصّرف)
(2) سورة الفاتحة، الآية 5.
(3) سورة الفاتحة، الآيات 1-4.

تكون عبادته عبادة عبد حاضر من غير أن يغيب في عبادته، فتكون عبادته صورة من غير معنى، وجسداً من غير روح، أو يتبعّض فيشتغل بربّه وبغيره؛ إمّا ظاهراً وباطناً؛ كالوثنيين في عبادتهم لله ولأصنامهم معاً، وإمّا باطناً وحسب؛ كمن يشتغل في عبادته بغيره تعالى بنحو الغايات والأغراض، كأنْ يعبد الله وهمّه في غيره، أو يعبد الله طمعاً في جنّة أو خوفاً من نار، فإنّ ذلك كلّه من الشرك في العبادة الذي ورد النهي عنه: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[1]، ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ﴾[2]. فالعبادة إنّما تكون عبادة حقيقة، إذا كانت عن خلوص من العبد؛ وهو الحضور الذي مرّ ذِكْره؛ وقد ظهر أنّه إنّما يتمّ إذا لم يشتغل العبد بغيره تعالى في عمله، فيكون قد أعطاه الشركة مع الله سبحانه في عبادته، ولم يتعلّق قلبه في عبادته، رجاءً أو خوفاً، هو الغاية في عبادته؛ كجنّة أو نار، فتكون عبادته له لا لوجه الله، ولم يشتغل بنفسه، فيكون منافياً لمقام العبوديّة التي لا تلائم الإنّيّة والاستكبار[3].

5. الغاية من العبادة:

بيّن القرآن الكريم الغاية من خلق الإنس والجنّ وربطها بتحقّقهم بالعبادة له؛ بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[4]؛ فما هي الغاية الكامنة في تحقّقهم بالعبوديّة لله تعالى، بحيث تكون هدفاً وغاية لخلقهم؟ لو تأمّلنا في الآية السابقة لوجدنا فيها التفاتاً من سياق التكلّم بالغير إلى التكلّم وحده؛ لأنّ الأفعال المذكورة (في الآيات السابقة على هذه الآية) المنسوبة إليه تعالى؛ كالخلق، وإرسال الرسل، وإنزال العذاب؛ كلّ ذلك ممّا يقبل توسيط الوسائط؛ كالملائكة وسائر الأسباب، بخلاف الغرض من الخلق والإيجاد؛ فإنّه أمر يختصّ بالله سبحانه لا يشاركه فيه أحد. وقوله: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾

(1) سورة الزمر، الآية 2.
(2) سورة الزمر، الآية 3.
(3) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص24-26. (بتصّرف)
(4) سورة الذاريات، الآية 56.

استثناء من النفي لا ريب في ظهوره في أنّ للخلقة غرضاً، وأنّ الغرض العبادة؛ بمعنى كونهم عابدين لله، لا كونه معبوداً، فقد قال: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾، ولم يقل: (لأُعبد) أو (لأكون معبوداً لهم). على أنّ الغرض كيفما كان، أمر يستكمل به صاحب الغرض وترتفع به حاجته، والله سبحانه لا نقص فيه ولا حاجة له حتى يستكمل به وترتفع به حاجته. ومن جهة أخرى، الفعل الذي لا ينتهي إلى غرض لفاعله لغو سفهيّ. ويُستنتج منه أنّ له سبحانه في فعله غرضاً هو ذاته، لا غرضاً خارجاً منه، وأنّ لفعله غرضاً يعود إلى نفس الفعل؛ وهو كمال للفعل لا لفاعله؛ فالعبادة غرض لخِلْقة الإنسان، وكمال عائد إليه، هي وما يتبعها من الآثار؛ كالرحمة والمغفرة وغير ذلك، ولو كان للعبادة غرض؛ كالمعرفة الحاصلة بها والخلوص لله، كان هو الغرض الأقصى، والعبادة غرضاً متوسطاً.

وهذا ما أشارت إليه الروايات المأثورة عن أهل بيت العصمة عليهم السلام؛ بصدد تفسيرهم لهذه الآية؛ منها: ما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: خرج الحسين بن عليّ (عليهما السلام) على أصحابه، فقال: «**إنّ الله عزّ وجلّ ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه**»[1]. والمراد أنّ الغرض الأعلى هو الرحمة الخاصّة المترتّبة على العبادة؛ وهي السعادة الخاصّة بالمعرفة[2].

6. إمكانيّة الشرك في العبادة والاستكبار عنها؟

إنّ العبادة منافية للاستكبار وغير منافية للاشتراك؛ فمن الجائز أن يشترك أزيد من واحد في ملك رقبة أو في عبادة عبد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3]، ﴿وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾[4]؛ فعدّ الإشراك ممكناً؛ ولذلك نهى عنه، والنهي لا يمكن إلا عن ممكن مقدور، بخلاف الاستكبار عن العبادة؛ فإنّه لا يجامعها[5].

(1) الصدوق، علل الشرائع، م.س، ج1، باب9، ح1، ص9.
(2) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج18، ص386-391. (بتصّرف)
(3) سورة غافر، الآية 60.
(4) سورة الكهف، الآية 110.
(5) الطباطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص24-25. (بتصّرف)

7. صور تشريع المناسك العباديّة:

إذا رجعنا إلى قصّة إبراهيم عليه السلام وسيره بولده وحرمه إلى أرض مكّة، وإسكانهما هناك، وما جرى عليهما من الأمر: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾[1]؛ حتى آل الأمر إلى ذبح إسماعيل عليه السلام، وفدائه من جانب الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾[2] وبنائهما البيت: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3]؛ وجدنا القصّة دورة كاملة من السير العبوديّ الذي يسير به العبد من موطن نفسه إلى قرب ربّه، ومن أرض البعد إلى حظيرة القرب؛ بالإعراض عن زخارف الدنيا وملاذها وأمانيّها؛ من جاه، ومال، ونساء، وأولاد، والانقلاع والتخلّص عن وسائس الشياطين، وتكديرهم صفو الإخلاص والإقبال، والتوجّه إلى مقام الربّ ودار الكبرياء. فها هي وقائع متفرّقة مترتّبة تسلسلت، وتألّفت قصّة تاريخيّة تحكي عن سير عبوديّ من العبد إلى الله سبحانه، وتشمل من أدب السير والطلب والحضور ورسوم الحبّ والوله والإخلاص على ما كلّما زدت في تدبّره إمعاناً؛ زادك استنارة ولمعاناً. ثمّ إنّ الله سبحانه أمر خليله إبراهيم عليه السلام، أن يشرّع للناس عمل الحجّ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ...﴾[4]، وما شرّعه عليه السلام وإن لم يكن معلوماً لنا بجميع خصوصيّاته، لكنّه كان شعاراً دينيّاً عند العرب في الجاهلية إلى أن بعث الله النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وشرّع فيه ما شرّع، ولم يخالف فيه ما

(1) سورة إبراهيم، الآية 37.
(2) سورة الصافّات، الآيات 103-107.
(3) سورة البقرة، الآيات 127-128.
(4) سورة الحجّ، الآية 27.

شرّعه إبراهيم عليه السلام إلّا بالتكميل؛ كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ...﴾[2]. وكيفما كان، فما شرّعه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من نسك الحجّ المشتمل على الإحرام والوقوف بعرفات، ومبيت المشعر والتضحية ورمي الجمرات، والسعي بين الصفا والمروة والطواف والصلاة بالمقام؛ تحكي قصّة إبراهيم عليه السلام، وتمثّل مواقفه ومواقف أهله ومشاهدهم. ويا لها من مواقف طاهرة إلهيّة، القائد إليها جذبة الربوبيّة، والسائق نحوها ذلّة العبوديّة. والعبادات المشروعة - على مشرّعيها أفضل السلام - صور لمواقف الكمَّلين من الأنبياء عليهم السلام من ربّهم، وتماثيل تحكي عن مواردهم ومصادرهم في مسيرهم إلى مقام القرب والزلفى؛ كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[3]؛ وهذا أصل. وفي الأخبار المبيّنة لحكم العبادات وأسرار جعلها وتشريعها[4]، شواهد كثيرة على هذا المعنى، يعثر عليها المتتبّع البصير[5].

(1) سورة الأنعام، الآية 161.
(2) سورة الشورى، الآية 13.
(3) سورة الأحزاب، الآية 21.
(4) يمكن مراجعة كتاب علل الشرائع للشيخ الصَّدوق قدس سره وقد جمع فيه الروايات المبيّنة لوجه الحكمة أو العلّة التي شّرعت من أجلها تشريعات الدين.
(5) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، م.س، ج1، ص298-299. (بتصّرف)

الأفكار الرئيسة:

1. العبادة نزوع فطريّ، وهي نصب العبد نفسه في مقام المملوكيّة لربّه.
2. إنّ العبادة تكون لأحد ثلاث خصال: إمّا رجاءً لما عند المعبود من الخير، وإمّا خوفاً ممّا في الإعراض عنه وعدم الاعتناء بأمره من الشرّ، وإمّا لأنّه أهل للعبادة والخضوع.
3. حقّ عبادته تعالى أن يكون عن حضور من الجانبين؛ أمّا من جانب الربّ عزّ وجلّ، فأن يُعبد عبادة معبود حاضر، وأمّا من جانب العبد، فأن تكون عبادته عبادة عبد حاضر من غير أن يغيب في عبادته.
4. العبادة غرض لخِلْقة الإنسان، وكمال عائد إليه، هي وما يتبعها من الآثار؛ كالرحمة والمغفرة وغير ذلك. ولو كان للعبادة غرض، كالمعرفة الحاصلة بها والخلوص لله؛ كان هو الغرض الأقصى، والعبادة غرضاً متوسطاً.
5. العبادة منافية للاستكبار، وغير منافية للاشتراك.
6. العبادات المشروعة صور لمواقف الكاملين من الأنبياء عليهم السلام من ربّهم، وتماثيل تحكي عن مواردهم ومصادرهم في مسيرهم إلى مقام القرب والزلفى.

فكّر وأجب:

1. بيّن حقيقة العبوديّة ودواعيها.
2. هل يميل الإنسان إلى العبادة بالفطرة؟ وما هي الغاية من العبادة؟
3. هل العبادة تتنافى مع الاستكبار والاشتراك؟ أوضح ذلك.

مطالعة:

دواعي العبادة ومراتبها في السنّة الشريفة:

وردت في السنّة الشريفة روايات عدّة تبيّن دواعي العبادة ومراتبها؛ منها:

- ما رُوي عن الإمام عليّ عليه السلام: «**إنّ قوماً عبدوا الله رغبة؛ فتلك عبادة التجّار، وإنّ قوماً عبدوا الله رهبة؛ فتلك عبادة العبيد، وإنّ قوماً عبدوا الله شكراً؛ فتلك عبادة الأحرار**»[1].
- ما رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**العباد ثلاثة: قوم عبدوا الله عزّ وجلّ خوفاً؛ فتلك عبادة العبيد، وقوم عبدوا الله تبارك وتعالى طلب الثواب؛ فتلك عبادة الأجراء، وقوم عبدوا الله عزّ وجلّ حبّاً له؛ فتلك عبادة الأحرار؛ وهي أفضل العبادة**»[2].
- ما رُوي عنه عليه السلام أيضاً: «**إنّ الناس يعبدون الله على ثلاثة أوجه: فطبقة يعبدونه رغبة في ثوابه؛ فتلك عبادة الحرصاء، وهو الطمع، وآخرون يعبدونه خوفاً من النار؛ فتلك عبادة العبيد، وهي رهبة، ولكنّي أعبده حبّاً له عزّ وجلّ؛ فتلك عبادة الكرام، لقوله عزّ وجلّ:** ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[3]، **ولقوله عزّ وجلّ:** ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[4]، **فمن أحبّ الله عزّ وجلّ أحبه، ومن أحبّه الله كان من الآمنين، وهذا مقام مكنون لا يمسّه إلا المطهّرون**»[5].

(1) الشريف الرضّي، نهج البلاغة، م.س، ج4، الحكمة237، ص53.
(2) الكلينيّ، الكافي، م.س، ج2، كتاب الإيمان والكفر، باب العبادة، ح5، ص84.
(3) سورة النمل، الآية 89.
(4) سورة آل عمران، الآية 31.
(5) الفتّال النيسابوريّ، محمد: روضة الواعظين، تقديم: محمّد مهدي السيّد حسن الخرسان، لا.ط، قمّ المقدّسة، منشورات الشريف الرضيّ، لا.ت، ص416-417.

مركز المعارف للتأليف والتحقيق

مِنْ مؤسّساتِ جمعيَّةِ المعارفِ الإسلاميَّةِ الثقافيَّةِ، متخصّص بالتحقيقِ العلميِّ وتأليفِ المتونِ التعليميَّةِ والثقافيَّةِ، وفقَ المنهجيَّةِ العلميَّةِ والرؤيةِ الإسلاميَّةِ الأصيلةِ.

ISBN: 978-614-467-029-3

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION
لبنان ـ بيروت ـ المعمورة ـ الشارع العام
تلفون: 471070 1 961+ فاكس: 476142 1 961+
www.almaaref.org.lb
Email:info@almaaref.org.lb